

نوال السعداوي



كسر الحدود

كسر الحدود

د. نوال السعداوى

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

**جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني
لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر
نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع أي جزء من
هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو
للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو أي
وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من
كتب عربية. حقوق الطبع الورقي محفوظة
للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.**

الإهداء

إلى النسء ماء والرجء مال الء ذین یكسء ررون
الحواجز الموروثة ویتجاوزون الخطوط الحمراء

نوال السعداوى

القاهرة- نوفمبر ٢٠٠٢

دكتورة نوال السعداوى

كسر الحدود

- نحو تحرير العقل المصري
- عالم تختفي فيه الحقيقة يسوده الوهم
- تكوين الضمي الإبداعي الحر
- تخطب النخبة المثقفة
- عن جورج بوش وتوني بليز
- الفتاة الفلسطينية التي تتحدى الحكومات العربية

كسر الحدود

المحتويات

الموضوع

تجاوز الخطوط الحمراء

ورقة لم تقدم في مؤتمرات المرأة والإبداع

هذا المقال لم ير النور

فتاة الليل والكاتبة

نحو تحرير العقل المصري

عالم تختفي فيه الحقيقة يسوده الوهم

إلى الذين يقولون عنها إرهابية

بعد أن رأيت ذاتك في المرأة

عالم جديد ممكن

التصفيق

من وحي قرار مفتي الديار المصرية

من وحي عيادتي الطبية بالجيزة

من وحي قرار شيخ الأزهر

التاريخ العائلي لزعيمة نسائية محجبة

٣ قصائد (عن الخوف)، (من وحي مذبذبة

سبتمبر ١٩٨١)، (ومن وحي الحراسة)

من وحي سنوات الغربية
القيظ والغيط في يونيو ٢٠٠٢
من وحي صحف ٥ يونيو ٢٠٠١
أمي المثالية

٦ قصيدة صغيرة
عن الذاكرة الجمعية المفقودة
تحت اسم التنمية
حجاب العقل

عن تقرير التنمية البشرية
٢ قصيدة صغيرة
تكوين الضمير الإبداعي الحر
الخيال الذكوري المبتور
أربع قصائد قصيرة

رحلة الصيف إلى الجنوب
تخبط النخبة المثقفة
عن استراتيجية جديدة للثقافة والإبداع
الاحتمال المفيد والاحتمال غير المفيد
مفهوم الوطن والحب في عيد الأم

قصيدة " قليلا من العدل "

خطورة نحو تحرير المرأة المصرية ولكن

قضية المرأة في الحوار القومي

كيف نشأ ختان الذكور في التاريخ؟

أول رحلة بالمترو تحت الأرض في القاهرة

أحلام إنسان بسيط

عن توفيق الحكيم في ذكراه الـ ١٥٠

اختيار الصعب

عن جورج بوش وتوني بلير

عيد الحب وعيد المسلمين على شاطئ نهر

هدسون

قرن النساء أم قرن الإسلام؟

إبليس في أرض الخوف

عن الحقوق المدنية والسياسية

المرأة في الألفية الجديدة

الفتاة الفلسطينية التي تتحدى الحكومات العربية

رسالة إلى وزير الصحة

رسالة إلى وزيرة البيئة

نشوء الفيروسات والحروب البيولوجية الخفية

عن هذا الكتاب

يتميز هذا الكتاب في أي مجال بأنه يكسر الحدود والقواعد السابقة على هـ، بتجاوز الخطوط الحمراء كلها، ويأتي بالجديد من الأفكار والأشكال والتعبيرات التي لا تخطر على بال، لأن الإبداع يعني الجديد والتمرد على القديم.

وخلال العشر سنوات الماضية كنت أستاذة زائر في عدد من الجامعات غرباً وشرقاً. كنت أدرس مادة أعطيتها اسم " الإبداع والتمرد". تقوم على فكرة أن لا حد للإبداع ولا سقف للعقل البشري المبدع تحت أي حجة سياسية أو دينية أو غيرها.

ولأنني طبيبة وأديبة في آن واحد فقد حاولت أن أكسر الحدود بين العلم والفن. أو بين الطب والأدب وفي كليات الطب في الجامعات المتقدمة أصبح الطب لاب والطالبات يدرسون الموسيقى والأدب والشعر إلى جانب التشريح وعلم الأمراض والفيروسات والاقتصاد والسياسة والفلسفة وغيرها.

لقد تربينا منذ الطفولة على تقديس الحدود والذوف من تجاوز الخطوط الحمراء في كل مجال. خاصة مجال القوي السياسية والدينية المسيطرة. ولهذا السبب لم يخرج من بلادنا مبدعون أو مبدعات في مجال العلوم والفنون.

لقد تربينا على التقليد، والمحاكاة والنقل والترجمة عن الآخرين وليس الإبداع بعقولنا والمغامرة والذوف في المحرمات.

ومن المحرمات الموروثة في عالم الأدب هو الفواصل والحدود التي رسمت بين الرواية والقصة والشعر والمسرحية وغيرها، وكذلك الحدود بين العلم والفن، لكن اللغة الإبداعية تكسر هذه الحدود وتعبّر عن نفسها بطرق جديدة ومختلفة، الإبداع يحطم النظام السابق على ويخلق نظاماً جديداً، الذي لا يلبث أن يتحطم مع الإبداعات الجديدة المتكررة دون انقطاع.

يواجه المبدع أو المبدعة ما تسمى مرحلة " الفوضى " بين النظامين القديم والجديد، إنها المرحلة التي تسبق قيام النظام الجديد وتلي زوال القديم وهي مرحلة مؤقتة وقصيرة. إلا أنها مخيفة وضرورية لأي إبداع.

لقد أصبحت نظرية الفوضى في النظريات العلمية والفنية التي تكمل أي نظام فليس هناك نظام دون أن يكون هناك فوضى والفوضى لا تعني الجنون والذروج عن العقل، بل تعني كسر الجمود العقلي، وتحرير العقل من القواعد السابقة والمقدسات الموروثة في العلم والأدب أو الفن أو غيرها.

وهذا الكتاب هو مرحلة من مراحل كسر الحدود بين الرواية والقصة والشعر والمسرحية والمقال العلمي، أو الأدب أو السياسة. إنه محاولة جديدة جاءت وحدها تلقائيًا بعد أن شعرت بضرورة تواجدها. لأن الأشكال الأدبية الموروثة لم تعد كافية للتعبير عما يجيش في النفس من تغيرات وتحولات في عالم يعيش التغيرات والتدويلات بأسرع مما نتخيل.

إن خيالنا يعيش في خوف من الإقحام على الجديد، والخيال جزء من العقل، يرث الذوف والنفائق بمثل ما يرث الشجاعة والصدق.

نوال السعداوى

نوفمبر ٢٠٠٢

تجاوز الخطوط الحمراء

شبهة رمادية تغلف سماء القاهرة ، وفي الأفق البعيد
السد . حابة السد . وداء ، الت . ي يتد . دثون عنه . ا ف . ي
الصحف ، ويقولون إن لا أحد إلا الله يعرف أسبابها .
-العلم عند الله !

الجميع يقولون العلم عند الله ، أصبح الله هو الشماعة
التي يعلقون على ها الأزمات والك وارث والم ذابح ف ي
فلسطين والعراق و.....

خاصة في شهر رمضان حيث يزي د الإيم ان
المزيف، وتتعج برامج الإعلام بالقرآن ونصائح شيخ الأزهر
ومفتي الديار عن العفة وتحجب النساء والصلاة والصوم
وزيارة قبر الرسول في المملكة السعودية.

ولا يزيد عن هذه البرامج الدينية إلا رقصات ال بطن
والأثداء والأرداف وتعزية أجساد النساء من أجل الترفية
عن الصالحين الصائمين في رمضان الكريم.

أكتب هذه الكلمات واليوم هو الأربعاء ٢٧ ذ وفمبر
٢٠٠٢م. الموافق ٢٢ رمضان ١٤٢٣هـ . ، الموافق ١٨

هاتور ١٧١٩.....، وبعد شهر واحد، أي في ٢٧
أكتوبر القادم سابلغ من العمر سبعين عاماً (ويضاف إليه ١
عامان) الرقم "سبعين" يرن في الأذن مهولاً مرعباً مفزعاً ما
إن يسمعه أحد في الوطن الكريم حتى يقول عذبي عذوز
شمطاء منذ قليل نشرت الصدحف المصدرية الحكومية
(والمعارضة الشرعية) عن هذه العجوز الشمطاء التي يجب
قطع رأسها لأنها تجاوزت الخطوط الحمراء وخرجت عن
الدائرة المرسومة للمؤمنين والمؤمنات بالكتاب السماوية
الثلاثة، ولأنها لا تؤمن بتقبل الحجر الأسود المقدس،
ولأنها سخرت من تقبيل رأس سيدنا كاترينا المقدس.
ولأنها سخرت من إله التوراة الذي هو إله الإنجيل وإله
القرآن الكريم وقالت إنه منح بني إسرائيل أرض فلسطين
(أو كنعان) مقابل قطع غرلة القضيب أو ختان الذكور.

- يجب قطع رأسها أيها السادة.

- لماذا أيها السيد؟

- لأنها تصور الإله في التوراة كأنما هو إله بلا عقل.

- إزاي يا أخي؟

-تصور يا أخي.. إنها تكتب وتقول إن الله سبحانه وتعالى أمر بني إسرائيل في التوراة أن يقتلوا أهل كنعان ويغتصبوا الأرض مقابل ختان الذكور؟! تصور يا أخي هذه البجاجة!

-يا أخي هذه آية مكتوبة ومطبوعة في كتاب التوراة، وهي لم ت اخترعها من خيالها، ألم تقرأ التوراة؟! -لا يا سيدي أنا لا أقرأ إلا القرآن، وقال الله سبحانه وتعالى في القرآن أن.....

-أنصحك يا أخ أن تقرأ التوراة والإنجيل أيضا حتى تفهم القرآن، لأنك لا يمكن أن تفهم القرآن دون أن تفهم الكتب السماوية السابقة على هـ.

-ما هذا الكلام يا أستاذة؟ لم أسمع بهذا الكلام من قبل! وأنا يا أستاذة تخرجت في الأزهر الشريف، وأصديحت أستاذة للفقه والشريعة الإسلامية ولم يطالبني أحد من قبل بك بقراءة التوراة والإنجيل.

-ولكنك يا أستاذ لا يمكن أن تكون مسد لما دون أن تؤمن بالكتب السماوية الثلاثة.

-نعم.

-كيف إذن تؤمن بكتب لم تقرأها؟!
-لقد خرجنا عن موضوعنا الأصلي يا أستاذ!
- ما هو؟
-قطع رأس هذه العجوز الشمطاء الكافرة.
-تاني!

الصحف الحكومية (والمعارضة الشرعية) تتشرك ل
يوم المذابح المتكررة للشعب الفلسطيني.
واليوم الأربعاء ٢٧ ذو قمبر ٢٠٠٢، تأتي عندنا
الصحف الرئيسية كالآتي:
واصلت القوات الإسرائيلية اعتداءاتها بالأسلحة الثقيلة
والدبابات وطائرات الهليكوبتر الأباتشي المقاتلة في غالبية
مدن ومناطق الضفة الغربية وفي منطقة دير البلح بقطاع
غزة.....و.....
وطالب الرئيس الولايات المتحدة الأمريكية بالإسراع
بالتدخل لمنع الكارثة الإنسانية التي يواجهها الشعب
الفلسطيني.

وفي واشنطن ماذا حدث؟؟وكم مرة طالب ال رئيس
المصري وغيره من رؤساء الحكومات العربية وملوكها
وأمرأء نطها ، كم مرة طالبوا أمريكا بالتدخل لإنقاذ
فلسطين؟!

وتتدخل أمريكا بالطبع،فهي تزيد المعونات العسكرية
والاقتصادية لإسرائيل وتكافئها على المذابح التي تقترفها
في فلسطين(والعراق.. سنأتي للعراق بعد قليل).

ومع ذلك لا يكف الرؤساء في بلادنا العربية عن
استجداء أمريكا بالتدخل لمنع الكارثة!

كيف هذا أيها السادة؟ ولماذا؟

من أجل استمرار المعونة الأمريكية التي ثبت أنه لا
تفيدنا بشيء بل أضرارها أكثر؟!

هل لأن الرئيس المصري الراحل أنور السادات أفندي
بأن أمريكا تملك ٩٩% من أوراق اللعبة؟! هل لأنه هو
الذي بدأ الانفتاح على أمريكا وتلقي المعونة بدلا من
الإنتاج والتنمية الحقيقية؟! هل لأنه بدأ عملية السلام المزيفة
التي عرفت باسم كامب ديفيد الأولى، والتي قادت إلى هذه
المذابح التي نعيشها اليوم؟

ومتي يكشف التاريخ عن زيف عملية السد لأم ه ذه؟
وزيف حكاية المفتشين الدوليين الذين بدأوا اليوم في بغ داد
التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في العراق!!
ألا يفتشون عن أسلحة الدمار الشامل في إسرائيل
أيضا؟ولماذا وافقت الحكومة المصرية على توقيع اتفاقية
نزع السلاح النووي على حين رفضت إسرائيل؟!
إنها الحكومة الأمريكية التي ضغطت وضغطت على
الحكومة المصرية حتى وقعت حكومة مصر على الاتفاقية
وهذه كارثة الكوارث.

أن تصبح إسرائيل هي القوة المسد لحة الوحيد في
المنطقة التي نعيش فيها ،وبعد أن تضرب فلسطين
والعراق(بالتعاون مع أمريكا) سوف تضرب مصر وسوريا
وأي بلد آخر.

ومع ذلك يستمر الخداع الصحفي والإعلامي واليوم
يكتب الصحفيون في الحكومة المصرية أن معاهدة السد لأم
للسلام أو زيارته للقدس عام ١٩٧٧ (١٩نوفمبر) تسد ماوي
في أهميتها لحظة هبوط الإنسان على سطح القمر.

أجل أيها السادة، إنها لحظة تاريخية هامة، بدا فيه ا،
انهيار العرب. أو ما يطلق على ها الأمة العربية. أصبحت
كلمة الأمة العربية أو الوحدة العربية كأنما هي وصمة
عار. وأصبحت جامعة الدول العربية أضحوكة، أو نكتة ،
هل سمعتم آخر نكتة عن قرارات الجامعة العربية؟!
كثير من المفكرين العرب والمصريين يتساءلون اليوم:
هل تتقرض الأمة العربية ويحذف من القاموس السياسي
كلمة "العالم العربي" ويحل محلها " الشرق الأوسط" تد ت
سيطرة إسرائيل؟!!

النفاق سيد الاخلاق والتجسس أيضا:

أحد كبار الصحفيين في مصر (ومعه عدد كبير م ن
رجال ونساء الإعلام) يكتب الشيء ونقيضه حسب
التوجيهات القادمة من أعلى.
يتغير رأيه في جمال عبد الناصر حسب التوجيهات
المحلية و الدولية.
ويتغير رأيه في أنور السادات أيضا.

إنه يشعر بحقه في النقد لأن الديمقراطية تسود في
العهد الحالي، وهو قادر على نقد الرؤساء الموتى فحسب،
أما الأحياء فهم....

وهو يكتب اليوم الأربعاء ٢٧ ذ وفمبر ٢٠٠٢ بعد
المذابح الأمريكية الإس رائيلية في فلس طين والع راق
وغيرهما.. "واشنطن تؤكد استمرار المعونة الاقتصادية
والعسكرية لمصر".

أكد ريتشارد باوتشر المتحدث باسم وزارة الخارجية
الأمريكية أن الولايات المتحدة لا تعتزم إجراء أي تخفيض
في حجم المعونة لمصر خلال السنة المالية ٢٠٠٢، والتي
سوف تصبح ٦١٥ مليون جنيه في السنة التالية، وتقدر
المعونة العسكرية بمليار و ٣٠٠ مليون دولار سنوياً.

وأكد الرئيس جورج بوش أن على حكومة مصر
وغيرها من الحكومات المتلقية للدعم أن تستمر في فتح
أسواقها للبضائع الأمريكية والخضوع للسياسة التي تفرضها
واشنطن.

يظهر هذا الخبر الأخير بالبنط الصد غير ج دأ ن ق رأ
الآتي: زيادة معدلات الفقر في مصر وفشل مشروعات
التنمية.

انخفض الاستثمارات المحلية والأجنبية في
مصر: يكشف التقرير (من مكتب رئيس مجلس الوزراء)
أن حجم الاستثمارات المحلية هبط إلى ٢٣,٩ مليار جنيه
عام ٢٠٠٠، ثم هبط إلى ١٤,٦ مليار جنيه حتى أغسطس
٢٠٠٢، وانخفضت الاستثمارات الأجنبية إلى ٥٢٩ مليون
دولار حتى أغسطس ٢٠٠٢ (وكانت ٤١٦٧ مليون دولار
عام ١٩٩٩).

وضعت الحكومة المصرية في مشروع قانون
الاتصالات الجديد نصاً يسمح لجهات الأمن بالدخول على
الشبكات للتتبع على المكالمات التليفونية. حسب المادة
٦٥ من مشروع القانون التي تدعي التجسس على
المواطنين.

من الصحف المصرية في ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٢

- يا مواكب النفاق يا سبب الهزيمة.
- يا من تحولون الشيء إلى نقيضه.
- يا من تصنعون بطلاً وهمياً.
- من الكلام والإعلام.
- وتمتلئ الصحف بالحبر المراق.
- عن البطل المغوار.
- الذي لم يدخل معركة واحدة.
- الذي يعيش في كنف السلطة.
- الذي شارك على مدى العقود.
- في الخضوع وتأييد التبعية.
- وفجأة يصبح فوق الورق.
- هو المقاتل ضد الصهيونية.
- وهو المعادي للتبعية.
- والمقاتلون الحقيقيون والمقاتلات.
- في السجن أو المنافي.
- أو في البيوت يدفنون.

- يقولون انهزمنا أمام الأعداء.

- أقول لهم لم تكن هي هزيمتنا.
- بل هزيمتكم أيها السادة.
- أيها المتكرون داخل ثياب وطنية.
- وأسماء عربية.
- وبشرة سمراء أو قمحية.
- تقولون إنكم السادة ونحن الشعب.
- تسرقون أحلامنا وخبزنا وقطع الجبن.
- نفتش عن لقمة العيش في صفائح القمامة.
- وفي الأرض البعيدة الغربية.
- نعيش خارج الوطن غرباء.
- وغربتنا داخل الوطن أشد.

إلى أحد سجناء الرأي في مصر

٨ أغسطس ١٨٩٧ قبل سقوط الخديوي

- مواكب النفاق يا صديقي
- تجعلك كبش فداء.
- يتاجرون بالوطنية والأمانة.
- علي حسابك.

- بيوتهم من زجاج.
- كم رجل وامرأة اختلسوا وهربوا.
- بالمليارات.
- ومثلهم يعيشون حياة الأبطال.
- تحت اسم الدفاع عن فلسطين.
- أو العراق.
- أو حقوق النساء.
- أو التعددية والهوية والتنمية.
- لم يقدمهم أحد للمحاكمة.
- ولم يدافع أحد عنك.
- إلا الأغلبية الصامتة.
- اللاهية عنك.
- بلقمة العيش.
- وبقيت كلمة أخيرة.
- سيكون مشرفاً لك أن تبقى في السجن.
- عن أن تكتب التماسا بالعفو.
- من الخديوي ولي النعم.

ورقة لم تقدم في مؤتمر المرأة والإبداع

أكتوبر ٢٠٠٢

-ربما لا تري هذه الورقة النور.

-لأن الموضوع يتجاوز الخطوط الحمراء.

-وقد لجأت إلى الرمز والخيال.

-من أجل خداع السلطات.

-ولأنمنية عاجلتني.

-فلم أحضر المؤتمر.

-وهل يمكن أن تتحر النساء.

مقرفسين كالدجاج.

-والأبواب كلها مغلقة.

-والشرطة في كل مكان.

-ولأنهم عاجزون عن الاحتجاج.

-وهي تأتي دائما متأخرة.

وتجلس على العرش مزينة.

-كأنما هي مخلدة.

-ترمقهم من فوق المنصة العالية.

- بعين ناعسة.
- تري مسوحهم الزاهية.
- جهزوا لها كلمة بليغة.
- عن الإنجازات العظيمة.
- يتنافسون أمامها على إلقاء الخطب.
- عن تحرير النساء.
- وترسم علامات الدهشة على وجوه الناس.
- وتخلو الطرق من البشر.
- ويعود الجميع إلى بيوتهم.
- وقد أصابهم الاكتئاب.
- لأن المؤتمر انتهى.
- دون أن يحدث شيء.
- ودون أن تتحرر النساء.

اكتبي يا ابنتي حتي لا تموتي

- كانت الكتابة محرمة.
- علي العبيد والنساء.
- لأن الموت مكتوب على هم.

- ولأن الخلود.
- فقط للآلهة.
- الذكور.
- وفي طفولتي كنت أخاف.
- ومن شدة الخوف أصبحت أطيع.
- أوامر الله والملك والوطن وأبي وأمي.
- كانت أُمي تأتي دائما في النهاية.
- مع أنني لا أرى سواها.
- وكانت هي أول وجه رأيته وأول صوت سمعته.
- كانت هي البداية ومع ذلك دفعوها إلى الخلف.
- كانت تكتب في السر وتخفي كلماتها تحت الأرض.
- كانت مثلي تخاف حتى ماتت.
- لكنها قالت لي قبل أن تلفظ نفسها الأخير
- لا تكوني يا ابنتي مثلي.
- واكتبي.. اكتبي حتى لا تموتي.

في خريف عام ١٩٨١ د ين ك ان التش ماؤم يسد ود
المسجونات معي في الزنزانه ويحوم شبح الم وت د ول

رؤوسنا ، إذ بالقصيدة تهب منتصبة داخلي كالمارد ، تقاوم
اليأس تتحدي الموت، وأسمع صوتي الغاضب يقول: لن
نموت، وإن متنا فلن نموت ساكتات لن نمضي في الظلمة
دون ضجة ، لا بد أن نغضب ونغضب ، نضرب الأرض
ونرج السماء ، لن نموت دون أن نكسر قضبان الحديد، وإن
متنا لن نموت صامتات.

مذكراتي في سجن النساء ١٩٨١

وفي مفكرتي السرية عام ١٩٤٧، وأذا تلميذة في
المدرسة الداخلية في حلوان ، ظلت هذه القصيدة مكتوبة
بالحبر الأسود محفورة في ذاكرتي وفوق الورق:
- قبل أن أغيب في النوم كل ليلة، أقول لنفسي:
- سيأتي الصبح حتماً ولن أموت، وإن مت.
- فلن يؤلمني شيء بعد الموت.
- لا السقوط في الامتحان ، ولا الضرب.
- على أطراف الأصابع بالمسطرة.
- ولا زمهرير البرد ولا لهيب الشمس ولا نار الجحيم.
- لم أجد إلا صديقتي في العنبر لأسألها: هل نموت؟

-إن متتا هل يؤلمنا أن نموت؟ أين نحن؟
-الآن في عنبر الموتى، في اللا مكان واللا زمان.
-ولا وجود للحب إلا بعد أن نحترق في الحريق.
-ونصير كالرماد، كرمال الصحراء في حلوان.
-كأننا يا صديقتي متتا قبل الأوان.
-رأيت المشهد في الحلم، وعرفت أننا نمضي.
-إلى حيث لا ندري فهل أكون في الغد ما أريد أن
أكون؟

. شاعرة أو ناثرة أو حتى آثمة؟
-هل أرى اسمي فوق كتاب ممنوع؟ وأشق السماء.
بقلمي ، وأجعل المطر رهن مشيئتي؟
-والنهار والشعر والنثر.
-ينثال من خطيئتي، فليحرقني الله في نار جهنم.
-ولتشرب الأرض دمائي لكني أبداً لن أموت.

حلوان الثانوية ١٩٤٧

هذا المقال لم ير النور

-لأن النور مملوك.

-لأن النور مملوك لخدام الملوك....

أدهشني مقال إبراهيم نافع في جريدة الأهرام ١١ أغسطس ٢٠٠٠ الصفحة الأولى تحت عنوان: كشف حساب العلاقات المصرية الأمريكية. يرد فيه على سؤال الصحفي الأمريكي الذي تساءل في جريدة أمريكية عما حصلت على ه أمريكا مقابل ما دفعته لمصر منذ عام ١٩٧٨ من معونة تبلغ ٣٠ مليار دولار.

ما أدهشني أن مقال إبراهيم نافع يكشف عن حجم الخسارة الاقتصادية التي تكبدتها مصر بسبب المعونة الأمريكية، وكان ذلك معروفا خلال ربع القرن الماضي. ليس لعلماء الاقتصاد فحسب، وإنما لرجل الشارع وامرأة الشارع التي تخرج لتشتري الطعام من السوق، فإذا بها تصرخ في البائع لأنها لم تعد قادرة على شراء السلع الأمريكية التي ملأ بها رفوف دكانه على حين اختفت السلع المصرية.

منذ منتصف السبعينيات وبعد ما سمي بالانفتاح
الاقتصادي في عهد السادات أصبحت رورات الحياة
عسيرة وشاقة ليس فقط على الملايين الكادحين. بل على
الطبقات الأخرى الأكثر راحة، بدأ الفقراء يزدادون فقراً
وظهرت القطط السمان وظاهرة أصحاب الملايين، ثم
ظاهرة أصحاب البلايين إلى الحال التي وصلنا إليها الآن.

لقد كشف إبراهيم نافع أخيراً ومتأخراً ربع قرن عن
حجم الخسارة المالية والاقتصادية لمصر منذ عام ١٩٧٥ م
ومنذ العلاقات المصرية الأمريكية، وقبول الشروط
الأمريكية المجحفة المدمرة للاقتصاد المصري والإنعاش
المحلي مقابل تلك المعونة، والتي كانت مجرد الطعم في
شبكة الصياد، والتي بلغت ٣٠ مليار دولار (حسب قول
الصحفي الأمريكي، وانخفضت إلى ٢٣ مليار دولار فقط في
قول إبراهيم نافع، خلال ربع القرن الماضي، أي بفارق ٧
مليارات دولار لم نفهم هذا الخلل الكبير في الحسابات.

المهم الآن أن خسارة مصر الاقتصادية من جراء
المعونة والعلاقات الأمريكية أصبحت منشورة في الأهرام
بقلم رئيس التحرير. وكان محظوراً نشر هذه الحقائق (إلا

في بعض صحف المعارضة الصغيرة المحدودة الانتشار) وأذكر أنني نشرت مقالا في أغسطس ١٩٨١م يشبه المقال الذي نشره إبراهيم في أغسطس ٢٠٠٠م حيث نقد العلاقات المصرية الأمريكية وما تسببه من خسائر لـيس مالية واقتصادية فحسب. إنما خسائر سياسية وثقافية وأدبية وهي في رأي غير منفصلة عن الخسائر المالية بل ربما أخطر.

إن الخسائر الاقتصادية لاشك خطيرة وهي معروفة ومنشورة في الصحف الأوربية قبل الصدحف المصرية المعارضة، ذلك أن اليسار الأوربي والقوى الاشتراكية في العالم كانت أكثر دراية بالاستعمار الأمريكي الجديد في الشرق الأوسط (والقارة الأفريقية) والذي حمل مدال الاستعمار البريطاني والفرنسي في عالمنا العربي والأفريقي.

لم تكن هذه الخسائر الاقتصادية المصرية مجهولة وقد كنت متاحة للنخبة المثقفة المصرية التي تقراء الصدحف الأجنبية، إلا أن هذه النخبة كانت عاجزة عن الكتابة في هذه الموضوعات المحظورة تحت اسم حماية الأمن القومي

أو المصالح العليا لمصر وعلاقاتها بالدول الصديقة وعطى
رأسها الولايات المتحدة الأمريكية.

إلا القلة القليلة التي كتبت ودخلت السجون أو شردت
أو تم تجاهلها وتهميشها حتى هاجرت أو عاشت المنفى
خلال ربع القرن الماضي ، وطفأ على سطح الحياة في
بلادنا هؤلاء الذي يؤيدون السياسة الاقتصادية منذ الانفتاح
في منتصف السبعينيات وحتى اليوم، والتي أدت إلى هـ ذا
الفقر الخطير الذي يتحدث عنه الجميع اليوم على رأسهم
هؤلاء الذي أيدوا السياسات التي أدت إليه.

ورب ضارة نافعة ، ومن تأزم العلاقات المصدرة
الأخيرة (بسبب كامب ديفيد الثانية والتي هي النتيجة
المنطقية لكامب ديفيد الأولى) أصبح في مقدور الشعب
المصري أن يقرأ في جريدة الأهرام اليوم أن المعونة
الأمريكية لمصر خدعة كبيرة. أو أنها كانت لصالح أمريكا
على حساب المصالح المصري ويكفي أن نعلم أن العجز
التجاري المصري (لصالح أمريكا) بلغ ٧٥% من قيمة
التجارة بين البلدين ، هذا الاختلال الخطير الاقتصادي منذ
عام ١٩٧٤ والذي يقول إبراهيم نافع إنه مسد ثولية أمريكا

وكانما السياسة المصرية، وحقت أمريكا من ذلك أرباحاً وفائضاً تجارياً بلغ أكثر من ٤٤ مليار دولار (أي ضعف المعونة الأمريكية لمصر خلال هذه الأعوام نفسها).

هذا من الناحية الاقتصادية فقط، ولم يتعرض إبراهيم نافع للخسائر المصرية في المجالات الأخري، إذ إن الاقتصاد غير منفصل عن السياسة وعن الأمن القومي وعن الإعلام والثقافة وغيرها من مجالات الحياة.

والسؤال الوارد الآن: ألم يصاحب الخلل الاقتصادي مادي خلل في المجالات الأخرى الهامة على رأسها الأمن القومي في مواجهة إسرائيل؟

ألم تصاحب الشروط التجارية المجففة لمصر اقتصادياً شروط أخرى سياسية أدت إلى الخلل الحادث اليوم بين مصر وإسرائيل بالنسبة لواقع التسلح الاستراتيجي في الشرق الأوسط؟

أصبحت جريدة الأهرام تكشف عن هذا الخلل أخيراً (لكن في انفصال عن الخلل الاقتصادي).

في الأهرام ١٢ أغسطس يظهر أخيراً مقال تحت عنوان: تقارير المخابرات الأمريكية وواقع التسلح

الاستراتيجي في الشد رق الأوس ط ،بقط م محمد د عبد د السلام،يكشف فيه عن الخلل الذي حدث بين إسرائيل ومصر عسكرياً. وفي الوقت الذي وقعت فيه مصر على عدد من الاتفاقيات أو معاهدات حظر أو منع انتشار الأسلحة النووية (في ٢٦ فبراير ١٩٨١) ومعاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية (في ١٤ أكتوبر ١٩٩٦) وسبق ذلك الموافقة على حظر تطوير الأسلحة البيولوجية أو إنتاجها (في ١٠ أبريل ١٩٧٢).

صدقت مصر على كل هذه المعاهدات ضد غط امريكا التي لم تضغط على إسرائيل ،وبالتالي لم توقع إسرائيل على هذه المعاهدات مما أدى إلى خلل وعدم توازن بين إسرائيل النووية ومصر النووية، بل لأن مصر دولة محورية في العالم العربي والأفريقي. فقد أثرت مصر على هذا العالم الذي وقع مثل مصر على هذه المعاهدات المجحفة، وتزايدت ترسانة إسرائيل النووية خلال الأعوام الأخيرة، بل أصبحت تملك طرازاً جديداً من صواريخ جيركو تم تطويرها وتحميلها برؤوس نووية أصحب في

السنين الأخيرة إخطبوط متعدد الأذرع (حسب المقال في الأهرام).

أما الخل الإعلامي والثقافي فهو مع روف وأكثر ظهوراً من الخل الاقتصادي أو العسكري أو غيرهما من المجالات الحساسة المحظور نشرها في معظم الأحيان.

وهل نقول إن التبعية الإعلامية والثقافية لا تتفصل عن التبعية الاقتصادية وغيرها من المجالات الحيوية في البلاد، ألم تجف حلوقنا منذ ربع قرن ونحن نقول ذلك، حتى في المقالات عن قضية المرأة. ألم نربط الفقر المتزايد والقيود المتزايدة على النساء تحت اسم الدين والأخلاق؟ ألم يكن الإرهاب الديني وقهر النساء جزءاً لا ينفصل عن الإرهاب الاقتصادي والإعلامي. وما أكثر من يتكلمون اليوم عن ظاهرة تأنيث الفقر كأنما هي ظاهرة منفصلة في التاريخ وهابطة فجأة من السماء وليست نتيجة منطقية لما سمي الانفتاح الاقتصادي والذي أصبح يسد مرمى اليوم والإصلاح الاقتصادي.

إن هذا الفصل بين المجالات هو الذي يؤدي إلى
التجهيل بما يحدث لنا ويعيش الشعب المصري نهباً لموارده
المالية والمعنوية في آن واحد. بالإضافة إلى إخفاء الحقائق
وعدم إظهارها في وقتها بل بعد فوات الأوان.

والسؤال: من المسئولون عن ذلك؟ في الماضي
والحاضر، ذلك أن الماضي لا ينفصل عن الحاضر ولا
ينفصل عن المستقبل.

فتاة الليل والكاتبة

وهذه ورقة أيضا لم تقدم في مؤتمر المرأة والإبداع الذي عقد بالقاهرة خلال أكتوبر ٢٠٠٢، لأنه: صباح اليوم الأول للمؤتمر تم العثور على جثة الكاتبة الفاضلة (أ.د. المصري)، فوق دكة خشبية بحديقة كازينو النيل، وتم العثور بجوار الجثة على أوراق بخط يدها وقلمها الذهبي المعروف. مما يدل على أن الموت فاجأها بينما كانت تكتب الورقة المزمع تقديمها في المؤتمر، وأمرت النيابة بالإفراج عن فتاة الليل التي رآها بعض شهود العيان جالسة إلى جوار الفقيدة الفاضلة فوق الدكة الخشبية.

فتاة الليل والكاتبة الكبيرة:

كانت الكاتبة الفاضلة (أ.د. المصري) تقضي الساعات جالسة فوق هذه الدكة تحاول أن تقتل الوقت بالكتابة، تحلق في الأوراق طويلا ثم ترفع رأسها وتحلق في الظلمة وفي

تلك الليلة من شهر أكتوبر كان الهواء البارد قادمًا من الشمال، ينذر برياح متربصة على الأبواب وحرب موشكة على الهبوب.

الجوك كان ملبداً بسد حابة سدوداء تزيده من الظلمة، وانقباض القلب، والتوجس من حدوث جريمة أو شيء آخر يزيد الرعب، وقعقة الهواء تمتد زج بقعقة الميكروفونات المثبتة فوق الجوامع والمآذن. تتطلق منها الأصوات كالمفرقات أو الرصاصات من فوهات المدافع.

كانت الكاتبة الفاضلة جالسة في يدها القلم، يلمع غطاؤه الذهبي في الظلمة تحوطها هالة من الرهبة مثلكبار الأدباء، لا يظهر منها إلا الرأس الملفوف بحجاب أبيض مثل هرم من الثلج، مطرقة قليلاً فوق أوراقها تكتب.

من قلب الظلمة تظهر فتاة صغيرة، تسير ببطء شديد وإعياء واضح، نحيفة الجسم ترتدي ثوباً أسود ضيقاً مكشوف العنق حتى الشق العميق بين النهدين، تتوقف أحياناً لتلتقط أنفاسها، تستدير برأسها الصغير يحوطه شعر كثيف أسود، منكوش قليلاً، تتطلع إلى السماء تخاطب الرب بصوت غير مسموع يشبه التمتمة المكتومة.

تراقبها الكاتبة الفاضلة لحظة ثم تتكفى فوق الورقة
تكتب. تمر بها الفتاة دون أن تلاحظها ثم تنتبه إلى
وجودها ، فتعود إليها وتجلس على طرف الدكة بحيث
تترك مسافة كبيرة بينها. ترفع الكاتبة (أ.د. المصيري)
عينها نحوها بشيء من الفضول دون أن تقول شيئاً. الفتاة
ترمقها بنوع من الاستطلاع الطفولي، تتأمل من بعيد
حروفها فوق الورقة، تبتسم قليلاً ثم تقول:

الفتاة: يبدو أنك منشغلة بالكتابة يا سيدتي.

الكاتبة (بصوت خشن): آسفة أنا مشغولة جداً
ولا أخاطب بنات الليل.

الفتاة (في حرج): عندك حق يا سيدتي أعتذر
لك.

تتم الفاتمة بالنهاية لتغادر
المكان، لكن الكاتبة الفاضلة تشعر بتأنيب الضمير أو
شيء من الشفقة.

الكاتبة: يمكنك الجلوس إن شئت.

الفتاة: سأستريح قليلاً ثم أواصل المشي.

الكاتبة:أنا لا أملك هذه الدكة ويمكنك الجلوس
كما تشائين.

تعود الفتاة إلى الجلوس وهي تمسح حبات
العرق عن وجهها بمنديل صغير أبيض. ترمقه ما
الكاتبة الفاضلة بطرف عين. تتطلع مع الفتاة إلى
السماء السوداء وتهمس مخاطبة الرب.
الفتاة:أنت شاهد على أنني لم أكن ممن بنى
الليل.

الكاتبة: كنت إذن فتاة شريفة؟
الفتاة(تبتسم):أشكرك على هذه الكلمة
الرقيقة، وإن كانت عن الماضي وليس الحاضر ،
في حياتي كلها لم أسمع هذه الكلمة "شريفة" يا لها
من كلمة جميلة...

الكاتبة: تتصرف عنها إلى كتاب في الورقة،
ترمقها الفتاة طويلا وهي تكتب ،يددو أن الكاتبة
متعثرة قليلاً والقلم الذهبي لا يتحرك في يدها وإن
كان يلمع في الظلمة.

الفتاة: هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً صغيراً
يا سيدتي؟

الكاتبة: ما هو هذا السؤال؟ (دون أن ترفع
رأسها عن الورقة).

الفتاة: هل أنت كاتبة يا سيدتي؟
الكاتبة: ترفع وجهها ناحيتها وترد بصوت ي
عن الضيق قليلاً :

بالطبع! ألا تعرفين ذلك؟ ألم ترين صورتي
في الصحف وفوق شاشة التلفزيون؟
الفتاة: أعذر لك يا سيدتي ، ليس عندي
تلفزيون ولا أستطيع شراء الصحف.
الكاتبة: آه، هذا مفهوم بالنسبة لك.
الفتاة: لكنني أحرم نفسي من الطعام أحياناً
لأشتري كتاباً.

الكاتبة: لابد أنك قرأت كتاباً من كتبي.
الفتاة: هل لك كتب يا سيدتي؟
الكاتبة (بحماس): عندي الكثير من الكتب
وحصلت على جائزة الدولة ولقب كاتبة كبيرة.

الفتاة: أعتذر لك عن جهلي يا سيدتي.
لكن.....

الكاتبة: لكن ماذا؟

الفتاة: لابد أن عندك مكتب كبير وبيت جميل
فيه مكتب أيضاً.

الكاتبة: بالطبع.

تصمت الفتاة مترددة ثم تقول بشيء من
الحرص:

الفتاة: أعتذر عن تطفلي يا سيدتي ، كيف
لكاتبة كبيرة مثلك أن تجلس في الليل فوق هذه
الدكة وتكتب؟

تطرق الكاتبة وتعود إلى الورقة في
صمت .الفتاة أيضا تصمت،وتشرد عيناها ما بعيدا
وهي تهمس لنفسها:

الفتاة: في الماضي البعيد وأنا طفلة كان لي
مكتب صغير في غرفة نومي ،وكانت لي مفكرة
أكتب فيها.

الكاتبة: (دون أن ترفع رأسها عن الورقة):
كنت تكتبين؟!!

الفتاة (شد ماردة دون أن تنظر إليه لـ): في
الماضي البعيد حين كنت فتاة شريفة.
الكاتبة: آه، هذا مفهوم.

تحرك الفتاة رأسها نحو الكاتب وتتسع
عينها السوداء وان يملؤهما بريق خاطف مع
السؤال:

الفتاة: ما هو المفهوم يا سيدتي؟
الكاتبة الفاضلة: علاقة الكتابة بالشرف
أفهمين؟!!

الفتاة: أبذل كل جهدي لأفهم ، وإن كنت لا
أفهم ، فأنا مرهقة من طول المشي لا أسد تطيع أن
أقول لك متى يبدأ المشي ومتى ينتهي ، يبدو أنه بلا
نهاية ، خالد ، إلى الأبد مثل الرب.

الكاتبة: (في ضيق): أستغفر الله العظيم ، ألسنت
مؤمنة وموحدة؟

الفتاة: مع ذرة يا سيدتي إن جرحك
إحساسك ،وقد تقولين عني غير مؤمنة كما قلت
عني غير شريفة ، لكن... آه من هذه الكلمات
الجارحة إنها مؤلمة للجسم أكثر من الصفعات باليد
أو بالقدم، آه من هذه الكلمات يا سيدتي ، إنها
كارثة...

الكاتبة: ماهي الكارثة؟

الفتاة: نعم يا سيدتي ، الكلمات هي اللغة،وهي
وسيلة الكتابة الوحيدة،ومع ذلك لا تسمح بها... نعم
لا تسمح بها...

تصمت الفتاة وهي شاردة.. الكاتبة الكبي
ترمقها باهتمام بعد أن كانت غير مبالية بها.
الفتاة: هل أضيع وقتك الثمين يا سيدتي به ذا
الكلام الفارغ؟

الكاتبة: لا... استمري.... أنا أستمع إليك.

الفتاة: أشكرك على حسن استماعك ، كل ما
أريد أن أقول إن الكتابة... آه ، هذه الكتابة أمرها
عجيب ،أرجوك صدقيني، إنها ليست شيئاً واضحاً

يمكن كتابته على الورق، كانت هي هكذا دائما منذ
طفولتي، ولم يكن هناك شيء يؤنسني في وحدتي
إلا هي، أنا أحبها يا سيدتي لأنها تواسيني بطريقتها
الخاصة، وأذا ما بحاجة إليها وأذا ما في الليل
وحدي، والريح تعوي كالذئب، وهذه الأصوات
المفرقات من فوهات الميكروفونات ولا شيء لا
شيء. يبعث على الراحة، وأنا أمشي وأمشي
حتى أشعر بالإعياء، فأستريح فوق أي دكة في
الطريق، وأقول لنفسي كم أنا فتاة محظوظة، لأنني
أستطيع الجلوس في النهاية وأفتح مفكرتي الصغيرة
منذ الطفولة، وأكتشف حروفي المختفية بين
السطور والموسيقى الخافتة للكلمات...

تتوقف الفتاة عن الحديث، يبدو على
ها الإعياء الشديد تمسح حبات العرق عن وجهها
بالمنديل الأبيض الصغير تلتقط أنفاسها.

الكاتبة (باهتمام): لماذا توقفت؟ هذا حديث جميل

يا ابنتي.

الفتاة(تبتسم): آه، هذه الكلمة " يا ابنتي " تثيّر
حنيني إلى أبي.

الكاتبة: كنت أتصور أنني بصفتي امرأة أثيّر
حنينك إلى الأم.

الفتاة: لم يكن لي أم يا سيدتي.
الكاتبة: آه أسفة لهذا.

تصمت الفتاة لحظة وهي تبتلع
دموعها خلسة وتعدل من فتحة ثوبها لتخفي الشدق
بين نهديها ثم تقول:

الفتاة: وأنت يا سيدتي ، هل كان لك أم؟
الكاتبة(في أسى): نعم كان لي أم.
الفتاة:وأب؟

الكاتبة: نعم بكل أسف
الفتاة:وهل أنت متزوجة؟
الكاتبة:نعم بكل أسف.

الفتاة: أعتذر لك إن كانت أسئلتني تؤلمك.
الكاتبة:لا بالعكس،أشعر بشيء من الراحة في
الحديث معك.

الفتاة: وهل بيتك بعيد؟

الكاتبة: لا ، بيتي قريب ،إنه هناك في الناحية
الأخرى من هذه الحديقة وأنا أجلس هنا أطل على
ه ، انظري ،إنه هناك،ذلك البيت الأبيض الكبير،إنه
بيتي وأنا أنتظر ظهور الفجر لأعود إليه وأنام.

الفتاة تتطلع نحو البيت في صمت طويل
وشرود ثم تقول:

الفتاة: آه،كم هو صعب الانتظار ،حتى طلوع
الفجر ،أصعب شيء في حياتي هو الانتظار ، رغم
التعب أنا أفضل المشي على الانتظار،ولها ذاذا
اكتب يا سيدتي فالوقت يمضي بسرعة ونحن نكتب.
الكاتبة: هذا صحيح تماما،لكن كيف أدركت
كل هذا وأنت في مقتبل العمر؟!

الفتاة: كنت مجبرة على ذلك،وقد بلغت
العشرين من عمري منذ ثلاثة أيام،وأشعر كأنني في
الستين أو السبعين ،وكلما أمشي أحس كأن قديمي
مقيدتان بسلسلة من الحديد.

الكاتبة: وأبوك أين هو؟

الفتاة: أبي تزوج امرأة شريفة تملك بيتاً، وه و
بيت ضيق تجبره زوجته فيه على أن ينام على كليم
فوق الأرض وهي تنام على السرير.
الكاتبة: ألا يمكنك النوم في بيت أبيك بدلاً من
هذه الدكة؟!

الفتاة: لا يا سيدتي ،أنا غير مسموحة لى
بزيارة أبي.
الكاتبة: أليس لك أقارب أو قريبات ، عمك
مثلاً او خالتك؟ ألا ترين أنك لا

تستطيعين الاستمرار هكذا؟

الفتاة: لم لا يا سيدتي؟أست مثلي تقضين الليل
فوق هذه الدكة؟

الكاتبة: نعم،ولكنى عند الفجر أعود إلى
بيتي ،وأتناول طعام العشاء ،ثم أدخل
إلى الفراش بلا صوت حتى لا أوقظ زوجي.
الفتاة: أنت إنسانة حساسة، لكن ماذا يفعل
زوجك في الليل،أو يكتب مثلك؟

الكاتبة الكبيرة تصمت شاردة بعينيهما في
الظلمة، تمسح حبات العرق عن وجهها
بطرف حجابها الأبيض.
الكاتبة: لو كان يكتب ربما هان الأمر.
الفتاة: أرجو المعذرة، لا تتكلمي إن كان ذلك
يؤلمك.

الكاتبة: بالعكس ربما أشعر بشيء من الراحلة
لو حدثتك عن أشياء أخفيها عن نفسي.
الفتاة: هذا يذكرني بطفولتي حين كنت أعترف
لمفكرتي بأشياء لا أعترف بها لنفسي وكنت أسد مع
من الناس أن أبي رجل غير شريف، وأود أن أقتله
لأمسح العار بالدم، لولا أنه كان يضحى بشرفة من
أجل إطعامي.

الكاتبة: كلنا بشكل أو بآخر نتحمل الإهانة من
أجل هدف نبيل.

الفتاة: وماذا كان هدف حياتك؟ الكتابة؟!

الكاتبة: آه، الكتابة، نعم يا ابنتي ، لكن ما
جدوى الكتابة إذا بقيت في الدرج دون أن تري
النور؟ وهذا أمر بالغ الصعوبة ،أتفهمين ما أقول؟
الفتاة: نعم أفهم يا سيدتي ،وعند دي قصة
قصيرة لم يكن لها أن ترى النور إلا بعد أن قدمت
نفسى لأحد الرجال، كانت الأبواب مغلقة في وجهي
وليس أمامي طريق آخر ، أتقولين عذري غير
شريفة؟

تصمت الكاتبة طويلاً وهي تمسح
وجهها بطرف طرحتها البيضاء ثم تقول متلعثمة:
الكاتبة: لا... لا أقول عنك هذه الكلمة القاسية،
لأن هدفك كان نبيلاً ،وهو أن تري كلماتك
النور، هذا هو حال الدنيا يا ابنتي.

الفتاة: أتقولين إن الدنيا نفسها غير شريفة؟
الكاتبة: نعم لا ، لا أعرف الحقيقة تماماً ولأن
الله وحده هو الذي يعلم...

يبدو الإعياء الشديد على الكاتبة الكبيرة ،
يسقط القلم من يدها والورقة

على الأرض تنظر في ساعة يدها
بعينين غائمتين، أطراف أصابعها ترتعش، لا تكاد
تري أرقام الساعة.

الكاتبة (في إعياء شديد): لم أعد أرى الأرقام
كما كنت انظري يا ابنتي كم تكون الساعة؟ لكن
الظلمة لا تزال شديدة والفجر لم يطلع بعد لأعود
إلى البيت.

الفتاة تساعد الكاتبة في تجميع الورق الساقط
إلى الأرض. وأنفاس الكاتبة اللاهثة تنم عن
الإعياء القريب من الإغماء، تساعد الفتاة على
تمديد ساقها المتورمتين فوق الدكة، تستعيد الكاتبة
أنفاسها مستريحة قليلاً. ترمق الفتاة البيت الأبيض
في الناحية الأخرى من الحديقة وتساءل في حرج:
الفتاة: بيتك قريب، هل آخذك إلى بيتك
لتستريح يا سيدتي؟

الكاتبة: لا، لا أريد العودة حتى يطلع الفجر.
الفتاة(في حيرة): ألا يمكنك العودة قبل ذلك؟

الكاتبة: يمكنني العودة في أي وقت ، لكنني
أفضل البقاء هنا حتى يخلو البيت وينام زوجي ،
أتفهمين؟

الفتاة: أبذل كل جهدي لأفهم يا سيدتي ، وهذا
يذكرني بطفولتي حين كنت أفضل عدم العودة إلى
البيت حتى يخلو تماما ويغيب أبي في النوم،ولابد
أنك عرفت الحزن مثلي يا سيدتي.

الكاتبة: الحزن؟ نعم، ربما هناك علاقة بين
الحزن والكتابة ، لكنني قاومت الحزن حتى نجحت.
الفتاة: أنت سعيدة إذن يا سيدتي.

الكاتبة: وهي تغمض عينيها كأنما تروح في
الغيوبة أو في النوم،وصوتها يهمس.

الكاتبة:الحمد لله على كل شيء وسوف
يعوضني في الآخرة عن آلام الدنيا،وأنا لم أضد
الشر لأحد حتى لهذه الفتاة اللعوب التي أكلت عقل
زوجي بعد أن تجاوز السبعين،وكتب البيت باسمها
الذي دفعت فيه مدخرات عمري،إنها في العشرين

من عمرها مثلك، وكانت من بنات الليل، واليدوم
أصبحت تحمل لقب السيدة الفاضلة حرم الوزير.

النهاية:

صباح اليوم التالي أذاعت الأنباء خبر وفاة الكاتب
الكبيرة (أ.د. المصري) حرم السيد الوزير لشئون النشر
والطبع، وأقيم المأتم الكبير في المسجد الشهير في ميدان
التحرير، حضره جميع الوزراء والسفراء وكبار رجال
الدولة، الذين جلسوا في الصوان الفخم، بالنظارات السوداء
فوق العيون، الربطات السوداء ولالأعناق، والدديث
الخافت يجري بينهم حول آخر الأنباء، الحرب القادمة،
أسعار البورصة. والكتب المطبوعة في الأسواق.
على الدكة الخشبية في الليل كانت هناك فتاة الليلى.
وكانت هي الوحيدة التي تبكي. لكن...

القاهرة/ أكتوبر ٢٠٠٠

نحو تحرير العقل المصري

١- الفكر النظري المنفصل عن الواقع:

خلال السنوات الخمس التي كنت فيها استاذة زائرة في جامعة ديوك بمدينة ديرهام في ولاية نورث كارولينا. التقيت مع بعض المفكرين الأمريكيين الماركسيين، وكان احدثهم وهو فريدريك جيميسون زميلا لي في ديوك- وهو لا يزال استاذًا في ديوك- وله عدد من المؤلفات في الثقافة ينقد فيها العولمة والرأسمالية الأمريكية الأخيرة أو المتأخرة.

كان فريد (وهو اختصار اسم فريدريك جيميسون) يستمد سلطته الفكرية على الاساتذة الآخرين في الجامعة من سلطته الادارية، فهو رئيس القسم الادبي والفني، وهو صاحب القرار بشأن تجديد عقد العمل للأساتذة الآخرين، كان الاساتذة من العالم الثالث يتحاشون نقد افكاره خوفا من عدم تجديد العقد.

لاشك أن بعض افكار فريد جيمسون متقدمة وناقدة بشدة لعيوب الرأسمالية الأمريكية والعولمة. إلا أن أفكاره تظل قاصرة عن فهم المشاكل الحقيقية قالت يتواجهها البلاد فيما يسمي العالم الثالث. أن التسمية نفسها (عالم ثالث) تؤكد النظرة الاستعمارية الأمريكية للبلاد الأخرى في افريقيا و اسيا وامريكا الجنوبية وبلادنا العربية، وكما ان فريد جيمسون يعتبر عقله وفلسفته هي الحقيقة غير الاوربيين أو اليابان وغيرهم مما يسمي العالم الاول. وهذه نظرة رأسمالية تعتبر المفكرين في العالم الثالث أدنى من زملائهم في العالم الأول.

إلى جانب ذلك فإن افكار فريد جيمسون نفسها كانت مليئة بالثغرات غارقة في التجريدات والنظريات المنفصلة عن الواقع، فهو يعيش في أمريكا، ولا يكاد يعرف شيئاً عن الواقع في بلادنا، رغم ذلك هو يتحدث معنا كأنه هو و يعرف عنا أكثر مما نعرف عن انفسنا وواقعنا الذي نعيشه. وهو أيضا ورغم نقده للعولمة إلا انه يري انها حتمية مثل القضاء والقدر، وانه لا يمكن مقاومتها، وبالتالي يسود جو من العجز واليأس ثم الاستسلام لهذا الإخبطوط الذي

اسمه العولمة، (بالطبع يتم تجاهل المقاومة الشعبية وغيرها من أنواع المقاومة الأخرى).

وقد انتقل هذا الفكر اليأس العاجز إلى النخبة المثقفة في بلاد العالم الثالث الذين يقرأون لفريد جيميسون وغيره من المفكرين الأمريكيين والأوروبيين الماركسيين أو الناقدين للرأسمالية والعولمة.

بالإضافة إلى انتقال هذا العجز واليأس انتقلت إلينا أيضا الثغرات في هذا الفكر أهمها الفصل بين الاقتصاد والثقافة، والتركيز على الثقافة فقط، أو الهوية أو الخصوصية الثقافية أو الشخصية الأصلية،، الاتصال مما يقودنا بالضرورة إلى الأصولية الثقافية ثم الأصولية الدينية هكذا أصبحت الدعوة إلى الأديان والتقاليد والعادات القديمة لكل شعب هي الوجه الآخر لفلسفة فريد جيميسون وغيره من المفكرين الأمريكيين والذي ينظر إليهم المفكرون الماركسيون في العالم الثالث وكأنهم جابوا الديب من ديله، أو كأنهم يدافعون عن هويتنا وخصوصيتنا الثقافية، وعاداتنا وتقاليدنا والقيم التي درجنا علىها ولم تلوثها الثقافة

الأخرى، خاصة الثقافة العربية الإباحية التي لا تراعي
الأخلاق.

منها نرى بعض المفكرين المتقدمين في بلادنا الذين
يعارضون الامركة والرأسمالية والعولمة، إلا أنهم يتمسكون
بالتقاليد القديمة، ومنها بل وعلي راسها حجاب المرأة
وختانها وعودة إلى البيت والأمومة.

وقد تبع هذا الفكر بعض المفكرات النسويات في
الغرب واللائي نادين بتحرير النساء في بلادهن، إلا أنهن
تحت اسم احترام الهوية والأصالة والخصوصية الثقافية
لكل بلد فقط ايدن ختان النساء وحجابهن في بلادنا. وقد
كان هؤلاء المستشرقات عدد غير قليل من المفكرين
الرجال والنساء في بلادنا.

٢- الهوية المصرية الاصلية:

باسم الهوية المصرية الاصلية ارتد كثير من المفكرين المتقدمين في بلادنا إلى الماضي والتراث القديم كمحاولة لمقاومة ما سمي الغزو الثقافي الغربي، ولم يمد زوا بين القديم الايجابي وبين القديم السلبي، وال ذي يسد لب نصد ف المجتمع حقوقهن الإنسانية الاساسية وغيرهن من الشد رائج الضعيفة سياسياً واقتصادياً في المجتمع.

كانت هذه الرد محاولة لحماية الهوية أو الثقافة القديمة من التفكك تحت زحف الثقافة الأمريكية الإمبريالية وقيمها الاستهلاكية وأفلامها الرخيصة القائمة على الجنس والجريمة، وهذا أمر طيب وضروري، ولكن المشكل أن العودة إلى القديم لم تشمل إلا سلبيات القديم أو سلبيات التراث. وليس الايجابيات القائمة على العدالة والمساواة بين الناس بصرف النظر عن دينهم أو جنسهم أو طبقتهم أو عقيدتهم. الخ... بل قامت الردة على التفرقة بين الناس على هذه الأسس وشهدنا الانتكاسة في حق النساء والطبقات الأدنى في المجتمع، وازدادت الهوية بين الأثرياء والفقراء بمثل ازدادت بين الجنسين.

وقع المفكرون في بلادنا المعجبون بأفكار فريد جيميسون وأمثاله في تناقض جديد تأسس الهوية المصرية والحفاظ على الخصوصية الثقافية، وذلك لأنه لم نقلوا الفكرة النظرية المجردة عن الأخريين دون دراسة متعمقة للتراث أو القديم وكأنما هذا القديم كلية وطنية مقدسة ثابتة وتعامل مع الطبيعة والجسد الإنساني والمجتمع البشري على نحو لا يتغير ولا يتفاعل مع غيره من القيم والثقافات الأخرى، كأنما النظام الثقافي والقيمي كتلة لا تتفكك ولا تتغير وإن تفككت أو تغيرت فإنه لا يمكن استعادتها بشكل آخر أكثر تقدماً أو أكثر عدالة ومساواة بين الناس.

إن العادات والتقاليد والقيم والهوية والثقافة كلها خاضعة للتغير والتطور مع حركة المجتمع إلى الأمام ومزيد من العدالة والحرية، أو إلى الوراء ومزيد من التفرقة بين الناس على أساس الجنس أو الدين أو الطبقة أو العرق الخ...، إن الحفاظ على القيم القديمة لا يعني الحفاظ على نسيج المجتمع الذي غزله عبر التاريخ كمالاً ولـ فريد جيميسون وغيره من المدافعين عن هويتنا، لأن

هويتنا ليست ثابتة وليست احادية بل متعددة الابعاد ، وثقافتنا المصرية ليست احادية وليست نقية غير مخصصة بثقافات أخرى عربية وافريقية وآسيوية وأوربية وغيره ، وكأننا نحافظ على نسيج الأمة المصرية يعني العودة إلى جذورنا فقط من التاريخ هو التاريخ العبدودي والتاريخ الطبقي الأبوي ، الذي قيم الناس إلى الاسدياد الملاك والعمال الاجراء وإلى نساء ورجال ، أو إلى التاريخ الديني الذي فرق بين الناس على اساس الدين.

٣-العودة إلى الاصوليات:

كان من نتيجة ذلك هذه الردة إلى الاصوليات الدينية والعرقية وما أدت إليه من حروب دينية وطائفية قتل فيها الملايين من النساء والرجال. خاصة الفقراء من العالم الثالث ، فالعودة إلى القديم والتراث والتاريخ تغذي عند إسرائيل العودة إلى نصوص التوراة ومنها نص الأرض الموعودة. وإيادة الشعب الفلسطيني تنفيذا لأمر الله ، والعودة إلى التراث عند بعض التيارات الاسلامية يغذي تحجيب

النساء وإطلاق الحي وارتداء الجلباب والتفرقة بين المسلمين والاقباط وقتل السياح الأجانب.

وعند التيارات المسيحية الأصولية فإن العودة إلى القديم تعني احتقار الأديان الأخرى وتقتل الأطباء الذين يقومون بعمليات الأجهزة التي تحتاجها النساء، وتدريس نظرية داروين وغيرها من النظريات العملية المناقضة لنظرية خلق الكون في الكتاب المقدس و.....

أما الإيجابيات المقدسة وتاريخ الثورات الشعبية والنسائية والشبابية في مراحل التاريخ المختلفة فقد تم حذفها، بل أن الإيجابيات في الحضارة المصرية القديمة قبل الغزو الروماني المسيحي فقد تم حذفها واعتبارها حضارة وثنية متخلفة في حين أنها كانت أكثر عدالة وإنسانية من القيم الجديدة التي فرضها الغزاة.

لأشك أننا في حاجة إلى نقد الفكر الذي نقرأه للمفكرين في الغرب أو الشرق وأنكم أنتم دمتم أو ماركمس بين ينقدون الرأس مالية أو غيرهم، لأنكم لا أدري بمشاكلنا منهم، ولأنهم لا يعرفون الإيجابيات أو السلبيات في تراثنا، ولأنهم يتأثرون أيضا بالفكر الإسرائيلي الذي يؤثر

بشكل مباشر على المثقفين الأمريكيين وعلى الساسة خلال السنوات التي عشتها في أمريكا أدركت مدى تغلغل الفكر الإسرائيلي في الفكر الأمريكي، وحين عدت إلى مصر لاحظت أن المثقفين المصريين ينقلون عن المفكرين الأمريكيين، وبالتالي يزحف الفكر الإسرائيلي إلى المفكرين في مصر والبلاد العربية، لاشك أنك أن معاودة الصالح المنفردة-كامب ديفيد الأولى- لعبت دوراً في زحف الفكر الإسرائيلي إلى المثقفين في بلادنا، مع السد لع والبضائع الاسرائيلية الأخرى.

أن اختلاط الثقافات هام وضروري، لكن القدرة على النقد وفرز الأفكار الصالحة لنا أيضاً ضرور وهام.

من الأفكار التي أصبحت شائعة في بلادنا فكرة الهوية المصرية، من نحن؟ هل نحن عرب أم مصريون؟ هل نحن افارقة أم مصريون؟ هل ننتمي إلى ارض افريقيا وشعوبها الهمجية البربرية (في نظر المسد تعميرين) أم ننتمي إلى حوض البحر المتوسط أو الشرق الأوسط. لاشك أن سياسة إسرائيل وأمريكا هي عزل مصر عن قوتها العربية والأفريقية، وبترها عن تاريخها العربي والأفريقي، من

أجل المشروع الشرق أوسطي ،والذي يقضي تماماً على
فكرة الوحدة العربية، لهذا شاعت النغمة التي تتغني بمصر
الفرعونية المصرية الأصيلة النقية من الدماء العربية
المتخلفة التي وردت إلينا من بدو الصحراء مع الغزو
العربي المصري؟

منذ أيام قليلة قرأت كتاباً صادراً عن: معهد شيلواح
بقلم الإسرائيليين جانوكوفسكي وجرشوني (والمنشور
بالعربية في القاهرة عن دار شرقيات ١٩٩٩). يؤكد الكتاب
على هوية مصر المصرية الخالصة لا تشوبها عناصر
أخرى عربية ويستشهد على ذلك بأقوال مثقفين مصريين
منهم العقاد، وأحمد أمين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ
وغيرهم و يصور لنا الكتاب كأنما هؤلاء كلهم ضد عروبة
مصر، فهل هذا صحيح؟ أم إنها الرؤية الإسرائيلية لتاريخ
مصر وهويتها مما تتفق مع مصالحها الاقتصادية
والعسكرية، ورغبتها في عزل مصر وبالتالي إضعافها
وسلب وسائل المقاومة منها؟ ثم يبت فريد جيميسون وغيره
من الفلاسفة الأمريكيين اليأس في نفوسنا لأننا عاجزون

عن مقاومة الإخبطوط الاقتصادي والعس كرى والذ ووى
والعولمة.

٤-الصراح اللىنى المطلب:

ألىست قوة المقاومة نابعة م ن الوءة العربىة
والووءة الافرىقىة فى مواوءة قو اسرائىل؟
الىس هءا هو مأزق ياسر عرفاء الوىم بعء أن عاء
من كامب ءىفىء الءانىة ءاوى الىءىن ،واصبع كالفرخ الءبوح
ىطىر هنا وهناك من أجل المساءة والتأىء ءله والجمىع
ىأءذونه بالأءضان ءون عوء بشىء، مجرد النص ىءة ب ألا
ىعلن عن قىام ءولة الفلسطىنىة فى ١٣ سبءمبر إلا بموافقة
إسرائىل.

اصبءت البلاد العربىة ممزقة مء ذ كامب ءىفىء
الاولى ،واصبع الاقتصاد المصرى ىعانى الازمات مء ذ
الانفءاح الساءاءى ،ومء ذ حرب الءلىع الاولى ءم الءانىة
انهارء القوة العربىة الاقتصاءىة والعسكرىة،وساءء الفءن
الطائفىة ءء اسم العوءة للءراء والهوىة وارءفعء
الاصواء المناءىة بعوءة النساء إلى البىوء وءر و الأمومة

وانتشرت كل الافكار الرجعية تحت اسم مقاومة الغزو الثقافي ،علي حد ين كان الغزو الفكري الاسرائيلي والأمريكي يغزونا في الواقع والحقيقة.

أليس هذا التضليل الثقافي هو سمعة العولمة والرأسمالية الأمريكية؟ تحت اسم الهوية المصرية تسلب منا قوتنا العربية.وتحت اسم معاهدة السلام يسلب منها السلام والقوة الضرورية للسلام وتصبح اسرائيل هي القوة العسكرية النووية والوحيدة في المنطقة ،وهي تهدد ياسر عرفات اليوم أن تضربه عسكرياً إن أعلن الدولة الفلسطينية في ١٣ سبتمبر القادم. وقد انكشفت جميع ال بلاد العربية خوفاً وعجزاً عن المقاومة.حتي مصر التي أعلنت وزير خارجيتها عن ضرورة عقد قمة عربية لمساندة عرفات، سرعان ما راحت الفكرة وانتشرت بحكم الواقع العربي الممزق منذ كامب ديفيد الاول.

الغريب أن المفكرين والكتاب في بلادنا ينظرون إلى ياسر عرفان ينتظرون ما يفعل ،كانما هو وحده المسئول وهم جميعا متفروجون يتسلون بالفرحة في سهراتهم بعضهم يقول له: انتحر يا اخي واعلن الدولة الفلسطينية في ١٣

سبتمبر ولا يهتمك الترسانة النووية الاسرائيلية ،وبعض هم
يقول له: أعقل ياخي واذهب إلى كامب ديفيد الثالثة
والرابعة ولا يهتمك حاجة ما دمت تعيش ويكفيك كلام
الثوريين من منازلهم والذين ايدوا السادات وهروا إلى
إسرائيل.

المعركة الآن تقلصت واصبحت حول القدس الشرقية
فقط ، تم نسيان ما هو أهم عودة ثلاثة ملايين ونصف من
اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم والمستوطنات التي تبنيها
إسرائيل يوماً وراء يوم ،....

وأصبحت قضية القدس كأنها هي قضية دينية
فقط ،ولست عودة أرض محتلة إلى أصحابها بصرف النظر
عما فيها من آثار دينية إسلامية أو مسيحية أو غيرها، لقد
وقع الجميع في هذا الفخ ، تحويل الصراع حول الأرض
المسلوبة إلى صراع ديني وهو شكل الصراع الذي تريد
إسرائيل وأمريكا ، لأنه يؤكد على الهوية الأصلية أو
الهوية الدينية وإعادة الناس إلى الوراء ليعيشوا الوهم بأن
القيم القديمة أفضل من القيم الجديدة، أن كانت تخلفها

وعنصرية وتفرقة بين الاناس على اساس الدين والجنس و
و.....

لقد اشتعل حريق الفتنة الدينية حول إعادة القدس إلى أصحابها الفلسطينيين (وليس المسلمين أو المسيحيين) وقد رار الأمم المتحدة ٢٤٢ ينص على إعادة القدس الشرقية بما فيها من مساجد وكنائس إلى الفلسطينيين لأنه ما أرض فلسطينية والأرض لا دين لها ، وإذا أصبح للأرض هوية دينية فماذا يحدث في العالم؟ هل تحتل الس عودية أرض الهند أو باكستان لأن فوق أرضها مساجد إسلامية؟

وهل يحتل الفاتيكان بعض ارض مصر لان فوقها كنائس؟ وهكذا نري الفخ الذي وقع فيه ياسر عرفات والبلاد العربية في دعوتها لعودة القدس. ومن هنا اصبح من حق الفاتيكان أن يكون لهم حق الاشراف على القدس وليس الفلسطينيين، ارادت امريكا واسرائيل تحويل الانظار من الحق المشروع وطنياً ودولياً، وبقرار واضح من الامم المتحدة إلى مجرد مساجد وكنائس يمكن التنازع علىها بين اصحاب الاديان المختلفة.

٥- الخديعة والهزيمة:

هكذا ندرك الخديعة الفكرية التي يلجأ إليها الاسرائيليون والامريكيون، ولأن اغلب المفكرين في بلادنا لا يفكرون ولا يبدعون الأفكار من الواقع الذي نعيشه. بل ينقلون دائماً عن المفكرين في امريكا واوروبا، وأخيراً أصبح المفكرون الاسرائيليون المرجع لبعض المثقفين في بلادنا. وفي رأي هذه هيب الهزيمة الاساسية التي اصابتنا، الهزيمة الفكرية، أو التبعية الفكرية، وهي سمة غالبة في بلادنا تصيب المفكرين من اليسار الاشد تراكبي واليمين الراسمالي على حد سواء، وقد اصبح فريد جيميسون وغيره من الماركسيين الأمريكيين مرجعاً لأغلب الماركسيين العرب والمصريين، بعد ماركس ولينين وتروتسكي وجراميش والتوسير وغيرهم.

دائماً اتساءل: لماذا لا يكون عندنا مفكرون وفلاسفة مبدعون لا ينقلون افكار الغير؟ أهى انعدام الثقة في النفس؟ أهو الخوف من التفكير الحر المستقل؟ حين وقفت في جامعة ديوك وعارضت فريد جيميسون لم يندعش إلا زملائي العرب، وقال احدهم مسدنتكراً: كيف أعراض

فيلسوفاً كبيراً مثل فريد جيميسون، وقلت له: وهل فريد جيميسون عند عقل وأنا ليس عندي عقل؟

حدث الشئ نفسه في محاضرة لجاك ديريدا في جامعة ديوك وأدركت أن المثقفين العرب والمصدريين ينظرون بقسوة لهؤلاء المفكرين في الغرب، ويشعرون انهم اقل قدرة منهم على الابداع الفكري.

ربما هو نظام التعليم في بلادنا يسلبنا القدرة على الابداع والتمرد على الاسياد الكبار الذي يملكون السلطة في الدولة والعائلة. وربما هي عقدة النقص في مواجهة الغرب الاقوي الذي استعمرنا قديماً وحديثاً، منذ نشوء النظام الطبقي الابوي أو العبودية.

أتابع ما يحدث على الساحة السياسية والثقافية والفكرية في بلادنا واشد عرا أن المعركة امامنا طويلة طويلة، وهي معركة فكرية في الاساس. لان العقل الذي يفكر بعقول الآخرين ليس عقلاً مفكراً بل ناقلاً فقط، والعقل الناقل بالضرورة عقل تابع، والعقل التابع يؤدي إلى وطن تابع واقتصاد تابع وسياسة تابعة وثقافة تابعة وأعلام تابع.

٦- الفكر والعمل:

كيف الخروج من هذا المأزق؟ إذا كان أغلب المفكرين المبدعين في بالدنا قد لزموا بيوتهم أو تمت مطاردتهم حتي هاجروا إلى الخارج أو إلى الداخل، وقد طغي على سطح الحياة الفكرية هؤلاء الذين يؤيدون كل من جالس على العرش، وقد رايت هؤلاء في اجتماعاتهم مع عبد الناصر والسادات ومبارك، واستمعت اليهم وهم يتملقون كل حاكم يرفعونه إلى مصاف الإله المعصوم من الخطأ، الإله الذي يوجه اليهم التوجيهات والاوامر، ولا يكفون أهمهم إلا الطاعة وإلا فقدوا الامتيازات والمقاعد الجالسين فوقها.

المشكلة إذن مزمنة، وهي حادة أيضا وقابلة للعلاج واول مراحل العلاج هو التشخيص الصحيح للداء. ولعل هذا المقال محاولة متواضعة مني أو مساهمة قد تساهم على تشخيص المرض والبحث عن الاسباب الحقيقية لغياب الفكر المبدع في بلادنا وندرة المفكرين الخلاقين من الرجال والنساء.

هل لنا أن نحرر المستقبل من الماضي؟ هل لنا أن نحرر الماضي من المستقبل؟ قد يكون الماضي أكثر تقدما من الحاضر أو المستقبل ، مثلا كانت أفكار مارمسي زيادة وملك حفني ناصف أكثر تقدما من أغلب النساء المثقفات اليوم ، وكانت أفكار طه حسين أكثر تقدما من أفكار أغلب المثقفين الرجال اليوم وكانت فلسفة ابن رشد أكثر تقدما من كثير من المفكرين اليوم، والماضي المصري القديم كان أكثر تقدما من المستقبل الروماني المسديحي الذي دمّر الحضارة المصرية القديمة وحطم الآلاف من تماثيلها وآثارها وكتبها.

هذا في فترات الردة والهزيمة فقط. لكن في فترات الازدهار فإن المستقبل يقترن بالتقدم والتحرر من قيود الماضي ، ومن الأفكار المتخلفة التي يثبت أنها ضد التقدم العلمي والاكتشافات الجديدة، مثلا لقد انتصر علم الكون الجديد وعدم مركزية الأرض على الفكر اليهودي في التوراة ونظرية الخلق الدينية التي سادت في الماضي.

المسألة إذن ليست الماضي أو الحاضر أو المسد تقبل
وهي كلها عناصر مترابطة واحدة متداخلة، المسد آلة هي
القدرة على الفرز والتمسك بالإيجابيات ونبذ السد لبيات
سواء في الماضي أو الحاضر ،هذه القدرة تحتاج إلى عقول
مفكرة شجاعة لا تتملق الثوابت المقدسة في الماضي
والحاضر. بل تخضعها للنقد والجدل في ضوء المشد اكل
التي يعيشها الناس ،ولس في ضوء مقولات هذا اوداك من
المفكرين في بلاد أخرى. كما تحتاج إلى العمل مع الناس
والمقاومة الجماعية وعدم فصل الفكر عن العمل.

لأن معظم البحوث العلمية في جامعاتنا تدور في جدل
نظري عقيم حول مقولات ونظريات المفكرين في الغرب.
ولا تتبع من اسئلة حول مشاكلنا الواقعية ، له ذا لا تلعب
الجامعات في بلادنا دوراً في الابداع الفكري أو تخريج
المبدعين.

القاهرة ١٦ اغسطس ٢٠٠٠

عالم تختفي فيه الحقيقة يسوده الوهم

هل وقعنا في الفخ أو فقدنا العقل؟
لماذا اذن نخاف النطق بالحقيقة؟
كيف تختفي من عالمنا الاسئلة الجوهرية؟
وتكتم الافواه وتراق الدماء
تحت اسم الحب والسلام والشرعية؟

أهو عالم من مالوهم وخدام النفس
بين الجسد والعقل والروح
بين الحاضر والواقع والدم
وذلك الآخر الغائب تحت اسم الاب والجد؟

عالم بلا قلب ولا عقل يعاني الحروب والقتل
وغاتصاب الجسد والوطن والام
يغيب فيه الحق واسم الام وراء اسم مستعار
يقوم فاعل وراء فاعل آخر ويصد بح الغائب ب ه و
الحاضر

والحاضر يصبح غائباً

تستأجر الأم بعرق جبينها زوجاً فظاً
من أجل مولودها المحتوم
وتشتغل دون أجر لترعي الابن والاب والجد
يكبر الابن على شاكله ابيه
يقوم بدور الرجل وهو طفل
يخلع عن نفسه جسم امه واسمها
كأنما هو العار والاثم
تصبح الامومة بلا شرف ولا قيمة
إلا في الاغاني والكلام المرسل
بالمجاني.

في طفولتي كتبت اسم امي فوق كراستي
ومسحته بالاستيكة
اصحبت احمل فوق جسدي واغلفه كتبي
اسم رجل غريب مات بالبلهارسيا قبل أن اولد بقرن
انه الجد الاكبر لابي

الغائب الحاضر المنظم والمنظر لقوانين حياتي

والذي حرمنا من اللذة الاولى

وقف حائلا بيني وبين قانون الطبيعة

رغم غيابه في القبر

يتحكم من بعيد في حياتي بالريموت

مثل الروبوت

وراودني السؤال المكبوت

لحظة موت أُمي

كيف تخلت عن نفسها وعني من اجل رجل غائب؟

طيف سمحت للأب الرمزي أن يحل مكانها؟

وكيف استباححت حقوقي من اجل وهم الحب؟

أليس هو الانفصام اوانشطار الذات

يزرع الثقة في الإنسان ويفسد علاقة الذات بالآخر

اليست الأمومة هي اليقين

والأبوة هي الشك رغم تحاليل الدم؟

يسود المرضي النفسي وينتشر العنف والجنون

بسبب قلب الحقيقة وتحويل الفاعلة إلى مفعول بها

وتحويل الوالدة إلى مولودة بلهاء من ضلع اعوج
في طفولتي كنت أرمق من بعيد صدر أبي العاري
تبدو ضلوعهكلها عوجاء
وأسأل امي: من أي ضلع خرجت؟
تضحك بسخرية على سؤالي ويغضب ابي
يقول عني ناقصة العقل والبرهان
كنت اصدق ابي كأنما يملك الحقيقة
حتي ماتت امي من الحزن
بعد موتها اصبحت احمل قبرها بين ضلوعي
وبعد موت أبي تحررت من ضلعه الأعوج
الذي كان في عيني كالقذي
يحجب عني الرؤية والبصيرة
أصبحت احمل امي الميتة في احشائي الدفينة
وضحكتها احملها ورائحة عطرها
احافظ على العالم الهش خوفا من شقوط الوهم
استبدل الصمت بالحب المختلس وراء القضبان
وأكف عن قول الحقيقة
تتداخل الذات مع الام في لحظة الموت الأخيرة

من أجل استعادة التواصل واللذة الاولى
دون جدوي دون جدوي
فالعالم بلا أم تسوده الكراهية والفوضى
يعلو فيه المجازي والخرافي على الحق والحقيقة
مع كل ذلك تستمر الانتفاضة والمقاومة
في الوطن المحتل والجسد المبتلور
أحاول علاج الجرح القديم منذ الطفولة
والجرح الجديد المتجدد عاما وراء عام
لأن حب الأم هو الحقيقة الوحيدة
في عالم يحرم كل شيء حتي الكتابو والنطق
وأقول لامي داخل صدري
ستظل ابنتك تقاوم حتي الموت
وقد اصبحت الحياة كالموت
فالمقومة يا أمي هي البديل الوحيد
في مواجهة القتل والجذون المتخفي تحت قشرة
المخلص، وإله البركين والزلازل من وراء عمود الدخان.
تحميه القلاع والسلاح والمال والإعلام
إن الوهم يا أمي لا يقتله إلا الوهم

ولا شئ يعطيني الاحساس بالواقع إلا الدم
المراق على الأرض والطفل المنزوع منالام
لقد عجز العالم يا امي عن تحقيق العدل
في البيت والوطن والغربة وكل مكان
لا كرامة لارض تنتهك فوقها حقوق الامهات
وما من جنة لا تكون تحت أقدامهن.

- يعلمني الوطن إلا احب.
- وألأ أعدل بين الناس.
- أن اسكت حين يزعق الكبير.
- يعلمني الوطن أن افقد السمع والبصر والفؤاد.
- فلا اسمع أنين الملايين.
- ولا أري الفقر ولا الموت ولا السجن.
- لا استطيع أن أخرج من عقلي لأحب وطني
- لا استطيع انادوس على كرامتي لأطيع
- زوجي أو الرئيس.
- لااستطيع العودة إلى بيت أمي وإلا تعذبت.
- وقد ماتت امي في عز شبابها.

- ولم يعد لي في الوطن.

- إلا مقبرة امي.

القاهرة ٣١ مايو ٢٠٠١

الي الذين يقولون عنها إرهابية

- حائرون هم هؤلاء النخبة
- لايعرفون الارهابية
- من المناضلة الشعبية
- يصدقون النخبة في إسرائيل
وأمریکا الشمالية
- وصحف الحكومة و المعارضة
- الشرعية.
- وهي فتاة من الشعب الصامت
- الزاهد في الدولة والدين
- الساعي إلى قمة العيش
- غير التابع لحماس اوالمجاهدين.
- تحت اسم الدولة اوالذني
- الذين يحولون الصراع فوق الأرض
- الي صراع في السماوات
- بين الآلهة والانبیاء
- ويغضبون لان فلانا شتم النبي
- محمداً أو عيس او موسي

-أو إبراهيم.

-أما هي فلا تبالي

-باسم النبي الفلاني

-ولا تشتم هذا ولا ذاك

-لأن وراءها مهمة

-أهم من هذا وذاك.

ثم

- جاءت الفتاة ووقفت امامي.
- لا يفصلها عني إلا سحابة رقيقة شفافة.
- مثل دمعة في العين.
- أمد يدي لأصافحها وهي واقفة.
- مثل تمثال من البرونز.
- بشرتها محروقة بلون الفخار.
- وأنفعها حاد مرتفع.
- مثل الإلهات القديمات.

- اقتحمت الفتاة غرفة نومي قبل أن شقشقة
الفجر.
- يوم الأربعاء الخامس من يونيو عام ألفين
وأثنين.
- في الهدوء السابق لعاصفة الانفجارات.
- والظواهر الصوتية.
- والأبواق والإذاعات والمآذن وأجراس
المدارس والكنائس.

وصفاير البوليس والإسعاف.

- وحناجر النخبة المثقفة في الفضائيات.

- أحملق في وجهها.
- وأتذكر وجهي في المرآة منذ نصف قرن.
- والعينان السوداوان واسعتان.
- تتسعان للحزن والفرح.
- ومياه البحر المالح تذوب في مياه النهر
- العذب.
- والابتسامة مثل شعاع الشمس.

- تطفو فوق ورد النيل الميت.

- منذ نصف قرن كان يروادني حلم.

- أن أقتل العساكر الانجليز

- اهتف في الشوارع مع التلاميذ.

- الجلاء بالدماء.

- الاستقلال التام اوالموت الزؤام.

- وأمشي في النوم ملفوفة بالديناميت.

- ثما انفجر ومعى العساكر.

- كانت العساكر يسIRON امام بيتي.

- بشرتهم حمراء منتفخة بالدماء.

- دماء جدتي وعماتي وابناء وبنات عماتي.

- الوجوه الممصوصة المحروقة بالشمس.

- والاصابع الخسنة المشققة بمقبض الفأس.

- والجفون تأكلت والعيون جفت بلا ماء.

- والفتاة تظل واقفة امامي.

- من حولها العساكر عن نقطة التفتيش.
- يخلعون عنها الملابس وهي واقفة.
- مثل تمثال من الجرانيت.
- قبل أن تتعري تماما تتفجر.
- مثل قنبلة نووية.
- فلا ألم مثل ألم الجسد المهان.

- أخذت أنزع عنها الجسد المحترق.
- وأغسل جورحها النازفة كطبيبة مدربة.
- ثم البستها ملابسها لتذهب إلى المدرسة.
- وهنا اوقفني النقاد وقالوا:
- أرهابية افسدت القضية.
- وأنا جاهلة بقواعد الأدب.
- موازين الشعر والقافية.

- أوصل الكتابة دون أن ارد على هم.
- فالفتاة واقفة امامي بجسمها المحترق.
- أحملها من خصرها قبل أن تتفجر.

- تتناثر اشلاؤها وهي واقفة.
- أو جزءاً من ذراع.
- أو ساقاً أو جزءاً من هنا وهناك
- استيعد الشكل والجسد الذي كان الفتاة.

- رغم انف الارادات العليا والسفلي.
- والقوي العظمي والصغري.
- والقنابل الذرية والنووية والانشطارية.
- هذه الفتاة ستعيش وإن ماتت.
- أري اصبعها يتحرك قبل لحظة الموت.
- اصبع ثابت في يد لا ترتعش.
- وجسد باق لا يزول وإن احترق.
- وأنف بكبرياء الإلهات مرتفع.

- هذه الفتاة هي حفيدتي.
- تعيش في ذاكرتي منذ نصف قرن.
- بالامس كانت طفلة تلعب بالكرة.
- تري نفسها في الحلم كاتبة أو طبيبة.

- أو شاعرة أو باحثة في علم الذرة.
- وعند نقطة التفتيش رأت العساكر.
- يخلعون عن امها الملابس.
- أصبحت الام واقفة في الشارع عارية.
- وبقيت الصورة في خيال الطفلة إلى الابد.
- فلا يبقى في الذاكرة إلا الحقيقة.
- ولا يكشف الحقيقة إلا الخيال.

القاهرة ٢٤ يونيو ٢٠٠٢

بعد أن رايت ذاتك في المرأة

كان صباحاً مظلماً بشبورة كثيفة تحجب الشمس
والسمااء ورؤوس الأشجار، واسطح بيوت القرية يتراكم
فوقها الحطب والجلّة وزلع الجبنة الحادقة والمش ومخلل
الليمون والزيتون الأخضر.

أنه صباح العيد بعد شهر رمضان وانت راقد في
الفرّاش الدافئ فوق الفرن تخفي رأسك تحت العباءة
الصوفية الرمادية المهترئة، لا تقارن هذه العبارة جسّدك في
الشتاء منذ نصف قرن، منذ كنت شاباً في العشرين قوياً
مفتول الساعدين، مفتول الشارب الأسود الكثيف الشعر،
الممدود من صدغك الأيمن إلى الأيسر المبروم والمقوس
إلى الخارج يمكن أن يقف على الصقر.

لماذا كانت تخفي رأسك تحت العباءة؟ لماذا لم تتضمّم
في وجبة الفطور إلى أسرّتك الكبيرة العدد، أولادك وبناتك
واحفادك وحفيداتك، لا تكاد تعرف عددهم أو اسماءهم، إلا
واحدة وهي حفيدتك حميدة الطفلة الشقية المرحطة المليئة
بالبهجة والامل لم تكن فرحة أو متألقة.

ولاحظت أمها أن حميدة ليست هي حميدة التي
عرفته منذ ولدتها من عشرة أعوام كاملة ،وبالضبط ليلة
العيد من عام ١٩٩١ بعد موت أخيها في حرب الخليج ،لقد
رزقها الله بهذه الطفلة المتأججه بالحياة والذكاء عوضاً عن
الابن الذي راح الحرب ولم يعد.

وهمست الام في أذن ابنتها:

-مالك يا حميدة ساكتة؟

ولأول مرة في حياتها تطرق الابنة برأسها ولا تتطق
بكلمة واحدة هي التي لم تكن تكف عن الكلام والضحك
واللعب مع الاطفال.

كأن ظلا اسود قاتما يطل من اعماقها ،وهي جالسة
تضم ركبتيها ، تتفوق حول جسدها الصغير في ركن بعيد
عن العيون،تحملق في الفراغ دون حراك.

عندما قامت الام بترتيب فراش طفلتها وقد مع نظرها
على قع دم كانت ما تزال رطبة لم تجف. فردت لأول
وهله. تصورت أن الطفلة بلغت وادركها الحيض ، لكن
أنف الام وخبرتها الطويلة اكدت لها انه ليس دم الحيض.

-أذا لم يكن دم الحيض فماذا يكون؟

سقط قلب الأم في قاع احشائها حت يطن قدميها، عاد
إلى ذاكرتها رائحة بقع الدم في فراشها ليلة زفافها، لطم ت
خديها كادت تسقط مغشية على هـ ا، لكنه ا أفاق ت بع د
لحظات.

عرفت الام على الفور من يكون الجاني، وكان يخفي
راسه تحت عباءته المهترئة فوق الفرش، ربما كان يفكر في
طريقة لمحو العار الذي سد وف تجلبه ه حميد دة للأسرة
يتلصص من فتحة في الجدار على بوابة الجامع، حيث
كوم كبير من الحجارة تكفي لرجم امرأة بالغة وليس طفلة
في العاشرة، وكان رجال القرية يخرجون من باب المسجد
بع د ص لالة العيد، م منهم أبناؤه وإخوته وأعمامه
وأخواله. وكلهم رجال مفتولون الشوارب لن يتأجر اح دهم
عن محمو العار بالدم.

لكن الام كانت اكثر ذكاء من الجد العجوز. بحكم
شبابها، وبسبب الحب الكبير في قلبها لابنتها وكانت حميدة
قرة عين امها، عوضتها عن ابنها المفقود في الجيش،
ونساء القرية كلها مثل الام و قلوبهن تتبض بالحب له ذه
الطفلة المرححة الذكية تدوي ضحكاتها في سماء القرية مثل

ضوء الشمس تنشق عنهن سحب الكآبة وذكريات الحزن منهن
الحالات والعمات والاخوات والجذات والجاراات القريبات
والبعيدات.

في هذا الوقت ،وبعد أن خرج الرجال من المسجد
تجمعت النساء في الساحة الواسعة امام البوابة ،انقسمن إلى
مجموعات قامت مجموعة بحراسة المسجد وتطويق به من
الخارج ،وقامت مجموعة بحراسة كرم الحجاز امام
البوابة ، اطلقت على ه احدي الشابات اسم مستودع الاسلحة
وكان يستخدم في الزمن القديم لمحو العار . لم تشهد القرية
منذ قرون مشهداً واحداً مما كان يحدث في الأزمنة الغابرة
لكن الجد العجوز اراد تحت اسم " الصحوة" أن يعيد إلى
الحياة عادة قديمة من عادات العبودية وان يخفي جريمة ه
تحت وابل من الحجارة والغبار المتصاعد عنها.

توجهت الام إلى والد زوجها الراقد فوق الفرن تحت
العباءة المهترئة. دخلت إليه بجسمها الطويل المشقوق،
قامت منتصبه ورأسها مرفوع. عضد ملات عنقه بما قويمة
مشدودة قادرة على حمل الثقاف ،رمته بنظرات صارمة
بعد أن كشفت العباءة عن وجهه ، قرأت فوق وجهه خطوط

الجريمة، وكانت الام تحمل لقب " العرافة" في القرية وبلهجة
حادة كالسيف القاطع قالت له:

-إنهض فوراً وتعال معي!

بكل تناقل تحركت كتلة اللحم المليئة بالتجاعيد والتي
تتبعث منها رائحة التبغ والدخان ،ورائحة اخري يلتقطها
انف الام المدربة على رائحة الدم.

علي الرغم من الظلمة في غرفة الفرن المغلقة دون
نوافذ إلا فتحة صغيرة في الجدار استطاعت الام أن تلتقط
بعينها رجفة يديه المعروقتين ،وتبعها صامتاً محني الظهر
واتجها صوب المسجد، حيث كانت حميدة راقدة في الداخل
فوق سجادة سميكة من الصوف ،مشغولة بأدي النساء في
القرية. إلى جوار حميدة كانت مجموعة من البنات زميلاتها
في المدرسة الابتدائية وحكيمة القرية وشيخة معروفة
بالحكمة.

وتشكلت على الفور مجموعة من النساء (وبعض
الشباب من الابناء الذين نفروا من جريمة الرجل
العجوز ،وقرورا الانضمام إلى امهاتهم واخواتهم ضد إرادة
العمدة وكبار رجال القرية).

أخذت هذه المجموعة من النساء (وبعض الشابات) الرجل العجوز إلى مساحة من الأرض الجرداء، شديدة صحراء خارج حدود المزارع والحقول.

هناك أجلسوه على الأرض مفتوح الساقين مستنداً إلى وتد من الشخب، تماماً كما كانت العادة في الأزمان القديمة حينما يقرر الرجال محو العار رجماً بالحجارة.

قيدت النساء الرجل العجوز بحبل سميك طويل يكفي للوصول إلى زير الماء وصحن الطعام، الذي يقدم له كل يوم، وقد جلست النساء (وبعض الشابات) على مسافة غير بنت النساء حوله أربعة حواجز من المرايا بحيث يسد تطيع أن يري نفسه، وإمامه رسمن صورة لحميدة، بحجمها الطبيعي، كما تركها بجراحها الدامية بين الساقين والظلال السوداء حول عيونها الطفولية، عيون تحق في الفراغ دون حياة أو ضوء بعد انتهاء العمل قالت النساء له:

-انظر إليها، لقد تركتها هكذا، وعندما تراها وتري العار الذي فكرت أن تغسله بسفك دمها، فانظر الآن إلى

نفسك وقل ب عيني ك م راراً وتك راراً ب ين صد ورتك
وصورتها ،وسوف ناتي كل يوم لنسمع ماذا تقول.
في صباح اليوم التالي شكا الرجل من ب رودة اللي ل
فأجابت النساء:

-هذا هو الصقيع الذي يحتل قلب حميدة.
وفي اليوم الثاني شكا لهيب الشد مس على جسد ده.
خاصة المنطقة الحساسة بين ساقية، أجابته النساء:
-هذه الآلام الملتهبة في جسد الطفلة الجريح، والتي
كانت تحلم بفطور الام وكعكة العيد.
كان الرجل يشكو الخوف الذي يجثم على صدره في
ظلمه الليل حين يفكر، قالت له النساء:
-هذا هو ثقل جسدك الذي كتمت به انفاسه الطفلة.
وكان يشكو عفونة الرائحة تتبعث من تحته وهو يدول
على نفسه وكان جواب النساء.
-هذه رائحة العار التي أردت أن تدفن فيها جسد دها
البرئ.

كان الرجل يشكو كل يوم من الأرواح الشديرة
والاشباح السوداء التي تزوره في الليل. وترد على النساء

أن هذه الأرواح الشريرة ذاتها التي امتلأت بها أحلام حميدة منذ ليلة الجريمة.

في المرايا من حوله رأي الرجل نفسه عاري ماً ورأي العار ، ورأي الطفلة الفتاة وجرحها الدامي ، اراد أن يحطم المرايا دون جدوي فهي بعيدة عن متد ماول يديه ، أراد أن يرحم المرايا بحجر لكن الأحجار كلها ما صد بحت تد ت حراسة النساء وشباب القرية ومنهم شقيق حميدة التوأم الذي رفض إدانة اخته وطعنها من الخلف.

لقد سقط الرجل في خندق واحد مع مرآة ذاته ، ك ان ينادي على زملائه الرجال من أجل انقاذه ، لكن النساء حوطته بسياح منيعه لا يخترقها احد إلا بتصد ريح م ن مجموعة الحراسة ، وتض ما عفت على ه الآلام ، والاشد باح تراءت له بعنف اكبر ، نخرت الأرواح الشريرة جسده وروحه ، كاد كيانه يتلاشي ، كادت نيران منبعثة م ن بطن الأرض أن تقضي على ه وكان جسده يتمزق ويتحترق جلده حتي نهايته ثم يعود من جديد ، ليحترق في النار ذاتها ما أو نار جديدة تشتعل ، ينفخها الهواء حتي تصير لساناً م ن اللهب وهو يتبعثر اشلاء يشتتبه اليأس وأسئلة عديدة تغزو

دماغه تترك في راسه كتلة لزجه محترقة وتذوب وتتلاشي
كالرماد ثم تعود من جديد.

وفي يوم تعالت صرخة من احشائه كأنما قادمة من
بطن الأرض كان يخاطب ربه من تحت النيران:

-يا إلهي لماذا تركتني وحدي؟ يا إلهي: لماذا وضعت
الشهوة في جسدي وتركتني؟ لماذا لم تضع حدوداً لسلوكي؟
يا إلهي: لماذا سمحت لي أن اكون قاسياً وظالماً للنساء؟!
وتركتني كالبهيمة انتقل من امرأة إلى امرأة؟!

كان الرجل يرهف أذنيه لسمع اجابة الرب على هـ.
وحين هدأت النيران قليلاً كان راس الرجل يصد فوشد يئاً
فشيئاً ، حتي بدأت ذاته تصحو ،وفجأة راي نفسه طفلاً في
العاشر من عمره كعمر حميدوقان يسمع كل يوم صد راخ
امه حين يضربها أبوه،ولطالما سد مع نحيبه ما في الليال
ونشيجها ،حين هجرها أبوه إلى زوجه اخري ، عاوده الألم
الذي كان يجثم على صدره الطفولي ،يمزق قلبه وبسبب له
آلاماً وأحزاناً.

مرت بذاكرته مشاعر الغضب حين كانت صد رخات
أمه تخترق أذنيه وعظام رأسه وقبة السماء ،وتهبط إليه مرة
اخرى مع نحيبها لتخترق جسده ودماعه وقلبه.
لقد توقف قلب الطف عن الخفقان، وتعالى من أحشائه
عواء خوف غامض من ابيه ودار حجر رجا خوفه فدنفه
تحتة، بدا له أن تخلص من الخوف الدفين في قلبه منذ كان
طفلاً.

مرت ايام قليلة ثلاثة أو اربعة دون أن يتحرك أو يأكل
أو يشرب ماء. كان مشغولاً مبهوراً بتلك القذرة الجديدة
المنبعثة من أعماقه ،والتي جعلته يدفن الحجر من تحت
جسده دون أن يطرف له جفن.

في اليوم التالي عاد إلى نفسه. كان وجهه قد تغير
وجسده تغير وطلب من النساء أن يري حميدة. تقدمت نحوه
الطفلة بخطوات مترددة وجله ترافقها زميلاتها والنساء من
الحارسات. توقفت على مسافة بعيدة منه وان سدمعت
صوته يقول:

-ارقد امامك عارياً غارقاً في عفونة ع ماري ال ذي
جلبته لك. فأصبح شقاؤك هو شقائي ،وجراحك هي جراحي
اخبريني ماذا افعل كي اخلصك من الألم والحزن وأرد إلى
عينيك البهجة وضوء الشمس.

اقتربت الطلقة منه،حيث أمكنها النظر مباشرة في
عينيه. طلبت من النساء تغطية عورته وقالت:

-نظف نفسك مننفاياتك نفسك القديمة، ثم أذهب وحيدا
في الصحراء واجمع اشلاء نفسك الجديدة المبعثرة وحدين
تري أن الوقت قد حان فأرجع إلى اخوانك الرجال واخبرهم
بمعرفتكم الجديدة فإن الرجال النبلاء هم القادرون على
تحمل مسئولية افعالهم وهم الوحيدون الذين يمكنهم تجاوز
الحدود التي وضعت لهم عندما كانوا في سنة الطفولة ارجع
وحدث اخوانك الرجال عن آلامك وانت طفل حديث
تدفع عن امك الظلم كيف نسيت هذه الآلام في سن الرجولة
وبدأت تشعر بالعار من أمك ،حدثهم عن الظلم والقسوة
والعار الحقيقي. تحمل نظراتهم الساخرة أو لكلماتهم تحمل
كلامهم وان اتهموك بالضعف أو الجنون أو فقدان الرجولة
كن اميناً لقلبك الجديد ومعرفتكم الجديدة وان كان ثمن ذلك

هو حياتك ، ادخل هذه المعركة المقدسة مع اخوانك
واقاربك وجيرانك وأولادك. معركة بدون إسالة الدماء، لأن
العدل ستيغلب في ذلك الوقت على الظلم.
وكانت السماء تسمع صوت حميدة ،وقالت النساء "
السكوت علامة الرضا".

عالم جديد ممكن

علي منصة القضاء في المحكمة الشعبية

العالمية للديون

حضرت الكاتبة المصرية نوال السعداوي أخيراً الملتقي العالمي الاجتماعي الثاني في بورتو أليغري في البرازيل، وجلست هناك على منصة القضاء في محكمة شعبية عالمية للديون.

في المقام التالي تصف الكاتبة تفاصيل حياة من ذلك اللقاء العالمي، وهو يوازي لقاء دافوس وسائر قمم العوالم ومؤسساتها، والموازاة محاولة لاستشراف عالم جديد.

الشمس مشرقة وحرارتها القوية تذكرني بشمس مصر في أوائل الصيف ونحن في أوائل شباط (فبراير) العام ٢٠٠٢ في مدينة بورتو أليغري في محافظة ريو غراندي دوسول جنوب البرازيل، والصالة الواسعة الضخمة ممتدة أمامي. عيون السناء والرجال والشباب تلمع كالنجوم، الوجوه سوداء وبرونزية وبيضاء وسوداء وصفراء وحمراء، وخمسة آلاف وجه

امتأأت بهم القاعة غير هؤلاء الواقفين في الممرات، جاعوا
من أنحاء العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ومن مدن
البرازيل وقراها. الاعلام الملونة ترفرف، واللافتات تحمل
أسماء المنظمات الشعبية وشعاراتها من البرازيل ومن جميع
بلاد العالم، يعلوها الشعار الرئيسى للملتقى العالمى
الاجتماعى الثانى. يقول الشعار بمختلف اللغات: "عالم جديد
ممکن".

Another word is possible

Un autre Monde est possible

Aqui umotio Mundo e'oissuvel

وترتفع الاصوات بالهتافات بمختلف اللهجات واللغات

تقول:

-يسقط الاستعمار الجديد

-لا نريد قروضا بل تجارة عالمية.

-لسنا مديونين بل منهوبين.

-موارنا لنا.

-لن نسدد ديونا خادعة.

-لا للحرب والعدوان.

ألتقط وأنا جالسة فوق المنصة أصواتاً عربية ، وألمح بين الأعلام المرفوقة على فلسطين، بألوانه الأحمر والأبيض والأخضر والأسود ، ويحمله نساء ورجال من بلادنا العربية من مختلف الجنسيات في العالم، يهتفون بصوت واحد: "وحاكموا شارون أيضاً" فهذه المنصة التي أجلس فوقها هي منصة القضاء الستة، ثلاث من النساء وثلاثة من الرجال، جاؤوا من جنوب أفريقيا: القاضي دمي زاسيبازا، ومن البرازيل ديميترو فالانتيني، ومن شمال أفريقيا والبلاد العربية نوال السعداوي، ومن الفلبين لوريتا روزالي، ومن الأرجنتين نورا كورتيناس، ومن الهند شاندرسيكار.

إلى يمين منصة القضاء كانت منصة المدعي العام أليخاندرو تيتلبوم من الأرجنتين، ومعه عدد من المدعى من أوغندا، ومالي، والسدغال، والأكراد، وجمهورية الدومينيكا، ونيكاراغوا، والهند، وأنغولا، والبرازيل.

إلى يسارنا منصة هيئة المحلفين المؤلفة من اثني عشر من النساء والرجال، من الأرجنتين، والإكوادور، وكوت

ديف . . . وار،وم . . . مالي وجن . . . وب افريقي . . . ا،
تانزانيا،وفيجي،واندونيسيا،وكوبا،وهايتي،والصين،والفيليبين.

ذكرى محكمة:

في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٩١ شاركت كقاضية في
محكمة شعبية نظمها وزير العدل الاميركي السابق رامزي
كلارك لمحاكمة جورج بوش الأب بعد أن قادت الولايات
المتحدة حرب الخليج ضد العراق قتلت فيها أكثر من ربع
مليون شخص.

جلسنا لمدة يومين كاملين ١ او ٢ شباط ٢٠٠٢ نستمع إلى
الشهود، ثمانية من قارة أفريقيا، وخمسة من آسيا، وخمسة من
أميركا اللاتينية، نساء ورجال جاءوا إلى هذه المحكمة
الشعبية العالمية الأولى من نوعها، لتقدم شهادتهم عما
أصاب بلادهم من جراء الديون الخارجية، من سياسات البنك
وصندوق النقد الدوليين ومنظمة التجارة العالمية، والشركات
المتعددة الجنسيات في البلاد الرأسمالية الكبرى، وعلي رأسها
الولايات المتحدة الاميركية.

عقدت هذه المحكمة الشعبية العالمية ضد من الفاعليات الأساسية للمنتقى العالمي الاجتماعي الثاني في مدينة بورتوريكو، والتي عقد فيها المنتدى العالمي الاجتماعي الأول العام الماضي ٢٠٠١ ، لقد أصبحت هذه المدينة في جذوب البرازيل شعلة الحركة الشعبية العالمية الجديدة المقاومة للعولمة والاستعمار الجديد، التي تحمل أسم: " العولمة من أسفل" globalization from below وقد نشأت كحركة شعبية عالمية لمقاومة المؤسسات الاقتصادية الدولية واجتماعاتها العلوية في دافوس، في سويسرا، ونذكر كيف نجحت هذه الحركة الشعبية العالمية في نهاية العام ١٩٩٩ (في مدينة سياتل) في عرقلة اجتماع منظمة التجارة الدولية، وكيف تتالت هذه التظاهرات الشعبية من مختلف أنحاء العالم وفي عدد من البلاد شرقاً وغرباً، ضد ما يسمى " المنتدى الاقتصادي الدولي" الذي أصبح عاجزاً عن إنجاز أعماله واجتماعاته إلا في حماية الشرطة، والذي انتقل من دافوس إلى مدينة نيويورك، إذ تشتد قبضة الشرطة ضد التظاهرات الشعبية المنادية بسقوط الرأس المالية العالمية

ومؤسساتها الاقتصادية على رأسها البنك الدولي ومنظمة التجارة الدولية.

ضد دافوس:

نشأ الملتقى الاجتماعي العالمي لمقاومة الملتقى الاقتصادي العالمي وبسبب تزايد قوة الشرطة والبطش في مدينة نيويورك، فقد عقد الملتقى الاقتصادي العالمي يوم السبت ٢ شباط ٢٠٠٢ من دون مشكلات كبيرة من المتظاهرين من النساء والرجال الذين حوصروا بعيداً عن اجتماع القمة الاستعمارية التي تحكم العالم بقوة السد ملاح والإعلام المضلل.

في مدينة جنوي تجمع أكثر من ٣٠٠ ألف من النساء والرجال في تظاهرة ضخمة هاجمتها الشرطة بالغارات المسيلة للدموع والضرب والاعتقال، وقتل أحد المتظاهرين في المعركة، ومن هنا كان لابد من عقد الملتقى الاقتصادي الدولي في البلاد الأكثر ديكتاتورية، والتي تشكل فيها قوة الشرطة عنصراً مهماً لإخماد التظاهرات.

بعد أحداث أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ وضد رب مركز
التجارة العالمي في نيويورك تصاعدت قوات الشرطة
والقوات العسكرية للولايات المتحدة تحت اسم "مكافحة
الارهاب" مما أدى إلى خفوت صوت الحركة الشعبية العالمية
المقاومة للاستعمار والعولمة. إلا أن الملتقى الاجتماعي
العالمي الثاني في بورتر أليغري- في نهاية كانون الثاني
وأوائل شباط ٢٠٠٢- نجح في أحياء هذه المعركة. تجمع في
هذه المدينة ما يقرب من سبعين ألف امرأة ورجل من
مختلف أنحاء العالم، كانت الحركة النسائية مشددة بكرة بكل
قواتها مع حركات الشباب والعمال والفلاحين من مختلف
المنظمات في العالم بما فيها مصر وفلسطين وسائر البلاد
العربية.

وتدربت هذه الحركة الشعبية العالمية على العمل على
رغم الصعوبات، وأخذت تعيد قوتها، وتعبر عن نفسها بطرق
أكثر تنوعاً وإبداعاً، تأثيراً. وأنها حركة تعتمد تجاوز الفروق
المفروضة على البشر تحت أسم الجنسية أو الجنس أو الدين
أو اللون أو العرق أو غيرها، وهي تعتمد مختلف أذواع

التعبير الديمقراطي، والعصيان المدني السلمي، حركة شعبية عالمية تكسر الحواجز بين السناء والرجال، وبين الش باب والكهول، وبين الطلاب والاساتذة، وبين العمال والفلاحين والمهن الأخرى، حركة تناضل ليس فقط ضد العولمة الرأسمالية الاستعمارية. ولكن تناضل أيضا ضد الحركات الإرهابية التي تدعي المعارضة تحت اسم دين معين أو جماعة تستخدم وسيلتي العنف والقتل للمعارضة.

منظمات شعبية عالمية:

شارك في تنظيم هذا الملتقى الاجتماعي العالمي ٢٢ منظمة شعبية من قارات العالم، منها الاتحاد البرازيلي المركزي للعمال، والاتحادات البرازيلية الأخرى للفلاحين والنساء والشباب، المجتس الاستثنائي الدولي للملتقى الاجتماعي العالمي، والشبكات الاجتماعية من أجل العدالة وحقوق الإنسان وغيرها من مختلف الهيئات والتنظيمات الشعبية الديمقراطية.

وشارك في تنظيم المحكمة الشعبية العالمية للديون عدد آخر من المنظمات الشعبية في أفريقيا وآسيا وأميركا

اللاتينية منها منظمة" جوبيل ساوث jubilees South في جنوب أفريقيا والفيلبين وفي البرازيل وفي كندا، مع الاتحاد الأميركي للعاملين في مجال القانون.

منظمات شعبية ديموقراطية في معظم بلاد العالم نبعت من معاناة الملايين من الفقر والقهر بأيدي القوي الاستعمارية القديمة والجديدة، يمثلون الشعوب بفئاتها المختلفة. لا فرق بين رجل وامرأة، أو عامل أو فلاح أو أستاذ، حركة شعبية واعية أدركت خطورة اللعب بورة الأديان في مجال السياسة، أو ورقة الثقافة وما يسمى الاختلافات الثقافية وغيرها من الاختلافات بين الناس، التي اسد تغلتها القوة الاستعمارية لتمزيق الشعوب وتفتيت الوحدة تحت اسم احترام الأديان واحترام الثقافات المحلية.

وأنا جالسة فوق منصة القضاء أقوم بدور القاضي (أو القاضية) مع خمسة آخرين من العالم، أشعر بالفخر لأندى اخترت بواسطة هذه الحركة الشعبية العالمية لأمثل بلادنا العربية ومنطقة شمال أفريقيا، ولأجلس يومين كاملين أستمع إلى تقارير الشهود من أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية ، كيف

أدت سياسات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي إلى تخريب الاقتصاد في هذه البلاد وتراكم ديون الخارجية والداخلية، وكيف أدت القروض إلى نهب موارد هذه البلاد (أو ما يسمونه العالم الثالث) وذلك بسبب فرض السياسات والمشاريع المؤدية إلى اختلال الميزان التجاري، وتراكم العجز، وتزايد الهوة بين الفقراء والأغنياء وحرمان البلاد من ثرواتها الطبيعية ومن قدراتها الإنتاجية في الصناعة والزراعة، وربط عملتها بالدولار الأميركي، وكيف أدت سياسة الخصخصة للشركات والبنوك والخدمات المحلية إلى حرمان الشعوب من ضرورات الحياة، وانتشار المجاعات والأمراض.

كذلك تستخدم القروض وسائل للضغط على الحكومات المحلية وإخضاعها للسياسات الأجنبية ودفعها للمشاركة في حروب لمصلحة الولايات المتحدة الأميركية وغيرهما من البلاد الاستعمارية الكبرى.

وأوضحت الشهادات التي توالى على المنصة من ممثلي البلاد المختلفة كيف أن البلاد (أو المسد تعمرات

الجديدة) التي تتلقي القروض، كيف انها تدفع مبلغاً يصل غلي ثلاثة عشر دولاراً أميركياً في مقابل دولار واحد تقترضه.

وقدم الدكتور شريف حتاتة (من مصر) شهادته عن تاريخ الاستعمار وعلاقته بالديون الخارجية والحربو كيف أن الاستعمار البريطاني دخل مصر في السبعينيات من القرن التاسع عشر من طريق القروض، و" احتل بلادنا" وفي العام ١٩٥٦ رفض جمال عبد الناصر شروط البنك الدولي لفرض مراقبة على الاقتصاد المصري في مقابل القرض لبناء السد العالي، ما دفع عبد الناصر إلى تأميم قناة السويس، وما حدث بعد ذلك من حرب ١٩٥٦، واعتداء جيوش إنكلترا وفرنسا وإسرائيل على بورسعيد.

وأشار حتاتة أيضاً إلى أن مصر دفعت إلى المشد ماركة في حرب الخليج (كانون الثاني ١٩٩١) التي أدت إلى مزيد من تفتيت القوي العربية ، وتثبيت القبضة الأميركية العسكرية والاقتصادية على " بلادنا العربية" وكان الإغراء الذي قدم لمصر هو خفض الدين الخارجي بمقدار سبعة بلايين دولار، سرعان ما اسد تعادتها الولايات المتحدة

الاميركية من طريق العجز في الميزان التجاري، وكان الدين الخارجي لمصر في نهاية السبعينيات من القرض الماضي لا يتجاوز ثلاثة بلايين دولار، وصل في زمن حرب الخليج إلى ما يقرب من خمسة وأربعين بليون دولار، وارتفع مع سد عر صرف الدولار بالجنية المصري من ٣٤ قرشاً في مطلع السبعينيات إلى ٥٦٠ قرشاً في السوق السوداء حالياً، وه ذا يعكس مدي التضخم الذي يعاني منه الشعب المصري الي وم بجميع فئاته، وتتحمل النساء الفقيرات العبء الأكبر من المعاناة بسبب ضعفهن السياسي والاقتصادي ووضعهن الأدنى في الاسرة والمجتمع.

عالم متشابه:

أثناء الاستماع إلى بقية الشهود من أفريقي وآسيا وأميركا اللاتينية اتضح لنا أن هذه الصورة تكاد تكون واحدة في جميع البلاد. ونظراً إلى أهمية هذه المحكمة الشعبية العالمية الأولى من نوعها فقد حضرها حاكم محافظة جنوب البرازيل واسمه أوليفيو دوترو قبل أن يلقي كلمته أو شهادته

عما تعانيه البرازيل من جراء الرأسمالية العالمية والاستعمار الجديد.

وفي النهاية أصدرت هيئة المحلفين قرارها من أربع صفحات و ١٠ بنود بإدانة البنك الدولي وصندوق النقد، ومنظمة التجارة العالمية والشركات المتعددة الجنسيات والحكومات في البلاد الرأسمالية الكبرى، والحكومات في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية المتعاونة مع هذه الهيئات والحكومات.

وافقنا، نحن القضاة الستة (هيئة المحكمة) ، على قرار هيئة المحلفين على أن يبلغ به المسؤولون في الحكومات والهيئات، وسماع دفاعهم في جلسة مقبلة ستعقد في شهر نيسان (أبريل) هذا العام في مدينة واشنطن.

كانت هذه المحكمة الشعبية العالمية خطوة مهمة لتعبئة الرأي العام الشعبي ضد السياسات التي تؤدي إلى تراكم الديون وتخريب اقتصادات بلادنا وتضر بمصالح الشعوب نساءً ورجالاً في بلاد الجنوب.

بورتو أليجري

البرازیل – فبرایر ۲۰۰۲

من وحي اجتماع القمة مع النخبة

(التصفيق)

التصفيق يدوي في أذنيك ،بقايا حلم لا ينقط مع بمجئ
الصباح ، تأتيك الدعوة المذهبة الدواف إلى الاجتماع،
منقوش على ها الرمز الأبدي منذ الفراعنة، الموعد في تمام
الساعة العاشرة في قاعة الاجتماعات الكبرى قبل الموعد
بساعة ونصف بالملابس الرسمية وربطة العنق.

تلفين حول عنقك ربطة على شكل الإيشد ارب. حول
راسك تلفين الطرحة على شكل التيربون، يختفي شمعك
عن عيون الرجال جميعاً، إلا عينيهِ، يغمضها ويتثائب ثلاث
مراتو يبتلع احلبة الزرقاء بقليل من الماء، ويعود إلى
النوم، يواصل الحلم مع سكرتيرته الحسنة تدق على
الكومبيوتر، تشبه المتدربة الشقراء في البيت الأبيض.

تبتلعين اللعاب المر في حلقك، تبلغين الخامسة
والأربعين من عمرك بعد يومين، يرن الارقم في أذنيك
مرعباً ، يسمونه سن اليأس ، يكبرك بثلاثين عاماً ويبطل مع

الفياجرا دون يأس ، تزوجك وأنت في الثامنة عشر، تحلمين
بالغلام من عمرك، المولود معك في يوم واحد عاد الهزيمة.

تفرضين العزلة على نفسك وراء الحجاب، والرجل
في كل مكان ، في الشوارع والباصات ونوافذ الجيران وفي
أحلامك يتنافسون على كـ، يجذبهم اليك التأرجح في عيني كـ
المكحلتين، والنداء المكبوت بين شفتيك الحمراءوين، تضغطين
على هما بإصبح الروح قبل أن تجرعي من البيت، ثم رين
بالفرشاة فوق خديك، وظلال خفيفة فوق جفني كـ، وقطرات
العطر ترشيتها تحت إبطيك.

تسيرين بخطوة بطيئة مثل الوزيرات، يـ رتج جسدك
المربع فوق كعبك العـالي وتشدين عضلات ظهرك
وعنقك، فوق رأسك يدور التيربون بإحكام، لا تفلت شعرة
واحدة للعيان، كل شيء مباح لك إلا ظهور هذه الشعرة أمام
عيون الرجال.

تتأهبين لحضور الاجتماع الهام، ترتدين التاير الجديد
من الصوف الإنجليزي لونه أزرق سماوي ، منقوش على هـ
ورود حمراء، انجذبت إليه عيناك وانت تسرين في شارع

ريجنت، حين حضرت مؤتمر الأديان منذ عامين في
أكسفورد، تحتفظين به معلقاً داخل الدولاب. ملفوفاً بالنايلون
الشفاف، لا يخرج إلى النور إلا في المناسبات، ترشقين فوق
صدرك البروش الذهبي بالفص الأماظ، تثبتين بالديابيس
حبات اللؤلؤ حول التيربون، وبعض جواهر قليلة حول العنق
والمعصمين.

تهبطين السلام الرخامية في الفيلا الجديدة، تسد معين
صوت كعبك الرفيع يقد الأرض، تنظرين إلى سماعتك
الذهبية بحركة متوترة، تخافين التأخر عن الوصل في
الموعد، تتحسين الدعوة داخل القبة تحت إبطك، منقوش
علىها اسمك الثلاثي ولقبك الوزاري ومنصبك العالي في
المجلس المنتخب والمعين بقرار واحد.

يفتح لك السائق باب سيارتك الطويلة السوداء، نوافذها
محكمة الإغلاق، لا ينفذ منها ضجيج أو تراب، زجاجها داكن
اللون لا يكشف الداخل، ويبقي الخارج مكشوفاً أمام عينيك،
تشعرين بلذة الرؤية دون أن يراك أحد، مثل الوزراء
والسفراء والملوك والرؤساء، ممن يركبون السيارات الشاحنة
السوداء.

من وراء الزجاج الاسود ترين الأشد باح تمشي في في
الضباب، وجوههم شاحبة ممصوفة أو مترهلة بالشحم،
عيونهم نصف مغلقة فيما يشبه الغيبوبة، والجدران العاليات
تتغطي بالاعلانات، أجسادنا مغمورة عارية في ركن فوق
السيارات، في أيديهن المسدسات، بين شفاهن سد يجارة
دانهيل.

منذ الزواج اصابك الزهد في كل شيء، الجنس وقصص
الحب وقزقة اللب في السينما، يمتد بك الزهد إلى الصمت
عن الكلام، لا يبقى أمامك من ملذات الدنيا إلا الأكل وانلهم
للشراء، لكن ملذات الآخرة هي الأبقى، تشرئب عيناك في
الحلم إلى القصر في الجنة، وأباريق الفضة يطوف الغلمان،
تتجذب عيناك إلى الغلام من عمرك، يدوم طيفة حول
سريرك طول الليل، تحاولين طرده بقراءة آية الكرسي
تطرد الجان والشياطين إلا هذا الغلام من عمرك.

تتوقف سيارتك عند حاجز الأمن، يحوط به الدراس
وعيون السلطة والبصاصون من وراء النظارات السوداء،
تقفين في الطابور الطويل ضمن ثلاثمائة آخرين، تتدهشين
لهذا العدد الكبير من المدعويين، تصورت أن النخبة هي القلة

و فإذا بهم كثيرون ،يحمل كل منهم لقب المفكر الكبير ،
يصلون قبل الموعد بساعتين، يرتدون البدل المكويمة من
الصوف المستورد ، تتهدل عضلات سيقانهم تحت البنطال
المشدود، حول أعناقهم تدور الربطة المعقودة بإحكام ،شد عمر
رؤوسهم مصبوغ بلون أسود فاقع ،عيونهم المتغضنة
وجفونهم المتورمة تكشف عمرهم الحقيقي، تملع انوفهم بنشوة
الفياجرا، يسرون بخطي وثيدة بطيئة،وامام الباب يتقافزون
على الدخول كالتلاميذ المتنافسين.

والباب صغير ضيق يشبه أبواب السجون، لا يسد مح
بدخول الجسم والرأس مرفوع لا يتسع لدخول الفرد الواحد
إلا بالجنب ،وانت واقفة في مؤخرة الطابور،تصورت انك
اول الواصلين فإذا بك آخرهم، تشبك النخبة دائماً إلى حيث
تذهبين ، يلتقطون قبلك رائحة السلطة حيثما تكون، بحكم
الموروث منذ عصر البيد، وخريطة الجندوم الذكوري
المدرّب عبر القرون.

تجدين رأسك ينحني عند الدخول، وجسدك ينثني
ويلتوي، تبتلعين المهانة لعابك المر ، لا شيء يواسيك إلا انك
لست وحدك،وإذا كان الوباء عاماً فليس على كحرج، امامك

في الطابور جميع الوجوه التي تظهر في الصد حف، وفوق
الشاشات وأغلفة المجلات والكتب.

مراسم الدخول طويلة بطيئة، بسبب الزحام وتعطل
العين الإلكترونية، وحرص رجال الأمن على التفتيش الدقيق،
يجردونك من ملابسك دون أن تخلعها، وتدخلين بعد فحص
إلى القاعة الكبيرة، يعلوها الوجه بحجم الكرة الأرضية، معلق
قرب السقف، مثبت بالمسامير مثل ثوابت الأمة، يختفي مثل
الإله وراء عمود من الدخان ونظاره سوداء فوق العينين.

الصفوف الأمامية كلها محجوزة، مقاعد لها مذهب
الحواف من القطيفة الحمراء، فوق ظهر كل مقعد قطعة
ورق، مكتوب علىها الاسم واللقب، يجلسون في الصفوف
حسب الدرجة، يأتي في المقدمة الوزراء والسفراء
والمستشارون. ورجال الدين والشرطة والإعلام، يأتي بعدهم
المطربون والمذيعون والمذيعات، والذماخون في الآلات،
وبعض العلماء والمنجمون والأطباء النفسانيون وضاربوا
الودع، يأتي بعدهم الأدباء والروائيون الواقعيون والحالمون،
لا يمكن أن يتخلف أحد، وإن كان نزيل المستشفى في لتغيير

صمامات القلب، سرعان ما يفيق من المخدر ويأتي قبل
الموعّد بساعتين، مرتدياً البدلة الرسومية وربطية
العنق، والازرار مغلقة حول قفصه الصدري، يجلس مع
القادين مكتوف الذراعين والساقين، قدماه داخل الدذاء
اللامع مشبوكتان تحت المقعد، تتورمان من طول الجلوس،
تمر الساعة وراء الساعة دون الذروج لقضاء الحاجة،
فالأبواب كلها أصبحت مغلقة ولا أحد يدخل ولا أحد يخرج.
ثم تدوي الصيحة العالية، تندفض الأجساد واقفة
والأيادي ترتفع بالتصفيق، تجدين نفسك واقفة تصفيقين، يدك
اليمنى تضرب يدك اليسرى في قوة دون توقّف، الدقائق
تحت ضلوعك تفقد انتظامها، صدرك يعلو ويهبط بحركة
مرئية، تنتفضي الدقائق والتصفيق مسدّ تمر، وتمتد أيدي
سحرية تفتح باباً خفياً في الجدار، تتعلق العيدون بالباب
المفتوح والأنفاس مكتومة، ثم يبدأ الموكب يدخل على
مهل، يأتي الحرس الخاص في المقدمة بالملابس المدنية
ويظل الباب مفتوحاً دون أن يظهر أحد ويذهب الصدمت
العميق بضع لحظات كأنما كل شيء ماتز

ثم تظهر الكتلة المتألئة بالأضواء ، تومض الفلاشات
والعدسات والآلات اللاقطة، لا يمكن للعين أن تري الوجه
وإن امتد العنق إلى آخره، الاضواء الفضية تذوب داخل
نسجي البدلة المكوية، الكتفان المحشوان والصدر العريض
يشبه الدرع.

تجلسين في الصف الخلفي تحملقين نحوه، يكاد يشبه
الوهم، رغم المسافة الويلة تبدو الملامح قريبة، عضلاته
متهدلة يكاد يشبه زوجك، الجفون متورمة مع انتفاخ الخدين
والشففتين وما تحت العينين ،نظراته هائلة ما بين السقف
والجدران ولا تستقر على وجهه ، كأنما الضوء يعميها عن
الرؤية.

يستمر التصفيق يدوي وأنت نائمة، لا ينقطع بمجيئ
الصباح، لا تعرفين الحقيقة من الحلم، وأنت جالسة تصدقين
مع الجالسين، الأيادي كلها مرفوعة تصفق، لا احد يشذ عن
المجموع ، تشعرين بالمهانة وانت تصفقين، تبتلعين المهانة
مع لعابك المر، لا شيء يواسيك إلا أن الجميع يصفقون، وإذا
كان الوباء عاماً وشاملاً فليس على ك حرج، تدور عيناك في
القاعة تبحثين عن شخص واحد لا يصفق ترينه جالداً في
الطرف البعيد من الصف الأخير، الغلام من عمر ك المولود

معك عاد الهزيمة، يداه إلى جواره لا ترتفعان، هـ و الوحيد د
الذي لا يصفق.

القاهرة ١٩٩٨

من وحي قرار مفتي الديار المصرية

وإذا أفتي المفتي ما ذا يكون؟

إذا أفتي مفتي مصر الدكتور أحمد د الطيب ب أن الزوجة وحدها التي تعاقب بجريمة الزنا والخيانة الزوجية، وإن الزوج لا يعاقب إن قام بالجريمة ذاته، فهل يكون حكمه هذا حكماً أخلاقياً أم إسلامياً؟

ورد هذا السؤال في عقلي وأنا أقراء الصحف المصرية في ٨ تموز (يوليو) ٢٠٠٢، عما حدث في مجلس الشعب (البرلمان) في اليوم السابق عند عرض مشروع جديد لتعديل قانون العقوبات من أجل معاقبة الزوج على جريمة الزنا بالحبس لمدة لا تزيد عن سنتين ، وقد إرسل المشروع إلى المفتي الذي تشاور فيه مع "مجمع البحوث الإسلامية" التابع لمؤسسة الأزهر، ثم جاء حكمه برفض المشروع. لماذا؟ لأن الأصل في القضية هو تجريم الزنا، كما جاءت به النصوص الشرعية. وبناء على ه فإن دار الافتاء المصرية ترى عدم الموافقة على المشروع بتجريم

الأصل ،وهو جريمة الزنا". هذا هو نص ما قاله المفتي رداً على المشروع.

خلال المناقشات داخل مجلس الشورى رفضت وزارة العدل المشروع بحجة أن الزوج له الحق في تعدد الزوجات، ولذلك يمكنه أن يتزوج المرأة التي ضبطتها زوجته معه لكن هذه الحجة باطلة قانوناً. لأن القانون يلزم الزوج بإبلاغ زوجته الأولى بزواجه من امرأة أخرى.

لقد تخرج أبا في الأزهر ودار المعلمين والقضاء والشرعي، وقد اشتغل قاضياً شرعياً بعض الوقت، وحكم ضد الأزواج الخائنين، وكان يقول: الخيانة ليست من الأخلاق الرفيعة أو الإسلام الصحيح ، لأن المسؤولية تنتد ما قض مع الخيانة، لأن الحرية تعني المسؤولية وليس الفوضى.

في مصر اليوم حملة كبيرة من أجل النهوض بالتربية والتعليم، وقد أصبحنا نشهد كل يوم مظاهر التدهور الأخلاقي أو الفساد داخل الأسرة أو خارجها في المجتمع المصري أو المجتمع الدولي. وهل هناك فساد أكثر من ذلك الفساد الدولي الذي يتبنى ازدواجية الأخلاقية، فيعاقب الع راق م ثلاً

بالحرب أو بالعقوبات الاقتصادية على حين يبرئ إسد رائل
التي تذبح الشعب الفلسطيني أما أعيننا كل يوم؟

إن مبدأ الأخلاق الصحيحة هو العدل، وهو المسؤولية في
حالة الزوج الذي يخون زوجته ثم يخرج بريئاً؟ أليس في
ذلك إهدار للأخلاق، بل إهدار للأسرة وتشجيع الرجال على
عدم المحافظة على ها؟

وهل تكون المرأة هي المسؤولة الوحيدة عن الأخلاق
وعن الحفاظ على الأسرة. على رغم انه لا تملك أي
سلطة ويملكها الرجل؟!!

قرأت في جريدة "الأهرام" (٨ تموز/ يوليو ٢٠٠٢) عن
تلك الزوجة المصرية التي منحت زوجها كل مالها ليخرج
من أزمته المالية، وأخلصت له ثلاثين عاماً، إلا أنه تنكر لها
وتزوج من فتاة صغيرة السن، وطرد الزوجة إلى الشارع بلا
مأوى، مع ذلك خرج هذا الزوج بريئاً في نظر القانون، لأن
الزوجة لم تأخذ إيصالاً مكتوباً من زوجها عن مالها، لأن
القانون لا يحمي المغفلين الذين يجهلون القانون. وخروج
الزوج بريئاً أيضاً في نظر رجال الدين، باعتبار انه يمارس
حقه الشرعي في تعدد الزوجات.

وفي الوقت الذي يتم فيه التساهل الأخلاقي الشديد مع الرجال إلى حد الفوضى وعدم المسدؤولية، فإن التشديد والتزمت هما من نصيب النساء فقط، وفي الوقت الذي يتمسك فيه رجال الدين بحرفيه الشرع في ما يخضع المرأة فإنهم يتساهلون مع الرجل تحت اسم الاجتهاد وأعمال العقل.

وفي جريدة "الاهرام" (٢٨ حزيران/ يونيو ٢٠٠٢ ص ٣٦) يعلن المفتي أن وجود حجاب المرأة المسلمة في الثوابت الشرعية، ليس فيه اجتهاد أو إعمال للعقل، لماذا؟ لأن حجاب المرأة يدخل في إطار التوجيه الإسلامي العام المؤسس على مراعاة الفطرة المستقيمة والأخلاق وهل غطاء الرأس دليل الأخلاق. أم استقامة السلوك والأفكار؟ ولماذا لا يحكم المفتي بالمثل في ما يخص جريمة الزنا للرجل؟! وهل تدخل جريمة الزنا أو خيانة الزوج لزوجته في إطار الاخلاق أو التوجيه الاسلامي العام؟ (الذي يساوي بين الرجل والمرأة التي ضبط معها؟! ألا يشبه ذلك تبرئة الرجل الذي يغتصب فتاة إذا تزوجها؟!

وفي جريدة " اخبار اليوم " (٦ تموز/ يوليو ٢٠٠٢ ص ١٥)
تحت عنوان " نبت الجريمة " نقرأ قصة الفتاة (سلوي) التي
اغتصبها رجل وحملت منه واضطرتها اسرتها للزواج منه
حتى لا تجلب العار لأشقائها وأمها، ولكن بعد شهرين فقط
هرب الزوج تاركا لها ورقة الطلاق، تحملت سلوي الجرائم
الثلاث: الاغتصاب ثم الزواج ثم الطلاق، وكان من الطبع أن
تكره الجرح والجرحين الذي منه، فأقدمت على قتل مولودها.
وأحيلت سلوي على النيابة التي قررت حبسها وتوقيدها
للمحاكمة العاجلة بتهمة " القتل " وقد اتهمت سلوي بأنها فاقدة
الأمومة " أيضا ، فيكيف تقتل أم طفلها ما أو طفلته ما؟ وتغذي
الكثيرون بـ ". الأمومة " ، أما " الأبوة " أو مسئولية ذلك
الرجل الذي اغتصبها ، ويقولون أنه تزوجها وطلقها حسب
القانون والشرع، فهو إذن بريء، أما هي فتستحق الاعدام!

وكم من الأمثلة التي نشهدها كل يوم من هذه
النوع، والتي تكشف لنا عن مدى الفساد الأخلاقي أو
الازدواجية الأخلاقية التي تسود في مجتمعاتنا تحت اسم
القانون وكم من محاولات لتعديل مثل هذه القوانين، إلا أن

غالبية القيادات الدينية تقف ضد أي تعديل للقانون تحت أسم
الشرعية أو الثوابت أو حسب مبدأ " لا اجتهاد مع النص".
والسؤال الآن هو: أين ذلك النص الذي يدعي هذه
الازدواجية الاخلاقية؟!

دراسة القرآن تؤكد أن هذا النص غير موجود، وعلى
رجال الدين في بلادنا أن يقولوا لنا أين هذا النص وماذا
يقول؟ أن هذا هو التحدي الذي أمامهم الآن. (نرجو إخراج
هذا النص إلى الوجود أيها السادة، إن استطعتم!).

وسؤال آخر: إذا كان تعدد الزوجات من الثوابت غير
القابلة للتغيير فلماذا تم تعديل القانون في عدد من بلاد
الإسلامية، وألغى تعدد الزوجات تماماً، وكذلك حق الطلاق إلا
أمام القاضي ولسبب معقول، وليس لمجرد النزوة الجنسية أو
الخيانات الزوجية والزنا.

على رغم الدراسات الاجتماعية المتعددة والتي كشفت
عن مآسي المطلقات في المحاكم وتشريد الأطفال وتفكيك
الأسرة بسبب تعدد الزوجات أو ضد ربهن، أو هجرانهن أو
مجرد التخلي عن مسئولية الأبوة، على رغم كل ذلك فإن

قانون الاسرة أو قانون العقوبات لم يعدلا بالقدر الكافي الذي يعاقب الرجل الذي يتخلي عن مسؤولية الأبوة.

لا تزال القيم الاجتماعية والتعليمية والإعلامية في بلادنا قائمة على تحميل المرأة وحدها المسؤولة تحت اسم " الامومة " المقدسة العظيمة.

أما " الأبوة " فهي لا تزال قاصرة أو محدودة بالاتفاق ، أو غائبة تماماً في ما يخص المسؤولية والأخلاق.

ونحن نشهد اليوم حملة كبيرة للنهوض بالتعليم في مصر، هل ينفصل التعليم عن التربية؟ وهل تقوم التربية الصحيحة على شيء آخر إلا المسؤولية الأخلاقية؟

تتحمل المرأة وحدها في بلادنا مسؤولية الأخلاق؟

لأن الرجل لا يعيبه إلا جيبه، ولأنه يستطيع أن يذون ويزني ويظل شريفاً بريئاً وهذا هو الدليل على انه دام الأخلاق في بلادنا.

يوليو ٢٠٠٢

من وحي عيادتي الطبية بالجيزة

وسقطت جميع الأمهات

- من حواء إلى مريم العذراء كان التحول.
- في الأدب والشعر والدين.
- كان الخيال سليماً في الحضارة القديمة.
- والروح داخل الجسد داخل العقل.
- انفصلت الروح منذ مقتل الام.
- وانفصل خيال الرجل.
- أنا والله واللذة والشرف.
- وأمي تقول لنفسها.
- أنا والشيطان والألم والعار.
- انحدرت من ربة المعرفة.
- إلي العذراء بلا شهوة.
- من مبدأ اللذة إلى مبدأ الألم.
- سقطت جميع الأمهات.

عام ١٩٥٩

من وحي قرار شيخ الأزهر:

” حجاب المرأة واجب في الاسلام ”

- الي الذين يتحدثون عن الحجاب.
- من السادة لارجال.
- يتنافسون على الورق والشاشة.
- وأصواتهم عالية.
- قال بعض هم كلمة "الخمار" وردت في الكتاب.

- وفلسطين السليبية لن تعود بنزع الحجاب.
- وهو حق واختيار بإرادة النساء.

- وقال بعضهم إنه ليس من الدين الصحيح.
- بل من الجماعات الدينية.
- الذين قتلوا الأبرياء.
- وكفروا المؤمنين من طه حسن إلى قاسم أمين.

• واعتبروا الفن إثماً.

• يستجوب التوبة.

• وقال بعضهم إن الحجاب،

• موجود في كل البلاد.

• الشال والطرحة والبونيه والقبعة.

• ضمن الأزياء الوطنية.

• باختيار النساء.

• لأن " الوطن " لا يفرض شيئاً.

• لا الشابو ولا الفولار ولا القبعة العسكرية.

• فقط الزي الاشتراكي للطبقة العاملة.

• وعمليات الأخصاء للعبيد في بيزنطة.

• وقال بعضهم ما جدوي تغطية رؤوس

النساء؟

• والمرأة هي المرأة!

• ما أن ينام زوجها حتي تصحو.

• وإن كان هو الجنى الأسود.

- أو شهر يار أو شاه زمان.
- بنات حواء يا إخواني.
- يخرجن الراهب المتعبد من صلاته.
- وإن ارتدين الخمار الاسود.

- ترتفع اصوات الرجال والنساء صامتان.
- أو مطرقات إلى الأرض في حياء
- أو باسمات برقة وإغراء
- رؤوسهن ملفوفة بالطرحة اوالبونيه،
- من آخر طوراز أو موضه،
- من الاستاذة إلى الضكطورة.
- نري صورهن على الورق والشاشة،
- يتنافسن في الحديث عن فلسطين السليبية.
- وأنف" أبو الهوال" المسروقة.
- وأصحاب نظرية العودة إلى الايمان.
- من أفلاطون إلى عباس العقاد.
- ومن أليزداير ماكنتاير إلى هنري لنك.

- ترتفع أسماء الجرال والخواجات،
- وتدفن أسماء النساء.
- من عائشة التيمورية إلى مي زيادة،
- وملك وكوكب حفني ناصف.
- ودرية شفيق وسهير القلماوي وأمينة السعيد،
- وغيرهن من الكاتبات اللاتي تقدمن عن
- طه حسين أو العقاد أو قاسم أمين.
- وبعضهن على قيد الحياة يدفن.

- أيها السادة الرجال،
- أقول لكم:
- لماذا لا ترون الأشياء البسيطة الواضحة؟
- وضوح الشمس.
- لماذا يرتدي الإنسان القبعة في الشتاء.
- ويخلعها في الصيف؟
- لماذا يتعري الغنسان تحت خط الاستواء.
- بصرف النظر عن الجنس؟

• ولماذا يرتدي راكب الموتى كل الخوذة

الحديدية

• أو الجندي في القتال؟

• أيها السادة والسيدات.

• إن رأس الإنسان ليس عورة.

• لأنه يحتوي العقل.

• والعقل أشرف ما في الإنسان.

• فهل المرأة إنسان؟

• يا من تتحدثون عن الحجاب؟

وأعلنت أحدي الزعيمات النسائيات المحجبات أن النساء

السافرات ملعونات وإلى نار جهنم ذاهباتو ثم نشرت تاريخ

عائلتها الكريمة:

القاهرة يوليو ٢٠٢

التاريخ العائلي لزعيمة نسائية محجة

١- تحسين الصورة:

- من حقي أيها السادة أن أكتب،
 - تاريخ عائلتي.
 - لأنه تاريخ الوطن والعروبة والإسلام.
 - ولأن أبي وخالي وعمي وجدي الكبير.
 - من أكبر الرجالات الوطنيين العربيين الإسلاميين.
 - وكلها وجوه لعملة واحدة.
 - وكان زوج خالتي يتكلم عشر لغات.
 - أما أبي فلم يكن حاصلاً على الابتدائية.
 - واشتغل موظفاً بسيطاً في محكمة.
 - فوق عينيهِ نظارة سميكة.
 - يف . ك به . ما الذ . ط والتوقي . مع ع . ي
- العرضحال، والاختام الملكية.

- ويقف تعظيم سد لام لحاج ب المحكمة أو مندوب السراي.
- وكانت أمي لا تعرف القراءة ولا الكتابة
- لكنها كانت تحتفظ بكل ورقة يكتبها أبي.
- ومنها كمبيالة المهر وقائمة العفش.
- تأمينا لها إن طلقها إبي بغتة.
- أو تزوج امرأة أخرى دون علمها.
- وقد تعرضت اختها وابنة خالتها وجارتها.
- لمثل هذه المشاكل في المحاكم الشرعية.
- وخرجت كل منهن على باب الله.
- لأن القانون لا يحمي الجهلات به.
- اللائي لا يحتفظن بإيصالات العفش.
- والكمبيالات.
- بخط الزوج الجميل أو القبيح.
- وكان ابي دائم التحسين لخطه العربي.
- فهو عروبي إسلامي.
- وهو يعرف حقوقه الكاملة الشرعية.

- ومنها حق المطلق في الطلاق والزوج
بأخري

- دون علم الزوجة الأولي.
- ورثت عن امي إيصالات واوراقاً كثيرة، أما
ابي فلم يكن لديه أوراق ولا كتب ولا مكتبة.
- أبي كان مولعاً بأنواع الأخذ بالرسومية
والخطوط.

- لم يكن يضيع وقته في القراءة.
- ولكن في تحسين خطه وصورته.
- وكان الشعار الملكي يشبه الشعار الجمهوري
اليوم.

- "تحسين الصورة".
- وأصبح أبي جميل الصورة جميل الخط
والصوت.

- يكاد يشبه الملك في طفولتي.

٢- تشوية الصورة:

- ورثت عن ابي شعار تحسين الصورة.
 - لا أعرف كيف تغلغل هذا المبدأ داخلي.
 - وأصبح مقدسا.
 - والأهم تأثير أُمي ،وكانت متفرغة في البيت
 - للأمومة المقدسة.
 - والحفاظ على الاسرة من التفكك وعبدت
 - الأبوة غير المقدسة.
 - وكانت اُمي تؤمن بالشهادة،
 - الدكتوراه أو الماجستير .
 - وحين تزوجت رجلاً غير متعلم سألتني
 - شهادته إيه؟
 - وغضبت أُمي من زوجي لأنه لا يعرف
 - إلا اللغة الشعبية العامية.
 - وقعت أُمي في التناقض والتطرف
 - وكانت امرأة شعبية.
 - لا تعرف اللغة الفصحى ولا تعرف الكتابة.
 - وتركت أُمي بصامتها على عقلي وجسد مي
- وروحى.

- ورثت عنها التناقض والتطرف.
- وورثت عن أبي شعار تحسين الصورة.
- والصوت أيضا.
- وأصبح حلم حياتي أن أكون
- الصورة المثالية للمرأة المصرية.
- ولأنني عروبية إسلامية مثل أبي
- فقد أصبحت المثالية لنساء مصر
- في ظل العهود الملكية والجمهورية.
- وعصور الاشتراكية والرأسمالية،
- والليبرالية الجديدة.
- ونشرت صدورتي بـ البنطلون الأمريكي في
الجينز.
- أيام الانفتاح والحرية.
- وفي العصر الحالي تنشر صورتي بالحجاب.
- في الصحف الإسلامية،
- والصحف الوطنية المعارضة
- وأحزاب العولمة الجديدة والكوكبة.

- وأحمل لقب زعيمة نسائية إسلامية عروبية
وطنية مناضلة ضد الباطل بكل صلابة وعنف.
- ومع ذلك ايها السادة،
- فإننا طفلة رقيقة جداً، وعاشقة لكل الصور
الجميلة والخطوط العربية والفارسية وتحسين صور
الإسلام في عيون الأجانب.
- ولهذا أغضب بعنف وأضرب بقبضة يدي
راس الشيطان.
- والذين يشوهون صورة الاسلام.
- وعلي رأسهن ذوات الرؤوس غير المحجبة.
- النساء السافرات لعنة الله على هن!

القاهرة ٩ يوليو ٢٠٠٢

عن الخوف

- الخوف يجعلنا نموت في كل لحظة.
- إن نسينا واحد من الاحباء.
- أو هجرنا واحد من الازواج.
- وإن عارض .نا السد .لطة وه .ددتنا
بالحبس أو النفي.
- وإن لم نعارضها احد بحنا م ن
المنافقين الموتى.
- نموت من الحب ومن الكره.
- ونموت إن غاب الحب وإن غاب
الكره.
- نموت بسبب العيال والولادة وحمي
النفاس.
- ونموت لأننا بلا عيال.
- نموت من الخوف من العقاب في
الدنيا.
- ونار جهنم الحمراء بعد الموت.

- نموت من الخوف آلاف المرات.
ملايين المرات.
- لكن الشجاعة وحدها تجعلنا نموت
مرة واحدة.

قالت رابعة العدوية: أنا لا أخاف نار جهنم
الحمراء و، لا أطمع في جنة عدن الخضراء.
سألوها: الجنو النار وردت ما في الق رآن
والإنجيل والتوراه، ألا تؤمنين بالكتب السماوية؟!
قالت: أنا لا أقرأ ولا أكتب ، وإذا س عيت
إلى الله فلأنه العدل وليس كتاباً.

من وحي مذبحة سبتمبر ١٩٨١

المكان الأمين:

- | في الظلمة جاءوا واخذوني.
- سألت أين تأخذوني؟
- قالوا نأخذك إلى مكان أمين.
- قلت من أعطاكم الأمر؟
- قالوا صاحب الجلالة رئيس البلاد.
- قلت إذا كذب صاحب الجلالة.
- فمن يقول الصدق؟
- وذهبت معهم إلى المكان الأمين.
- فإذا بي داخل السجن.
- قلت لهم رئيسكم كذب على كم
- قالوا نعم.
- ثم سكتوا إلى الابد.

من وحي الحراسة

إنقاذ النفس من برائن الحب والحماية:

- في ظلمة الليل جاءوا حاملين البنادق.
- قلت لهم من أنت؟
- قالوا الحراس.
- سألتهم وماذا تحرسون؟
- قالوا حياتك.
- قلت حياتي في خطر؟
- قالوا نعم؟
- سألت من يهدد حياتي؟
- قالوا لا نعلم.
- عرفت من عيونهم أنهم يكذبون.
- أصبحت أصحو حين ينامون
- وأنام حين يصحون.
- أحرس حياتي من رصاص حراسي.
- وأنقذ نفسي من برائن الحب والحماية.

القاهرة يونيو ١٩٩٢

* * *

من وحي سنوات الغربة

- الغربة خارج الوطن قاسية.
- وأقسي منها.
- الغربة داخل الوطن.
- الرسائل تأتيني رغم المسافات.
- من الأهل والأصدقاء.
- والصديقات.
- مع حركة الطائرات تزداد المسافات.
- والحزام مربوط حول جسدي.
- وعقلي مشدود إلى هنا.
- حيث تكون فلذة الكبد.
- وحيث يكون الحب.
- من وراء البحر والمحيط.
- تلوح لي الأيدي والعيون.
- تلمع في الظلمة كالنجوم.
- تشدني إليهما من قاع الموت.
- بلا قطرة دم ولا دموع.

- أعانقهم وأضمهما إلى صدري.
- أعود بهما إلى رحم الأم.
- رغم المسافات.
- أنا أمهما نوت أو نون.
- أو أي اسم.
- ذكر أو أنثي.
- لا يهم.
- المهم أنهما متساويان.
- ابنتي وابني يتساويان عندي.
- وإن غضب إله السماء والبراكين.
- وإن زمجر بصوت الرعد.
- أو أعلن الحربز
- علي النساء والشباب والأطفال.
- تحت اسم الأرض الموعودة.
- أو محاربة الأرهاب.
- والدعوة إلى الفضيلة.
- جسدي رغم الحزاب المربوط بالمقعد.
- يحلق فوق السحبز

- فوق الحدود المصنوعة بين البلاد.
- والتقسيمات بين البشرز
- علي اساس الدين أو الجنس أو الجنسية.
- يكسر الحواجز والخرائط المرسومة.
- في كتب التاريخ والجغرافيا.
- والكتب السماوية.
- أحملق من فوق السحب في عين الإله.
- دون حياء أو خجل.
- حتي تطرف عيناه ويغض البصر.
- ويسالني الحارس عن جواز السفرز
- واسم أبي وجدي.
- وأقول لا أعرف من الاسماء.
- إلا اسم امي.
- وأتجه نحو باب الخروج.
- رافعة راسي في شموخ.
- وينطلق الرصاص خلف ظهري.
- وأنا أسير لا أتوقف.
- لا يخترق الرصاص جسدي.

- يفرقع في الفضاء
- مثل فقاعات الهواء.
- وأسير نحو الباب وأدخل.
- وتسالني ابنتي كيف دخلت؟
- وأقول لأن إله الزلازل والبراكين.
- أصبح مشغولاً بغيري.
- أحملق في عينيه فوق السحب.
- أحملق دون حياء أو خجل.
- حتي تطرف عيناها.
- ويغض البصر.

ديرهام. نورث كارولينا ١٩٩٥

القيط والغيط في يونيو ٢٠٠٢

أمامي صحف الأحد ٩ يونيو ٢٠٠٢ باللغة العربية ولغات أخرى. الحدث الواحد يتغير من صحيفة إلى أخرى. تتحول الهزيمة السياسية أو العسكرية إلى نصر عظيم ويتحول القزم إلى عملاق حسب موقع البلد والجريدة. إلا أن صورة الرئيس الأمريكي "بوش" وصديقه الإسرائيلي "شارون" تحتلان المساحات الأكبر، فيما عد الصحف العربية، حيث تشغل الصفحة الأولى صورة صاحب الجلالة أو صاحب الفخامة أو صاحب السيادة.

اليوم ٩ يونيو ٢٠٠٢، في مثل هذا اليوم منذ عشرة أعوام تم اغتيال كاتب مصري اسمه فرج فودة، اختفى اسمه تحت الرماد والنسيان مثل كثيرين من المقتولين الذين يدفعهم حماسهم الوطني أو الديني إلى الموت، من أجل الله أو الوطن أو العدالة الغائبة، ثم يرقدون في قبورهم يطويهم النسيان.

منذ عام تقريباً كنت غائبة عن الوطن، أقوم بتدريس مادة "الإبداع الفكري" في جامعات بعيدة وراء البحار

والميحط. والعقل أو الفكر أو الابداع لا يكون حاضراً حيث تكون الحريات غائبة.

منذ أيام قليلة عدت إلى بيتي في مدينة القاهرة، المقهورة منذ نشوب العبودية والفراغنة، رأيت الوجوه الحزينة الشاحبة، والبيوت الغارقة تحت طبقة من الرماد، والغضب المكبوت داخل الصمت أو الضجيج، كالمرجل يغلي تحت النار، ومكبرات الصوت تتفجر ليل نهار، بإيقاع الطبل في حفل زفاف، أو الآلات النحاسية في الديسكو، أو التراتيل الدينية في المآتم، والميكروفونات فوق المآذن العالية الواطئة تتنافس لإيقاظ النومي تحت وطأة القبط. أو الموتى كمداً من شدة الغيظ، فقد صدرت الجرائد الصباحية بالخبر المغيظ، لا نعرف إن كان نصراً أم هزيمة: "تطابق الرؤية المصرية الأمريكية". أي رؤية؟ وأي تطابق؟

أمامي الجريدة باللغة العربية تعلن أننا حققنا نصراً عظيماً في المفاوضات مع الرئيس الأمريكي. وأمامي الصحف بلغات أخرى تقول أن لاشئ تغير في الموقف الأمريكي. وأن "بوش" يرفض الالتزام بأي جدول زمني

لنشوء الدولة الفلسطينية، وأنه يستمر في الرؤية المغلوطة التي تجعل الضحية المقتولة من الشعب الفلسطيني هي الجانيّة الإرهابيّة المسؤولة عن العنف، وإن إرييل شارون (رئيس الحكومة الإسرائيليّة والمذابح الكبرى) لا يفعل شيئاً إلا حماية الأمن والمطالبة بالسلام.

في الصور الداخليّة نرى الدبابات تجتاح المدن والقري الفلسطينية في الضفة الغربيّة وقطاع غزة، تهدم البيوت وتقتل النساء والرجال والشباب والأطفال، تدفنهم أحياء في قبور جماعيّة، ويرفض شارون قرار مجلس الأمن بالتحقيق في هذه المذابح، ويعلن "بوش" براءة "شارون" دون تحقيق و يواجه الإدانة إلى الأطفال والبنات الفلسطينيين اللائذين أجسادهن بالديناميت من شدة الغيظ والكمد.

ويمتد الغيظ والكمد إلى وأنا جالسة في بيتي في القاهرة، يزيد منه القيظ في يونيو والاحساس بالعجز في مواجهّة السلاح الأمريكي والإسرائيلي النووي، كيف تحولت دولة إسرائيل إلى ترسانة نووية، وكيف تحولت بلادنا إلى شعوب

يائسة تعاني الفقر والبطالة، لا تتغذي إلا بمبكرات الصوت.
تثقل الخطب السياسية والدينية؟

اليست هي سياسة الحكومة المتتالية في بلادنا تحت
الرعاية الأمريكية؟! وأين هي المعارضة أو الأذنان
الأخرى غير الحكومية؟ هل عادت إلى بطن الحكومة كما
خرجت منها منذ ربع قرن؟ وهل يمكن للغازات المسيلة
للمدح أن تقضي على الثورات الشعبية؟!

تطالعني الأنباء في الصحف وأنا أكتب هذه الكلمات،
أقاوم الحزن كلما تطلعت إلى وجوه الشباب والشابات في
بلادنا، آلاف العقول المعطلة بلا عمل، بلا فكر ولا إبداع
ولا أمل، إلا الهجرة إلى بلاد غنية بالنفط أو الهامبيرجر،
آلاف الرؤوس المحجبة والعقول، والعيون المتطلعة إلى بارقة
أمل دون جدوي، وأدرك الصلة الوثيقة بين الحجاب الديني
والسياسي، بين الختان العقلي والجسدي، وبين القوي المحلي
والدولية، وبين الاستعمار القديم والجديد وتلك الكلمة المتداولة
حديثاً "العولمة"، وكم من كلمات جديد للتغطية على الحقيقة
المؤلمة، كم من كلمات غامضة مراوغة مزدوجة المعاني،
توحي بالتقدم نحو الإنسانية العالمية ثم تأخذنا إلى الوراء

لنعاني المزيد من الفقر والقهر تحت نير الفتن والدروب العسكرية والدينية.

تلعب العولمة الحديثة دوراً مزدوجاً، فهي تكسر الحواجز بين البلاد من أجل تسهيل التجارة الحرة في السوق وهي حرية العبيد في الخضوع لأصحاب المال والسلاح والإعلام. حرية الدول الإرهابية النووية في قلب الحقائق، وإخفاء الصراعات حول المال والنفط والأنابيب والتجارة بأجساد النساء والأطفال، تفوقت أرباح التجارة العالمية بالدعاة الجنسية، وزادت عن سبعة ملايين دولار أمريكي سنوياً، حسب تقارير الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٠

(Refugees-UN-HCR-vol.٢ no.١١٩،٢٠٠)

تساوت أرباح الرأسمالية الدولية مع الكتب الدينية والأحذية النسائية مع أرباح بيع أدوات الزينة والكحل والرموش والأعضاء الجنسية الصناعية والأقلام الأمريكية والعقاقير المخدرة.

أصبحت أجساد البنات الصغيرات مثل السمك أو اللحم المقلب في سوق العولمة الرأسمالية. تقوم الدول العظمى والشركات الكبرى عابرة القارات بدور "القواد" في الماضي

القريب، وتشحن البنات الفقيرات من أجل الخدمة في البيوت أو الإمتاع الجنسي للذكور الكهول الاثرياء، الذين ينفقون أموالهم في شراء حبوب الفياجرا أو غيرها. ارتفعت أرباح العولمة الرأسمالية من تجارة السلاح وحبوب الفياجرا على حد سواء. ذلك أن الرجال يعانون من العولمة الرأسمالية مثل النساء. وأن اختلف شكل أو درجة المعاناة، ويمرض الرجال بالقلق لفقدان الانتصاب الجنسي، بمثل ما تمرض النساء من انقطاع الطمث، هذا فيما يخص رجال ونساء الطبقات الوسطى والعليا أما الرجال والنساء من الطبقات الدنيا فلا شئ يشغلها إلا البحث عن عمل يسد الرمق.

ويلعب الإعلام العالمي دوره في إخفاء الحقيقة، وتحويل الصراعات حول ماديّات الحياة إلى صراعات روحانية بين الأديان أو بين الحضارات، يروج لها المفكرون والصحفيون من اتباع الرأسمالية المحلية والدولية، وكيف يمكن لجماهير القراء في مختلف البلاد أن يخترقوا هذه العبارات المترجمة من الكذب والالتواء، وهذه الكلمات المراوغة غير المدددة المعنوية، مثل إعلاان الرئيس الأمريكي "بوش" عن إنشاء دولة فلسطينية دون تحديد متى

وأين تكون هذه الدولة، وكأنما هي مجرد قصدير يبيد في الهواء، أو في جنة الخلد، هذا الخداع المزمّن منذ نشوء العبودية لإقناع المقهورين والمقهورات بالتعويض عن آلامهم فيما بعد الموت.

إنه الأمل الكاذب أو الوهم، ويختلف عن الأمل الحقيقي الذي ينبع من العقل والوعي، وإبداع الأفكار والوسائل لمقاومة الاستغلال والخداع والقهر.

وتؤدي "العولمة" كما أدت "التتمية" إلى مزيد من الفقر للفقراء. ومزيد من القهر للنساء، وادي ما سمي "بالاصد ملاح الاقتصادي" إلى النتيجة نفسها، وتصبح النساء الفقيرات في أي بلد هن الضحايا وكبوش الفداء أو "الصيد السهل" في أية أزمة عسكرية أو اقتصادية، وهن لن يندس في صدور النساء المقتولات تحت اسم الشرف والأخلاق أو الدين في أفغانستان وإيران والأردن والجزائر والسودان ومصر وغيرها؟ وتتعدد أسباب القتل للنساء في أوقات الحرب أو السلم، وقد تقتل المرأة نفسها لمجرد الخلاص من الألم أو الهوان في ظل زوج طاغ أو احتلال أجنبي.

وقد حل الإرهاب الإسلامي محل الإرهاب الشيوعي في عصر العولمة أو الاستعمار الجديد ، واصبح السلاح الديني اشد فتكاً بالمقهورين والمقهورات من السلاح العسكري، وأقل تكلفة، يكفي طبع وتوزيع الكتب الدينية مع إعادة تفسيرها بما يخدم مصالح النظام الطبقي الأبوي الممتد منذ العبودية إلى يومنا هذا تحت أثواب وألوان جديدة.

وأصبحت التيارات الدينية الإسلامية أو المسماة بحياة أو اليهودية أو الهندوكية أو غيرها، والتي عرفت باسم "التيارات الأصولية" هي الوجه الآخر للدين أو الثقة في العولمة الاقتصادية الرأسمالية.

أصبح تحجيب النساء تحت اسم الدين أو الأخلاق هو الوجه الآخر لتعرية أجسادهن تحت اسم التجارة في السوق الرأسمالية الحرة.

ودخلت العولمة شركات جديدة لبيع المواليد في السوق التبني الدولية، وضحاياها هم الأطفال الفقراء والنساء من مختلف الطبقات الفقيرة أو الوسطي، وكم من امرأة بلا أطفال دفعت لهؤلاء التجار مقابل الحصول على طفل أو طفلة وكم من امرأة فقيرة مثقلة بالحمل والولادة وكثرة الأطفال باعت

من أطفالها لهؤلاء التجار مقابل الحصول على الطعام أو المأوى، وفي ظل النظام الطبقي الأبوي تصبح عبداً مائتق يلاً على النساء الفقيرات، وحلماً بعيد المنال للنساء العاقرات وكلاهما نوع من القهر والإذلال.

إنها انواع من التجارة الجديدة في السوق الرأسمالية القائمة على الربح؛ والتي يسمونها السوق الحرة، وهي حرية العبيد في نظام أطفالهم من أجل سد الرمق، هي حرية الأمهات المكومات في البكاء والولولة على ضياع أطفالهن أو تحطيم بيوتهن، وقد أصبح "الفقر مؤنثاً" حسب تقارير الأمم المتحدة، وتدفع النساء في العالم ثمن الفشل في المشروع الرابع الحديثة أو ما تسمى "التنمية"، وتدفع النساء عبء الديون الخارجية والداخلية الناتجة عن سياسات البنك الدولي وصندوق النقد ومنظمة التجارة العالمية وغيرها، لهذا السبب تزايدت أعداد النساء والمنظمات النسائية المشركة في المظاهرات العالمية ضد العولمة؟

وكم شهدنا من هذه المظاهرات الجديدة التي شملت النساء والرجال والشباب والأطفال من مختلف البلاد، أشهرها المظاهرة الشعبية في مدينة سياتل في نهاية عام

١٩٩٩، ومن بعدها لم تكف هذه المظاهرات في عواصم العالم ضد المؤسسات الاقتصادية للرأسمالية الدولية. وقد اشتركت في بعض هذه المظاهرات خلال الشهر الماضي، منها مظاهرة بورتري أليجيري في فبراير ٢٠٠٢، ومظاهرة برشلونة في مارس ٢٠٠٢ ومظاهرة واشنطن في إبريل ٢٠٠٢، حيث التحمت المظاهرة ضد العولمة مع المظاهرة المؤيدة لحق الشعوب الفلسطينية، ولذلك في مظاهرة لندن في مايو ٢٠٠٢ وغيرها من المظاهرات التي تابعت أحداثها في الصحف، مما يؤكد أن الشعوب المقهورة قادرة دائماً على الثورة والمقاومة، وأن الأمل النابع من هذه المقاومة والحركة لا يمكن أن ينطفئ وأن الانتصار على الظلم والقهر سوف يتحقق للشعوب المناضلة من النساء والرجال والشباب والأطفال.

إن الأمل "قوة" تنتشل البشر من اليأس أو الحزن الناتج عن عدم الفعل، هذا الأمل هو الشعلة الجديدة التي يحملها الآلاف من النساء والرجال في المظاهرات العالمية والمحلية، وفي التنظيمات السياسية الجديدة التي تلغي

الفوارق بين البشر، وتكسر حواجز اللغة والدين والجنس والجنسية والعمر والعرق واللون والمهنة وغيرها، هذه الفوارق المصنوعة بين الناس من أجل تقسيمهم حتى يسد كل التحكم فيهم، حسب المبدأ الاستعماري المعروف: "فرق تسد".

هذا الأمل الجديد هو العمل السياسي المنظم داخل كل بلد، وهذا الوعي المتزايد بضرورة التوحيد بين الشعوب في مواجهة الحكومات الطاغية في الغرب والشرق والجنوب والجنوب، والكشف الدائم عن الترابط بينهم، إنها حركة شعبية محلية وعالمية في آن واحد تتبئ بعالم جديد يتبدى في الأفق.

من وحي صف ٥ يونيو ٢٠٠١

(الذكرى الرابعة والثلاثين للمهزينة)

توقفت عيناى على صورتها المنشورة
السيدة الرقيقة ذات العقل والجمال والفضيلة
ترتدى التيجان الثلاثة فوق شعرها المصد فوف بعناية
فائقة

والمكياج المتقن إلى حد الشفافية
جالسة فى وقار مضمومة الركبتين فى الصف الأول
بين أصحاب السمو أمراء النفط ورجال الأعمال
والعولمة

وهى المرأة الوحيدة بينهم
تحمل لقب الأميرة والعبقريّة الفريدة
الحاصلة على كل الجوائز فى الشعر والأدب والعلم
ورثت عن أبيها أو زوجها رصيدها فى البنك
تتنقل بطائرتها الخاصة ما بين الخليج والمحيط
ليس لديها عمل داخل البيت أو خارجه

إلا الاستهلاك والصرف على أدوات الزينة المستوردة
والكل واليشمك أو الحجاب الشفاف لإثبات الهوية
والخصوصية الثقافية واحترام التراث والقيم
وكل هذا جائز ومشروع
طالما العقل العربي مقموع

ثم قلبت الصفحة إلى صفحة أخرى في الجريدة
توقفت عيناى على صورة امرأة فى صفحة الحوادث
محكوم على ها بالكفر والفسق والرديلة
تحمل الاحكام الثلاثة فوق رأسها ثقيلة
أثقل من براميل النفط والهطيفة الأنثوية الأولى
واقفة وراء التخشبية
بين أصحاب السوابق وجرائم الرأي
والشباب العاطلين بلا عمل ولا أمل
تنتقل من سجن إلى سجن مكتوفة اليدين مكتومة
الصوت

يتبارى الرجال فى قذفها بالحجارة
وأصحاب الأقلام المدفوعة الأجر

في الصحف الصفراء والخضراء والزرقاء والحمراء
يأكلون لحمها أو يشاركون في الصمت
ثم يهرولون إلى حيث السلطة تكون
يجلسون في الصفوف الأولى يبرشون
وبالقضايا الوطنية يجعجون
أو قضايا أخرى في الصين واليابان
والدماء أمام عيونهم تسيل
في الشوارع والأزقة والبيوت المهدومة
شباب ونساء وأطفال بلا مأوى يموتون
وهم عن الجعجة لا يكفون
ضد كل من خالفهم الرأي

وفي الصفحة الأخيرة كان الإعلـان عن الغدول
الأمريكي الجديد منعاً لسقوط الشعر، والحجاب المسـتورد
الأنيق درءاً للفتنة، ثم الإعلان عن تأسيس المؤسسة الكبرى
للفكر العربي الأصيل برأسمال عشرين مليون دولار.

أمي المثالية

لماذا غمرني هذا الهدوء الغريب، كالشعور الذي يسبق فقدان الوعي، عند تلقي ضربة مفاجئة على الرأس ، اطفئ النور واتمدد فوق السرير. أغمض عيني وأروح فيما يشد به الغيبوبة. كم مرة في حياتي تخيلت هذه اللحظة حين يصدح الوهم حقيقة مادية احسها في جسدي وليس فكرة مجردة يطردها عقلي كأنما لن تحدث أبداً.

بالأمس احتفلت وحدي بعيد ميلادي الخمسين، الرقم يرن في اذني غريباً! خمسين؟! لا يصح للمرأة أن تبلغ الخمسين دون أن تكون جدة، تزوجت وأنجبت أولاداً واحفاداً، وذهبت إلى الحج لتكفر عن ذنوبها وعادت تحمل لقب " الحجة".

وأنا لم أتزوج ولم أنجب ولم أذهب إلى الحج، وإن ناداني احد في الشارع " يا حجة" اصحح الخطأ بصوت غاضب" انا مش حاجة" وحين يناديني احد في النادي الرياضي ويقول"يا مدام" أصحح الخطأ بصوت غاضب أيضاً وأقول" أنا مش مدام". وقد يسألني احد بالصفقة التي يخاطبون بها النساء في

سن الخمسين، "وماذا تكونين يا مدام؟" وأقول بغض ب: أنا
أستاذة محامية!

كل شيء في حياتي يبدو غريباً لأنني امرأة لم يشغل
حياتها رجل. لم يشغلها الجنس ولا الشهوة ولا الزواج. امرأة
عفيفة طاهرة. بلغت الخمسين دون أن يترهل جسدها. دون
أن تظهر التجاعيد على وجهها وبطنها المشدود. خطوتها
فوق الأرض سريعة نشيطة. عيناها مملوءتان بالبريق
والسعادة. امرأة بلغت الخمسين تبدو شابة في الثلاثين أو حتي
العشرين. لم يكسر قلبها رجل. تحاول من خلال الحمامة أن
تحقق العدل. كان لها مكتب في شارع صغير متفرع من
ميدان التحرير. تلجأ إليها النساء المكلمات والمضروبوات
والمهجورات والمطلقات والمخدوعات والباحثات عن العدالة.
كانت العدالة عمياء بلا عيون مثل كائن يضرب في الظلام.

كنت طفلة في السادسة من عمري حين تزوج أبي امرأة
أخري دون أن تعرف أمي، طلب مني ألا أقول الحقيقة.
عودتني أمي على الصدق. قلت لها. أعطاني أبي علاقة
ساخنة وطلق أمي عقاباً لي. أصبحت أعيش معها بلا أهل

ولا معاش. كانت أمي من أجل أبي قد تركت أهلها وعملها. فقدت وظيفتها بالشهادة العليا ولم تستطع العودة إليه ما بعد الطلاق. اشتغلت أمي عاملة نظافة. لم يعد لحملة الشهادات العليا قيمة.

أصبحوا من عمال النظافة وهو مجال غير نظيف، لكن أمي لم يكن يهمها إلا أن تعيش ابنتها ما حياة نظيفة، وإن توسخت هي، لا شيء يبقى من الوسخ بعد الغسيل.

تقدم لأمي رجال يطلبون الزواج منها. رفضتهم دون أن يطرف لها جفن. كان شرط الزواج أن تتخلي عني. لا يطيق الرجل أن يشاركه أحد قلب زوجته وإن كانت فلذة كبدها. أدخلتني أمي المدرسة والجامعة. عشنا في حي نظيف تسكنه العائلات حيث يكون الأب هو المسئول عن الإنفاق. تكذب أمي على الناس وتقول أن أبي ينفق على ذمها، أنه رجل مستقيم لم يطلقها ولم يتزوج على هام دون أن تعرف، وتقول أمي للناس أنها موظفة في الحكومة، تتقاضى راتباً كل شهر مثل الموظفين. وكانت أمي موظفة فعلاً لكن تحت كادر العمال الأدنى. تشتغل ضد عفا الساعات التي يشغلها

الموظفون من الكادر المتوسط، وتحصل على نصف ما يحصلون على ٥.

في الليل تعود أمي إلى ابنت مهوكة القوي، وتخرج عند الفجر وأنا نائمة في الفراش ، تجهز الطعام فوق المائدة، اللبن الحليب الدافئ في الصباح مع العسل النحل وفطيرة ساخنة في الفرن. اقضمها بأسناني وأبكي كأنما أقضم على جسد أمي المنهوك ، لا أعرف كيف أرد لها الجميل، وهي لا تطلب مني أي رد، تفرح بنجاحي كل سنة كأنه نجاحها، وحين تقدم أحد الاساتذة ليتزوجني اشرق وجهها، قالت تزوجي يا ابنتي واسعدي في حياتك. قلت ، كيف أتزوج يا أمي وأتركت أنت التي رفضت الزواج وعشت من أجلي ، كيف أتركك يا أمي؟ من يركاك في الليل إن مرضت؟ كم سهرت إلى جوارتي وأنا مريضة؟ كيف أتركك وحدك وأعيش مع رجل؟ قالت أمي ، ستعيشين احلب يا ابنتي والزواج ويكون لك أسرة، وأذا سوف أوت يوماً ما وتصبحين وحدك وقلت يا أمي أنت شابة في الأربعين وسوف نعيش معاً حتي يأتي رجل غير أداني ويقبل أن تشاركينا الحياة، قالت أمي، يا ابنتي لا يقبل الرجال الاساتذة أن يعيشوا الحياة مع الزوجة وامها ، فتزوجي يا

ابنتي ولا تفكري في، قلت يا أمي كيف لا افكر فيك وأنت لم
يشغلك في حياتك إلا انا؟ أين العدل واين المنطق يا أمي؟
قالت يا ابنتي إن الحياة غير منطقية وغير عادلة وإلا ما فعل
أبوك ما فعل، وليس هو الرجل الوحيد الذي يفعل ذلك
كثيرون من الرجال يا ابنتي يفعلون ذلك و قلت إنه القانون
غير العادل يا أمي وليس الحياة، لهذا سابقي معك وأعيش
من أجلك كما عشت من أجلي ، قالت أمي ، يا ابنتي على
الأم أن تعطي حياتها لأولادها وبناتها، وليس على هي هم أن
يعطوا حياتهم للأم، قلت يا أمي هذا ظلم لا اقبل ، لقد امنت
بالعدل الذي هو الله ،ولا يمكن ان اتخلي عنك من اجل رجل.

كان ذلك وأنا طالبة بكلية الحقوق،وتق دم لي أسد مائدة
آخرون يرغبون في الزواج، لكن ما أن أذكر أمي حتي
يتلاشون. أدركت أن الحب وهم والزواج وهم والاسرة وهم،
ولا شيء حقيقي إلا انانية الرجل، عرفت هذه الحقيقة وأنا في
السادسة من العمر حين تركني أبي مع أمي وتزوج ام رأة
أخري،فتحت عيني في الصباح فلم أجد أبي، اختفي من
حياتنا كما يختفي بالوهم. أدركت في طفولتي أن كل ما يتعلق
بالرجال مصنوع من ال وهم ، ال زواج والحب والاسرة

والأبوة، وكل شئ من هذه الأشياء ليس إلا خيالاً يتبدد في لحظة خاطفة وتجد المرأة نفسها وحيدة ولا شئ يضمن لها الحياة النظيفة إلا عمل غير نظيف.

جاءت أمي ذات ليلة منهوكة القوي بللها العرق والدمع. تم الاستغناء عنها مع عدد من عاملات النظافة. زاد الإنفاق الحكومي على الحفلات وتعليق الزينات في اعياد النصارى وسفر الكادر الأعلى إلى الخارج. ولم تعد الميزانية تكفي أجور الكادر الأدنى.

لم اكن تخرجت بعد من كلية الحق وق، واصلت بحنا بلا معاش، وأسمع أمي تبكي وأنا نائمة، وفي ليلة تدول بكأوهما إلى صوت غريب أشبه بحيوان جريح، ونهضت من فراشي حافية امشي على أطراف اصابعي، رايتها في الصالة العارية مستلقية تحت جسد غليظ يطاء جسدها المنهوك بعنف غريب كأنما هي ممسحة بلاط وفي الصباح ناولتني الورقة ذات العشرة جنيها لادفع القسط الأخير من مصاريف الكلية.

كانت ورقة مهلهلة غير نظيفة تفوح منها رائحة عرق وتعب وبصمات دم قديم. أخفيتها داخل ورقة نظيفة من كشول المحاضرات. لم ألمسها بيدي، كأنما في لحظة

التلامس ستتقل إلى عدوي مرض جلدي ، خبأتها داخل
حقيبتتي الجلدية بين الكشاكيل ثم تخلصت منها في مكتب
شئون الطلبة. ألقيت بها في يد الموظف المسد ثول وسددت
القسط الأخير ، احس بخزي غريب يغمرني ، كالشعور الذي
يسبق فقدان الوعي بعد ضربة فوق الرأس ، وانشدي بين
زميلاتي في فناء الكلية منكسة صامتة لا يصدر عني صوت ،
اقول لنفسي ، سأطوي السر في طيات اعماقي العميقة بحيث
لا يصل إلى إنس ولا جن . كم مرة فكرت بلحظة كهذه منذ
سمعت بكاء أمي في الليل ، كنت سأواجه اللحظة حين تأتي ،
ها هي تأخذني على حين غرة ، كنت واثقة أن أمي شريفة
اشرف امرأة في العامل . منذ تركنا أبي لم اشعر انها شريفة
كما اشعر الان اكتم الصوت في اعماقي الذي يريد أن يهتف
ويقول أمي اشرف نساء العالمين مثل العذراء مريم ، أضغط
بيدي على فمي حتي لا يخرج صوتي ، زميلاتي مشغولات
عني بحكايات عن الحب والرجل والزواج ، تشد مع عيونهن
بريق الفرح والأمل ، اكاد أقول لهن إنه الوهم ولا شيء إلا
الوهم لكن صوتي محبوس ، انسحب من بينهم وأختفي في
دورة المياه ، أعود إلى البيت مبكراً والوذ بالصمت ، اعرف

اني سأستيقظ في الليل كما أفعل حين أخفي شيئاً يدق قلبه ي
خوفاً من تلك اللحظة ، أنام نـوم متقطعاً مليئاً بالاحلام
المخيفة. استيقظ. أنظر إلى الساعة فوق معصمي، منتصف
الليل إلا خمس دقائق.

أتمدد على ظهري واغمض عيني. اسمع صوت بوق
سيارة في اشراع وفرملة شديدة، واصطدم شيء؟! أنتفض من
الفراش. أتكون هي أمي؟ أمشي حافية إلى غرفتها. سد ريرها
يخلو منها كأنما راحت ولن تعد. قلبي يغوص في أعماقي.
السؤال الذي أخفيته يطفو إلى سطح الوعي. إذا كانت أمي
فماذا أفعل؟ أسمع دقائق قلبي. امنع نفسي من التفكير. السؤال
يلح على . احاول التنفس العميق المنظم. اعد على أصابعي
واحد اثنين ثلاثة. كأنما سيحدث شيء قبل أن اصل إلى رقم
عشرة. اسقط في غيبوبة النوم. اسمع الصوت الغريب ،
أنيني الحيوان الجريح. أنهض من الفراش حافية امشي على
أطراف أصابعي. رأيته في الصالة العراية ، إنه أبي بجسده
الضخم، عنقه الغليظ من الخلف، شعره الاسود المجعد، راقد
فوق فتاة ليست أمي ، يطأ جسدها المنهوك بعد فغريب
كأنما هي ممسحة بلاط. امسكت السكين من المطبخ، رفعت هـ

إلى أعلى ما استطعت وهويت به على عنق أبي من الخلف،
أصحوا من النوم مبلة بالعرق. يداي غير ملوثتين بالدم. كم
مرة رايت هذا الحلم منذ طفولتي. رايتته المرة وراء الم
مرة
مائة مرة ألف مرة منذ تركنا أبي.

اختفي تحت الاغطية أرتجف كأنما بالحمي. اسقط في
عيوبة النوم ثم أصحو الساعة الواحدة صباحاً. أتذكر في يماً
رايتته الشهر الماضي. كان الابن يعيش مع أمه. أبوه طلق
أمه ليتزوج امرأة أخرى. اشتغلت أمه عاملة نظافة لتدفع له
مصاريف المدرسة، وطعامه وملابسه وحذاءه الجديد بدل
القديم المهترئ. رفضت الزواج وعاشت من أجله. تعرضت
للهوان لتضمن له الكرامة. تلاشي كل ذلك كأن لم يكن.
امسك السكين وقتلها حين رآها مع رجل.

اختفي تحت الاغطية أرتجف كأنما بالحمي. أغمد
عيني وأمنع نفسي من التفكير. أعد على أصدابي واحد
اثنين ثلاثة. كأنما سيحدث شيء قبل أن أصدل إلى رقبتي
عشرة. كأنما سيتفكك عقلي إلى ذرات مبعثرة فوق الوسمادة.

كأنما السكين في يد الأبن يقطع جسدي أنا. بقع دم أراها في الفراش. هل اقترفت الجريمة وأنا نائمة؟

أسناني تصطك ودقات قلبي تتصاعد. لا أعرف الحظ من الحقيقة. لا أعرف هل أنا القاتلة أم المقتولة. انشد ج ب لا صوت في صمت الليل. لا أريد العطف من احد أو الاشفاق. لا أريد الإدانة ولا أريد البراءة. ولا الاحترام ولا الاحتقار، لا احد يستطيع مساعدتي في محنتي. لا احد يقتسم الألم في جسدي.

أسمع صوت المفتاح يدور بالباب. أرهف السمع لوقع القدمين الحافيتين على بلاط الصالة. هل خلعت أمي حذاءها لتذوب في الصمت؟ أخفي راسي تحت الغطاء أنا الآن في الوضع الذي كان فيه الأبن. أسمع الأنين المكتوم في صدر الحيوان الجريح، واصطدم الجسدين بالارض. لا أكاد أميز صوت الرجل من صوت أمي. ألغي عقلي المصنوع بكلام الناس. أحاول الغاء اللحظة الراهنة واستبدالها بلحظة أخرى زال عنها العار. كلمة العار تخرق أذني كالسيخ المحمي في النار.

الألم! الألم يسري في عقلي ، يفككه يعيد تفكيكه، يصبح
عقلاً آخر، أكثر صفاء، عقلاً مولوداً نظيفاً، أغفور عند الفجر
ثم استيقظ. ضوء الشمس يبدد الظلمة. اسد مع صوت أمي
يناديني لأشرب حليب الصبح. اليوم أول الربيع، وعيد الأم، أنا
الآن عند لحظة الحقيقة، اقوم إلى الحمام. أنظر في المرآة.
تطالعني العينان المليئتان بضوء الشمس

هنالك رجل

- هنالك رجل تتهافت على ه النساء.
- يكتب كل يوم في الجريدة الكبرى عمود.
- يحمل لقب الكاتب الكبير أو المفكر أو خلفه.
- تظهر صورته داخل البرواز يبتسم أو يكشر بالوجه أو بالبروفيل.
- يبلغ الهاوية بعد الهاوية حين يعلو.
- يقتل فينا الضحية ويكافئ الجاني.
- يمشي وراء الأباطرة مثل النعامة.
- أو الحمل الوديع.
- يحفر في التاريخ اسمه واسم ابيه وجده.
- قال لي يوماً احبك.
- قلت له اظهر ما عندك.
- ولم يكن عند شيء
- إلا ذلك الذي بين الفخذين.

القاهرة ١٩٧٥

نصف رجل

- صديقتي زوجة لرجل له زوجان.
- يقسم حياته بينهما بالعدل والقسطاس.
- نصف لصديقتي والنصف الآخر للمرأة الأخرى.
- وجاءني رجل متزوج وقال لي أحبك.
- قلت ماذا تريد؟
- قال زوجة شرعية على سنة الله والرسول.
- قلت أنا امرأة كاملة ولا اقبل نصف رجل.
- امتنع لونه واتهمني بالكفر.
- صوب مسدسه نحو رأسي قائلاً
- الموت لمن لا تعرف الله.
- صوبت مسدسي نحو رأسه وقلت
- الموت لأنصاف الرجال.
- هكذا تراجع وعاد إلى زوجته.

القاهرة ١٩٦٣

الذين رأوا الله

- قال احد الحكام إنه راي الله.
- رد على ه احد منافسية قائلاً:
- أنا رأيت الله قبل أن تراه انت.
- رد اخر ينافسهم الحكم:
- بل انا الذي رأيته قبلكم.
- أمسكوا بتلابيب بعضهم البعض.
- كل منهم يصرخ أنا رأيت الله قبل هذا المدعي.
- قلت كلهم يدعون رؤية الله وما رآه احد.
- قالوا ألم ير الله احد؟
- قلت بل أنا رأيته في طفولتي وأمي رأت ه في شد بابها
- وجدتي رآته في كهولتها.
- قالوا كلامك كفر فالله لا يظهر للنساء.

القاهرة ١٩٧٧

مكافأة الجاني وعقاب الضحية مرتين

- كان يشتهي فتاة صعبة المنال.
- لها عقل في رأسها تعتز به أكثر
- من أي شيء في جسدها.
- تعقبها حين خرجت من باب المدرسة
- وخطفها مع ثلاثة آخرين.
- في منزل مهجور اغتصبوها واحد وراء الآخر.
- ثم ألقوها في الطريق.
- أصدرت المحكمة قراراً بإعدامهم الثلاثة.
- إلا أن واحداً منهم تقدم للزواج منها.
- هكذا عوقبت الضحية مرتين وكوفئ الجاني.
- وأطلق سراح الثلاثة دون كفالة.
- حسب المادة ٢٩١ من القانون الحالي.

القاهرة ١٩٩٨

المحرم

- كان مثل الأزواج سريع الغضب.
- يقذف في وجه زوجته يمين الطلاق بلا سبب.
- ألو لأن رئيسه في العمل شخط فيه.
- يصرخ بأعلي صوته طالق طالق طالق.
- تصبح زوجته طالقاً بحسب القانون.
- ثم يعيدها إليه حين يروق مزاجه.
- أو حين يبتسم الرئيس في وجهه.
- وفي مرة اراد اعاتتها فوقف المشرع ضده.
- لا يا اخ لا يمكن إعادتها اليك دون محرم عقاباً لك على سرعة الغضب.
- سألت المرأة لماذا أنام مع رجل آخر لا أريده؟
- هذا عقاب لي وليس لزوجي.
- فأنا التي ستنام معه وليس زوجي.
- إلا أن المشرع لم يكن يسمع ما تقوله المرأة.

القاهرة ١٩٧٦

امراة مختلفة

- أنا امراة كاملة الأنوثة.
- لا أخضع لقانون الطاعة.
- لا انتف حاجبي.
- لا اتكحل ولا اتأرجح.
- فوق كعبي.
- كلمتي شرف لا أخون العهد.
- إستقبل أول شعاع في الصباح.
- أشرب فنجان قهوتي.
- وأكتب قصيدتي.
- ثم أمشي في المدينة قبل غروب الشمس.
- أحمل شمعتي.
- أبحث عن شخص واحد يصون الوعد.
- يأتي في مواعده ولا يتأخر.
- ولا يتخلف مثل بقية الناس.
- لا يقف مكتوف اليدين.
- ولا يطأطئ الراس.
- أمام الرئيس.

لصوص الشرف

- لصوص الشرف رجال لا حديث لهم
- إلا عن الشرف.
- يمارسون الجنس داخل الزواج وخارجه.
- ويدعون الشرف.
- يخونون زوجاتهم مع زوجات أخرى.
- وعشيقات وجواري سوداوات وخادمات.
- وأجنبيات بيضاوات وسكرتيرات.
- ثم يدعون الشرف والولاء
- لله والوطن.
- ولا احد يعاقبهم
- لأن القانون معهم
- والشرع والدستور.

القاهرة ١٩٩٠

تحت عيون الجميع

- كان لي طفلة اسمها شجاعة.
- تركتها مريضة في بغداد.
- ترتجف في برد الشتاء.
- بلا غذاء ولا دواء ولا غطاء.
- فتحت الصحف بالأمس.
- رأيت الأمريكي المريض بالجنس.
- يتهمها بعدم الطاعة.
- لقانون الشرعية الدولية وقرارات الامم المتحدة.
- ومجلس الامن ولجنة التفتيش.
- ضربها بصاروخ كروز
- تحت عيون الجميع.
- يتابعون المشهد بقلق.
- حكamna العرب.
- يتقابلون في السر مع القوي العظمي.
- ويأخذون المعونات.
- كالشحاذين.

- وأنا مربوطة في سريري بالقيود.
- منزوعة السلاح مكتومة الصوت.
- وطفتي شجاعة تموت.
- تحت عيون الجميع.

القاهرة ١٩٩١

حكام العرب

- أشعر بالخزي حين أراهم جالسين مؤدبين.
- أمام رؤسائهم خارج الوطن.
- كالبنات العذراوات يبتسمون في حياء وخفر.
- يسمعون الكلام يطيعون لا يرفعون الصوت
- إن تكلموا.
- لا يرفعون الساق إن جلسوا.
- وإن وقفوا يضعون أيديهم معقودة فوق قلوبهم.
- وإن عادوا إلى الوطن تتمروا.
- يرفعون عقيرتهم من خلال الأبواب ومكبرات الصوت.
- يجلسون متغترسين واضعين الساق فوق الساق.
- يكاد كعب حذائهم أن يخرق عين الجالس.
- عن يمينهم أو عنيسارهم.
- يحمل الواحد منهم لقب خادم الشعب.
- وهو ليس إلا
- جلاد الشعب.

حكام العرب مرة أخرى

- رجال في أبهى الثياب لا يجمعهم احد
- إلا الرئيس الأمريكي.
- يحرضهم بعضهم على بعض.
- يدخلون الحرب معه ضد بعضهم البعض.
- وضد شعوبهم.
- تحت اسم الشرعية الدولية أو الديموقراطية.
- يدفع لهم لإسقاط بعضهم البعض.
- يورطهم في خطته تحت وهم المعونة.
- يتنافسون لإرضائه وتجويع بلادهم.
- وترويع رجالهم ونسائهم.
- يندمون بعد فوات الأوان.
- يعقدون اجتماعاً تحت اسم
- القمة العربية.
- ثم يذهبون من حيث أتوا.
- وتكرر القصة.

القاهرة ١٩٩٩

قالوا لنا إنك عورة

- امنا التي ولدتينا وأطعمتينا ودفعت حياتك
- بال مقابل كي نعيش.
- كوني رحيمة بنا لأننا تخلينا عنك.
- لأننا ضعفنا أمام سلطة أبوية لا ترحم.
- وسلطة الدولة الأكثر قسوة.
- ورجال العائلة الواحد بعد الآخر.
- طمسوا جميعاً اسمك من ذاكرتنا.
- أرادو أن ننساكي إلى الأبد.
- ولا نفخر بك.
- ولا يشرفنا أن نحمل اسمك.
- قالوا لنا أنك عورة.
- يجب أن تختفي عن الأعين.
- وحرمة يجب ألا يكون لها صوت.
- لقد ضاق هذا الكون الواسع بوجودك يا أمنا.
- مع انك اصل الوجود.
- خذينا إلى حضنك الدافئ الحنون.

- إلي أول قطرة دماء وأول قضة خبز.
- إلي كلمتك الأولى عن الحب والعدل.
- بعدها أصبحت الكلمات خذ ما اجر تعتالذ ما الواحد د وراء الآخر.

القاهرة ١٩٨٤

الإثم المعلق في التاريخ

- في شهادة ميلادي كتبت أمي اسمي
- حواء.
- قال لأن كل شيء حي يخرج من حواء،
- لأن الفضيلة والشرف والخير يخرج من حواء.
- لأن حواء هي الأولى التي ذقت طعم المعرفة.
- ولأن زوجها آدم تخلف عنها.
- ولم يذق من المعرفة شيئاً إلا بعدها.
- وبعد أن ألحت على ه وشجعته.
- لولا حواء ما جاءت الإنسانية.
- وما جاءت المعرفة.
- لماذا إذن تلقي آدم من ربة كلمات فتاب على ه.
- بالمفرد وليس بالمتلي ليشمل حواء معه؟!

القاهرة ١٩٩١

من وحي قرار شيخ الأزهر

”عمليات إعادة العذرية شرعية“

لن أعيد بكارتي:

- في طفولتي فقدت بكارتي.
- في الحقيقة وفي الحلم فقدتها.
- ومن ذاكرتي خلعتها.
- بدأت أبتسم لإشراقة الشمس كل صباح.
- أكتب قصيدتي وأنشرها على الناس.
- أعزف لحني كما تعزف الطيور ألقانها.
- إلا أنهم جاءوا وسألوا:
- أين بكارتك؟
- قلت فقدتها في الطفولة.
- قالوا سنعيدها إليك بمشرط الجراح.
- قلت لن أعيدها أيها السادة.
- حرية إعادة بكارتكم.

ابنة ايزيس المصرية

- أنا امرأة ولدتني امي وتركتني طفلة.
- تحت سيطرة الدولة.
- وكان لي أب شديد العداء الملك والإنجليز.
- كان له أصدقاء وزملاء شباب يهتفون.
- ضد النظام.
- تعلمت كل كلام ضد النظام.
- أصبح لي سجن بدون نافذة.
- وبين داخله رجل يشبه السجان.
- ولي حلم خطفه النسر.
- ولي عقلي الخاص ونجمة في السماء.
- هي نجمتي.
- وشجرة أعانقها في فناء السجن.
- وتعلمت أن أكسر القاعدة والمألوف.
- وأخرج عن النص والموروث.
- فأنا امرأة من مصر.

جدتي

- كانت لي جدة في طفولتي.
- تحكي لي أول قصص الحب.
- تفتح الباب عند الفجر وتخرج إلى الحقل.
- تستقبل الندي على وجهها المكشوف.
- تزرع وتروي وتعود تحمل المحصول.
- أشم في جلبابها رائحة نوارات القطن.
- وزهر البرتقال والتين والتوت.
- عند الشروق تتصاعد رائحة خبزها.
- وعند الغروب تملأ صحنى بمرق الدجاج.
- أدفن راسي في صدرها وأنام.
- لا أخشي الغزاة ولا أخشي الطغاة.
- وأدوس بقدمي على صورة الملك.
- وأهتف ضد الإنجليز.

القاهرة ١٩٩٢

أمي

- من وضع العداوة بين وبينك؟
- من جعلني أمد بصري إلى السماء
- فلا أراك؟
- وأمد بصري إلى التاريخ
- فلا أجذك؟
- وأمد بصري إلى الدنيا والدين والدولة
- فلا أعثر على اسمك؟
- لماذا يشطبون على اسمك يا أمي؟
- وإن قلت انا ابنتك يغضبون ويقولون:
- أنت ابنة أبيك تحملين اسمه من المهد إلى اللحد.
- وإن طلق أمك فهو ولي أمرك.
- فالمرأة لا ولاية لها.
- وإن حملت لقب الوزير أو الرئيس.

القاهرة ١٩٩٧

عن الذاكرة الجمعية المفقودة

١ - مطلوب تظافر الجهود والنقد أيضاً:

قرأت في الأيام الأخيرة عدداً من المقالات بأقلام كبيرة في صحف الحكومة وغير الحكومة ، تكشف عن الخلل الكبير في العلاقات المصرية الأمريكية ، وحجم خسائر مصر الاقتصادية بسبب هذه العلاقة ، أو ما سميت الصداقة أو العلاقة الخاصة بأمريكا ، ثم الاعتداف في الصحافة الحكومية أخيراً أن ما سميت المعونة الأمريكية لم تكن إلا ستاراً يتسلل تحته الاستعمار الجديد، بأشكاله المختلفة (ومنها العولمة). أخيراً نشرت الأرقام الحقيقية للخسارة الاقتصادية التي تكبدتها مصر خلال ربع قرن الماضي منذ عام ١٩٧٥ وبداية ما سمي بالانفتاح في عهد السادات.

كان معروفاً على المستوى الشعبي المصري ، وعطى مستوى المعارضة السياسية أن هذه العلاقة مع أمريكا سوف تؤدي إلى تدمير الإنتاج المحلي المصري ، المادي الاقتصادي والثقافي والفني على حد سواء، وسوف تغرق

السوق المصرية السلع الأمريكية الباهظة الأثمان والردئية، بل والضارة صحيا، أذكر انني نشرت في احدى صحف المعارضة في صيف عام ١٩٨١ مقالاً أشرت فيه إلى أن التسمم الغذائي للشعب المصري يحدث تحت اسم الأمم المتحدة الغذائية، وأن تسليح إسرائيل يتم تحت اسم معاهدة السلام، إن حمائم السلام التي يخطب عنها السادات تتخفي تحتها الطائرات الحربية والسلاح الأمريكي الجديد الذي يشحن إلى إسرائيل بما في ذلك السلاح النووي وأن الاستبداد والعنف السياسي والديني يتخفي تحت اسم الديمقراطية وتعدد الأحزاب.

نشر هذا المقال في جريدة الشعب التي كانت تصدر عام ١٩٨١ عن حزب العمل الاشتراكي (والتي تغيرت فيها بعد وسيطر علىها التيار الديني المحافظ) أذكر أن هذا المقال ومقالات أخرى في تلك الفترة، ادخلتني سجن السادات في سبتمبر ١٩٨١، وأذكر أن المدعي الاشتراكي حقق معي في هذا المقال باعتباره مقال يضر المصالح العليا للبلاد، وأنني أؤامر لقلب نظام الحكم مع دولة أجنبية هي بلغاريا.

بعد اغتيال السادات بشهرين سقطت هذه التهمة عني
وخرجت من السجن مع اكثر من الالف معارض مصري
سجنوا جميعاً لمجرد كشفهم للخسارة الاقتصادية أو الثقافية
أو العسكرية التي سوف تتكبدها مصر من جراء تلك
العلاقات المصرية الأمريكية.

وقالوا لنا لا داعي لنقد الماضي في عهد
السادات، والمطلوب تضافر الجهود من أجل مصر. وقتل
وقال غيري إن نقد الماضي ضد روري حديث لا تتكرر
الخطاء، وحتى يتصحح المسار، تلافياً للخسارة في
المستقبل، وان هذا النقد للماضي جزءاً لا يتجزأ من العمل
على تضافر الجهود، والوحدة الوطنية مع الجدل والحوار
واحترام الآراء المخالفة للسلطة الحاكمة.

لكن هذا لم يحدث، استمرت الأحوال كما كانت، والتف
حول السلطة الحاكمة هؤلاء الذين أيدوا السادات في كل
خطواته دون نقد، إنه الداء الذي ينخر في النخبة المثقفة في
بلادنا، داء تأييد الحاكم في حياته والخوف منه نقد، وإلا
ضاعت الميزات والمناصب العليا وجوائز الدولة.

التقيت بالأمس بأحد القيادات الفكرية في بلادنا اليوم،
وكان من أكبر المؤيدين للملك فاروق ، ثم أصبح من أكبر ر
المؤيدين لجمال عبد الناصر. ثم السادات ، ثم مبرك، ولان
الناس في مصر تفقد الذاكرة فإن هذا المثقف يحمل لقب
المفكر الكبير.

وأنا مع هؤلاء الذي يدعون إلى التسامح وتضافر القوي
على اختلافها، لكنني لست مع استمرار عمليات النفاق في
كل عهد، وإخفاء الحقائق الهامة في كل عهد حتى يفوت
الوقت وتضيع فرص الإصلاح الحقيقي.

كما أنني ضد تلميع المنافقين في كل عهد، وتهمة يش
هؤلاء الذين يزهدون في المناصب والمزايا والجوائز من
أجل كلمة حق واحدة. وهؤلاء الناس في بلادنا كثيرون إلا
أنهم يتوارون بعيداً عن السلطة والأضواء بحكم الثقة في
النفس والكرامة والتعفف عن المكاسب.

أكثر ما أدهشني في هذه الأيام الأخيرة التي تأزمت فيها
العلاقات المصرية الأمريكية بسبب التعذبات الأمريكية
والإسرائيلي الواضح في مفاوضات كامب ديفيد الثانية. إن
هذا التعنت معروف وواضح منذ أكثر من ثلاثين عاماً. ولم

نكن في حاجة إلى كامب ديفيد أخري لنعرف أن العلاقات
المصرية الاسرائيلية (منذ كامب ديفيد الأولي) لم يكن
نتيجتها إلا الخسارة الفادحة لمصر، ليس في مجال الاقتصاد
فحسب، ولكن أيضاً في السياسة وفي الثقافة وفي
الاعلام، وفي الأمن القومي والتسلح العسكري في الشرق
الأوسط. لقد أصبحت إسرائيل هي القوة النووية العظمى في
المنطقة، إنها تتفاوض معنا من منطلق القوة، ولهذا
الحق على الدوام، وتزيد التنازلات على الدوام، حتي
أصبحت كلمة الوحدة العربية كأنما هي عيب أو عورة لا
يصح النطق بها.

أن حجم الخسارة الاقتصادية أصبح منشوراً في صحف
الحكومة مثل الأهرام، بفضل الأزمة الأخيرة في العلاقات
المصرية الأمريكية، عرف الشعب المصري اليوم أن
المعونة الأمريكية لمصر كانت خدعة لاسد تغلال مصر
اقتصادياً، كانت المعونة لصالح اقتصاد امريكا على حساب
مصر، مثال واحد: أصبح الكعج ز العتج ماري المصري
لصالح امريكاً ٧٥% من التجارة بين البلدين منذ
١٩٧٤، وحققت امريكاً أرباحاً وفائضاً تجارياً بلغ أكثر من

٤٤ مليار دولار ، تكاد تبلغ ضعف المعونة الأمريكية لمصر خلال هذه المدة ذاتها.

وقد صاحب هذا الخلل الاقتصادي الكبير بين البلددين خلل في المجالات الحيوية الأخرى ومنها الأمن القومي في مواجهة إسرائيل. لم توقع إسرائيل على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية على حين وقعت مصر على عدد من هذه المعاهدات (تحت الضغط الأمريكي) منها المعاهدة في ٢٦ فبراير ١٩٨١، والمعاهدة في ١٤ أكتوبر ١٩٩٦، والمعاهدة في ١٠ إبريل ١٩٧٢، وقد سارت عدد من البلاد العربية والأفريقية وراء مصر ووقعت مثل هذه المعاهدات، أصبحت بلادنا العربية والأفريقية محظورة على القوة النووية حتي في الأغراض العلمية والسلمية، أما إسرائيل فقد انطلقت في تطويرها النووي العسكري حتي امتلكت طرازاً جديداً من صواريخ جيركوت تم تحميلها برؤوس نووية أخطر، وإلى جانب البرنامج الإسرائيلي العلني أرو مع أمريكا، أصبح لإسرائيل ترسانة نووية متعددة الأذرع، يمكن لذراع إسرائيل أن يطوي أي بلد في المنطقة تعصي أمرها.

وفي المجال الثقافي والفني هل يمكن لاحد أن يحسب
خسارة مصر منذ بداية العلاقات المصرية الأمريكية عام
١٩٧٤ وحتى اليوم؟

ويتساءل احد النخبة المثقفة في صحيفة حكومية كبيرة
عن سبب تدهور الاقلام المصرية وهتو بالطبع لا يرتبط بين
ركود الثقافة في بلادنا وركود الاقتصاد، وكان أحد المدافعين
منذ ١٩٧٥ عن العلاقات المصرية الأمريكية وعن الانفتاح
الساداتي ، ثم به يسبق الآخرين في الأزمة الأخيرة للتنديد
بالعلاقات المصرية الأمريكية، وكيف غزت الأقلام الرديئة
السوق المصرية، حتي الأقلام المنتجة في مصر أصدت
مثل الأقلام الأمريكية المنحطة القائمة على الجنس والجريمة
والإضحاك والرخيص السطحي القائم على النكت
السوقية، والخالى من أي موضوع اجتماعي مفيد.

بل إن مشكلة تزايد الفقر والبطالة هي النتيجة المنطقية
للسياسة الاقتصادية منذ ١٩٧٤ فقد أصبح الجميع يكتبون
عنها دون إرجاعها لأسبابها الحقيقية، وكأنهم ما تزايد الفقر
والبطالة ظاهرة منفصلة في التاريخ عن أسبابها في الماضي.

كأنما هذا الماضي مقدس ،ولا يجوز لأحد أن يذكره أو ينقده لأنه ينقد شخصية مقدسة عند البعض.السادات م ثلا أو بعض اعوانه الكبار الذي يمتلكون كثيراً من النفوذ حتي اليوم.

لكن النقد ضروري للماضي. لان الحاضر بيني على الماضي،والمستقبل بيني على الحاضر ولا يمكن الفصل بينها الثلاثة. إن النقد لا يعني الانشقاق والدرب اوعدم التضامن من انقاذ بلادنا من الركود الاقتصادي والثقة في والفكري ومن الخضوع للشروط الأمريكية والإسرائيلية المجحفة.

إن الوحدة الوطنية مطلوبة. لكن النقد البناء أيضاً مطلوب. ولا بد أيضاً من كشف المنافقين في كل عهد حتي لا تتكرر الاخطاء وندور في تلك الحلقة المفرغة،ولا تكاد تعرف من المسئول عن هذا الخطأ أو ذاك ويختلك الحابل كما هو حالنا اليوم.

٢- عن تاريخ الفدائيين عام ١٩٥٢:

دهشت حين قرأت مقال سعد زغلول فؤاد في جريدة
الأهرام ١٢ أغسطس ٢٠٠٠ ص ١٠ ، تحت عنوان: سد راج
الدين والكفاح الشعبي المسلح، فهو يسد وقوداً معلوماً
مغلوبة عن العمل الفدائي ضد الإنجليز في التل الكبير ومدن
القنال قبل حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، ولأنني عشت
هذه الفترة وعاصرت كتائب الطلبة الفدائيين في كلية الطب
خلال ١٩٥١ ، ١٩٥٢ ، وانعكست مأساة الفدائيين على حياتي
الشخصية ، إذ إن زوج الأول الدكتور أحمد حلمي ، والذي
كان زميلاً لي في كلية الطب ، قد تطوع في كتائب
الفدائيين ، وسافر إلى الحرب في القنال في تلك الفترة التي
شجعت فيها حكومة الوفد الشباب على الكفاح المسلح ضد
الإنجليز في منطقة القنال ، لقد قتل من الفدائيين في هذه
الحرب أكثر من مائتي فدائي (كما ذكرت التقارير التي نشرت
عام ١٩٨١ ، بعد ثلاثين عاماً من الأحداث) ومن هؤلاء
زميلي في كلية الطب أحمد المنيسي وفدائي آخر اسمه عباس
الأعسر وآخرين .

لقد مات الدكتور أحمد حلمي ليس في الحرب أو أثناء المعارك التي نجا منها بأعجوبة، وإنما مات أحمد حلمي نفسياً (قبل أن يموت جسدياً) بسبب تخلي الحكومة المصرية عن الفدائيين في القنال بعد حريق القاهرة، أصدر بح الفدائيون يواجهون الجيش البريطاني وحدهم، وكان من الممكن سحقهم جميعاً لولا قدرتهم النضالية بأقل الأسلحة، ولولا حماية أهل القنال لهم وتدعيمهم بالمؤن والسلاح.

من هنا ندرك أن مقال سعد زغلول فؤاد في الأهرام لم يقل الحقيقة، لأنه أغفل ما حدث في الواقع، ربما أراد بالمقال أن يرفع فؤاد سراج الدين إلى البطل الوطني العظيم بمناسبة وفاته، وكما هي عادة المصريين من تقديس الموتى، وذكر محاسنهم فقط ولا أحد ينكر أن حكومة الوفد ومنه سراج الدين كان لها مواقف وطنية مهمة في تلك الفترة بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦، ولكن لا يمكن أيضاً أن ننكر تعاون حكومة الوفد مع السراي والإنجليز ضد مصالح الشعب المصري، وتخاذلها بل وضربها العمل الفدائي الذي كان تشجعه، هذا التناقض معروف عند جميع الحكومات، وليس حكومات الوفد فقط.

لكن ما حدث للفدائيين في القنال في شتاء ١٩٥٢ ك ان
خطيراً، ولم يحاول أحد أن يراجع التاريخ بحيث نعرف من
المسؤولين عن مأساة العمل الفدائي واختفاء أسماء المقاتلين
الحقيقيين الذين قتلوا جسدياً أو نفسياً، واندثرت أسماؤهم في
التاريخ. على حين برزت أسماء أخرى أصبحوا هم أبطال
العمل الفدائي. ومنهم وزير الداخلية فؤاد سراج الدين وأسماء
أخرى كبيرة في السلطة شملت أنور السادات ووجيه أباظة
وأيضا بعض ضباط البوليس السياسي الذين أرسلتهم الحكومة
ليكونوا ضمن الفدائيين كعيون للحكومة.

هناك حقائق كثيرة غابت في مقال سعد زغول فؤاد في
الاهرام ، يستمد سعد زغول فؤاد سلطة لأنه صدح في
الاهرام يمكن أن ينشر شيء ويغير في التاريخ كما يشاء دون
أن يرد على ه أحد دن أن يرد على ه أحد فهذه ك حصانة
للصحفي في الاهرام ،وقد رفض المحرر في الاهرام نشر
ثلاث مقالات لي ارد فيها على بعض الكتاب المعينين في
الاهرام ومنهم رئيس التحرير.

المسألة إذن هي القوة وليس الحق ،وهي الاسد تتبدد
بالرأي وليس الديموقراطية، والغريب أيضا أن الصحفي

الأخرى تمتنع عن نشر هذه المقالات تحت اسم عدم الوقوع
في مشاكل مع جريدة كبيرة ولها سلطة ضخمة مثل جريدة
الأهرام، فإين إذن يمكن نشر الآراء المخالفة لهؤلاء
المحصنين داخل السلطة الصحفية في بلادنا.

القاهرة اكتوبر ٢٠٠٠

١- تحت اسم التنمية

نشرت الصحف المصرية الحكومية المعارضة الشرعية هذا الخبر يوم الاربعاء ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٢:

صدر تقرير عن اللجنة النقابية للحقوق والحريات إلى تزايد عدد العمال الذين تم تسريحهم من القطاع العام منذ عام ١٩٩٥ حتي وصل إلى نصف مليون عامل. بالإضافة إلى عمال اقطاع الخاص الذين تم تشريدهم بسبب الاغلاق والإفلاس وهروب رجال الأعمال للخارج.

تم إغلاق مئات المصانع وتصفية مئات الشركات العامة ونسيج ومحال، تزايد عن ٣٠٠ شركة منذ عام ١٩٩٥ تزداد الأزمة الاقتصادية مع ازدياد البطالة بين الاثرياء، والفقراء، وتزايد البطالة والمخدرات بين الشباب والشابات.

أصبحت الصحافة المصرية الحكومية والمعارضة الشرعية مثل الصحافة الأمريكية تكشف عن الفساد اليومي لرجال الأعمال وهروب الاموال وانهيار الشركات تحت اسم الديمقراطية. مجرد كلام على الورق ينفس عن الغضب

الشعبي ويستمر الحال على ما هو على ه بل يزيد الت دهور
والفساد يوماً وراء يوم.

٢- تحت اسم التنمية

- تحت اسم التنمية والإصلاح الاقتصادي
- يزيد الفقر والبطالة والحروب
- وتحجيب النساء والعقول
- وأنا امرأة من الجنوب
- بشرتي سمراء محروقة بالشمس
- لا انتي إلى اللون الصحيح
- ولا الجنس الصحيح
- ولا الجنسية الصحيحة
- أنا من الجنوب حيث تتم الإبادة الجماعية
- لأرواح لا تنتمي إلى البشر
- نساء وأطفال وشباب ورجال
- يموتون بالجملة
- بقنابل اللزر وصواريخ توماهوك
- واسلحة جديدة تحت الاختبار
- نحن فئران التجارب للبحوث البيولوجية
- لفيروس الإيدز وآلة القتل الدولية
- والبنك الدولي وصندوق النقد

- ندفع دماءنا ومواردنا
- رخيصة للقوي الحاكمة داخلياً وخارجياً
- تحت اسم برامج التنمية وتحديث الاقتصاد
- نموت في الحرب وفي السلام
- كما نموت بالايذر والجوع

حجاب العقل

طلعت على نا الصحف الحكومية صباح يوم الخميس
٢٨ نوفمبر ٢٠٠٢ بعناوين ضخمة تزيد من كثافة حجاب
العقل، وأنقل بعض عناوين الصفحة الأولى:
البنك الدولي يساعد مصر في تنفيذ برنامج التنمية
وتحديث اقتصادها.

الوضع الاقتصادي المصري يتحسن باستمرار.
المعونات الأمريكية لمصر تحقق فائدة مشتركة وليست
ورقة ضغط.

الولايات المتحدة الأمريكية ترغب في تحسين صورتها
في العالمين العربي والإسلامي من خلال منع المعونات.
امام مصر فرصة عظيمة لتحقيق مصلحتها من خلال
هذه المعونات.

-القروض الاجنبية لا تزيد عن ١,٢ مليار دولار
سنوياً.

مصر تطلب فترات سماح وآجال طويلة وفائدة بسيطة
حتى تستطيع أن تسترد الديون المتزايدة.

طائرات حربية أمريكية تحركت إلى العراق.
أربع حاملات طائرات أمريكية تحركت إلى الشرق الأوسط واحتلت مواقعها لتضرب العراق في منتصف ديسمبر المقبل.

وفي نيويورك أعرب كوفي عنان الأمين العام للأمم المتحدة عن ارتياحه لاستئناف مهمة المفتشين في العراق وقال إن عمليات تفتيش المواقع العراقية شهدت بداية طيبة.

السادات مظلوماً:

في ديسمبر ١٩٧٩ توجه ابراهيم نافع إلى بيت السادات في الجزيرة لأول مرة بعد تعيينه رئيساً لتحرير راي الايام المصرية، وسوف ينشر سلسلة من المقالات تحت عنوان "السادات مظلوماً".

وفي مقاله الأول الصادر بجريدة راي في ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٢ الصفحة الاولى يقول عن مذبحة سبتمبر ١٩٨١ حين اصدر السادات قرارا باعتقال ١٥٣٦ شخصاً

في يوم، (كنت واحد منهم) بتهمة التآمر مع جهات أجنبية
والخيانة الوطنية:

يكتب إبراهيم نافع:

" السادات كان إنسانا محبا للخير... لا يشعر بالمرارة
تجاه احد، وحين يغضب يعبر عن غضبه بعنف وحدة، ويخرج
كل ما في صدره من أبخرة مكتومة، وكانت ذروة غضبه
بسبب توحش الجماعات المتطرفة في اواخر عهده، انفلاته
وتهديدها الأمن والسلام الاجتماعي والوحدة الوطنية...
وتأثيرها السلبي في عملية السلام (كامب ديفيد)... ولهذا فلا
مفر من أن يتصدي لهذه الجماعات بقوة... ويحتجز قياداتها
(في السجون)... غير أن أيدي أخرى تدخلت... وأضحت
إلى (قوائم المسجونين) اشخاصا آخرين... لم يكونوا في
حساب السادات (حين أعد القوائم)... وقال لي السادات
بالحرف الواحد: "هؤلاء الاشخاص الذين أضربوا للقوائم
سيفرج عنهم فور استكمال الانسحاب الاسرائيلي من سد يناء
في فبراير التالي...".

والسؤال الآن: ما هذه الايدي الأخري الخفية التي
اضافت اسمي آخرين لم يكونوا في حساب السادات ولم ترد
أسمائهم في القوائم الاصلية؟

أذكر أن ضابط المباحث قال لي وأنا س جينة بزنزادة
الشحاذات بسجن النساء بالقناطر الخيرية خلال سبتمبر
١٩٨١: "والله العظيم يا دكتورة نوال ، اقسم لك أن اسمك لم
يكن موجوداً في القوائم الأصلية التي عرضت على
السادات، وكلنهم هو الذي اضاف اسمك في آخر القائمة، ولهذا
فإن رقمك في الحبس هو ١٥٣٦ ، وهو الرقم الاخير رف في
القائمة التي دخلت السجون في ٣ سبتمبر ١٩٨١ .

اصبح من الواضح بعد عشرين عاما من معاهدة السلام
(كامب ديفيد الاولى) أنها لم تكن معاهدة سلام ولم تحقق أي
سلام ، بل قادت إلى المذابح التي نشهدها لشعوب المنطقة
الشعب الفلسطيني ، والشعب العراقي ، وسوف تسمع تمر الآلة
الحربية الأمريكية الإسرائيلية في هذه المذابح لتشد مل بقية

الشعوب ومنها الشعب المصري، ال ذي يتع رض للم و ت
الاقتصادي قبل أن يتعرض للموت العسكري.

وفي معاهدة كامب ديفيد الأولى دخل الاس تعمار
الأمريكي دخل الاستعمار الارميكى الاسرائيلي بلادنا تحت
اسم المعونة، المنصوص على ه ا في اتفاقيات كامب
ديفيد، ومع المعونة بدأ فتح الاسواق المصدرية للبضائع
الأمريكية تحت اسم الانفتاح، وب دات القوي الاسرائيلية
(الأمريكية) تحاصر الشعب الفلسطيني في جنوب لبنان
واشتعلت الحرب والمذابح حتي اليوم.

من يرد على مقالات إبراهيم نافع في جريدة الأهرام؟!
ومنذ بدأت الرد على ه (بعد نشرة مقاله في ١١ أغسطس
٢٠٠٠) تم وضع اسمي في القائمة السوداء أو القائمة
الرمادية، وأصبحت عاجزة على نشر مقالاتي في الصحف
الحكومية أو المعارضة الشرعية... لماذا؟

لان رئيس تحرير الاهرام قوة كبيرة على اتصال وثيق
بالقوي الحاكمة وتتردد صحف المعارضة (يسار ويمين
ووسط) في نقد ابراهيم نافع.

ربما يكون نقد رئيس الدولة أو رئيس الوزراء أسد هـل
من نقد رئيس تحرير الاهرام والجميع (رجالاً ونساءً) مـن
النخبة المصرية يتنافسون على الكتابة بجريدة الاهـرام، أو
على الأقل نشر اخبارهم مع الصورة داخل البـرواز فـي
الصفحة الاخيرة التي تسيطر على ها اـد دي الصـحفيات ،
ابنة أحد كبار الصحفيين بالأهرام.

من اخبار الصباح-جريدة الأهرام- مع صورة داخـل
برواز للاستاذة الكاتبة الكبيرة عضو حزب اليسار وعضـو
الحزب الحكومي، وعضو المجلس القومي للمرأة، برعايـة
السيدة الأولى حرم السيد الـ رئيس ،ورئيسة مجلـس إدارة
الفنانات المصريات لدي الهيئة الدولية فـي وشد نطن،تلقـي
الاستاذة الكبيرة كلمة في مؤتمر المرأة العربية المزمع عقده
في بيروت خلال ديسمبر ٢٠٠٢ والدعوة عامة للشعب.

الفراغ السياسي والثقافي في مصر أصبح خطيراً ولـم
يعد الشباب متحمساً لأي عمل سياسي أو ثقافي،وهم يـرون

الجهلاء يصبحون هم النخبة أو انصاف الجهلاء أو انصداف المتعلمين.

كان أبي يقول: "المنافقون يلجأون إلى النفاق لأنهم بلا موهبة حقيقة في أي شيء وبلا ثقة بالنفس، لأن نظام التعليم الفاسد يسلبهم الثقة والذكاء الفطري الذي يتمتع به الرجل والنساء الذين لا يقرأون ولا يكتبون".

منوف عام ١٩٤٧

الفراغ وقد أصبح جورج بوش (الابن) يتحدث عن ترحيل النساء في أفغانستان وفلسد طين والعراق ومصدر وغيرها من البلاد، لأن العقبة أمام التنمية هي تخلف المرأة بسبب التقاليد البالية ومنها ختان الإناث.

ويشارك بعض النخبة من بلادنا مع بعض النخبة الأمريكية في إصدار تقرير عن التنمية البشرية في بلادنا ويؤكد التقرير أن من العقبات أمام التنمية هو تخلف المرأة.

أصبح "تخلف المرأة" هو الشماعة الجديدة التي يعلق علىها فشل مشاريع التنمية في بلادنا وليس سياسات البنك

الدولي والحكومة الأمريكية التي تغزو بلادنا ما اقتصد ماديًا
(وعسكرياً) في ظل حماية الحكومات المحلية التابعة لها.

عن تقرير التنمية البشرية في بلادنا

اشتغلت بالأمم المتحدة لمدة عامين من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٠ "مستشارة لبرامج المرأة العربية والأفريقية في اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة في بيروت وفي أديس أبابا، وأدركت في هذين العامين زيف مشاريع التنمية التي تقوم بها الأمم المتحدة. وقد دلت التقارير على تزايد الفقر في بلادنا العربية والأفريقية مع تزايد مشاريع التنمية، بما فيها المشاريع الخاصة بالنساء، ولهذا السبب قدمت استقالتي من الأمم المتحدة، وعدت إلى مصر لأكتب الروايات والقصص الأدبية، أفضل من العمل في مشاريع فاشلة.

وإذا كانت الأمم المتحدة قد أصدرت منظمة تابعة للولايات المتحدة الأمريكية، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية، إلي الحد الذي أصبحنا نسميها اليوم "الأمم المتحدة الأمريكية"، فهل يمكن لهذه المنظمة التابعة أن تفعل شيئاً مستقلاً عن الفكر الأمريكي المهيمن على العالم؟

وإذا كانت الأمم المتحدة هي التي شرعت استخدام القوة العسكرية الأمريكية لضرب العراق في حرب الخليج يذ اير ١٩٩١، وهي التي تتخطى اليوم عن مناصرة الشعب الفلسطيني الذي يذبح امام عيونها كل يوم، ومع ذلك تظل عاجزة عن فعل أي شئ بل إنها تتراجع عن إنصاف الشعب الفلسطيني بسبب الاعتراض الأمريكي، ويتخلي مجلس الامن بالأمم المتحدة عن واجبه الأول وهو مطالبة إسرائيل بإيقاف المذابح الجارية لسكان الضفة الغربية وغزة والانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، حسب قرارات الامم المتحدة ذاتها.

وهل يمكن فصل قرارات مجلس الأمن عن تقارير الأمم المتحدة فيما يخص التنمية الإنسانية أو الاجتماعية أو الاقتصادية في عالمنا العربي؟!!

إلا أن بعض النخب العربية والمصرية ينظرون إلى تقرير الأمم المتحدة عن التنمية في بلادنا كأنه " كتاب مقدس" أو على الأقل كتقرير علمي موضوعي غير خاضع للفتور الأمريكي ومؤسساته السياسية والاقتصادية والعسكرية والإعلامية.

خضوع للمنطق الأمريكي:

لقد دهشت: كيف يخضع أغلب النخب في بلادنا للمنطق الأمريكي - الاسرائيلي، الذي يري أن تخلفنا الاقتصادي مادي وهزائنا المتكررة ترجع إلى خطأ في الشعوب العربية نساء ورجالاً، لم ماذا؟ لأننا عاجزون عن مواكبة عصر الانترنت، والكمبيوتر!! إن مقياس التقدم في تقرير الأمم المتحدة هوكم رجلاً وامرأة يمتلكون الكمبيوتر؟ وكما منهم يستخدمون الإنترنت؟ (نصف في المائة فقط من الشعوب العربية) ومقياس آخر هو: كم عدد الكتب المترجمة إلى اللغة العربية، فقط ٣٣٠ كتاباً مترجماً سنوياً في العالم العربي، أي خمس ما تترجمه اليونان، ومقياس آخر هو وجود ٦٥ مليون عربي لا يعرفون القراءة والكتابة أغلبهم نساء (الثلاثان)، رغم أن تعليم النساء العربيات - حسب التقرير - ذاته تضاعف ثلاث مرات، هذا الذي لم تنتج عنه معرفة أو مهارات للعمل في السوق الحرة والانفتاح على العالم والسير مع العولمة. هذا هو الجانب البارز في التقرير، والذي أبرزه أكثر الاعلام الامريكي والعربي

وبعض الصحف المصرية، وهو يصور جزءاً من الحقيقة فقط.

وربما تكون مجلة " النيوزويك " الصادرة في ١٦ يوليو ٢٠٠٢ باللغة العربية نموذجاً للإعلام الأمريكي الذي يروج لفكرة أن الخطأ فينا نحن الشعوب العربية أو الخطأ في الحكومات العربية المستبدة بشعوبها، والعاجزة عن منحها الحريات السياسية والاجتماعية. وقد أفردت هذه المجلة (في ذلك العدد ١٦ يوليو) مساحة كبيرة لعرض تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية في العالم العربي تحت عنوان: "انبعاث جديد". ونشرت صورة ضد خمة على صفحة ونصف الصفحة ص ١٢ و ١٣ " تصور مظاهرة من الشباب العربي وتحت الصورة هذه عبارة " حريات سياسية مفقودة..

بعض الحكومات العربية تكفل حرية التظاهر ضد إسرائيل، ولكن هناك حرية للتظاهر ضد الحكومات العربية نفسها؟!!

انبهار بتقرير "نيوزويك":

من هذه العبارة والصورة يحاول الاعلام لام الأمريكى توجيه الشعوب العربية للتظاهر ضدالحكومات المحلية وليس ضد إسرائيل ،وهذا أمر منطقي لأن الإعلام الأمريكى يخدم السياسة الأمريكية لإدارة جورج بوش الابن الذى يؤيد عدوان إسرائيل على الشعب الفلسطينى ويستخدم حق الفيتو فى الأمم المتحدة للاعتراض على أى قرار ينصف الشعب الفلسطينى وتم اعتماد ٢٠٠٠ مليون دولار أمريكى مكافأة أو مساعدات إضافية لإسرائيل بعد مزبحة غزة الأخيرة تحت اسم محاربة الإرهاب الفلسطينى!!

مع ذلك فإن بعض النخب العربية والمصرية تنظر إلى موضوع " النيوزويك" عن تقرير التنمية فى بلادنا كأنما هو الحقيقة العلمية أو الموضوعية،وفى جريدة "الاهرام" الصادر بالقاهرة فى أول اغسطس ٢٠٠٢ ص ١١ ، نشر كاتب مصرى مقالات تحت عنوان: " محاسبة الذات" مشيداً بما جاء فى "النيوزويك" ويقول الآتى: "الصعب على الانسان العربى بعد قراءة هذا التقرير انيظل على منطق تحميل الغير مسئولية نكباته وتخلفه".

إن كاتب المقال يحمل لقب "دكتور" ومع ذلك وقع تحت تأثير الانبهار بما نشرته مجلة " النيوزويك " عن تقرير التنمية في بلادنا، وكتب يقول: " إن معوقات التنمية في بلادنا ليست نقص الموارد والثروات (عدد العرب ٢٨٠ مليون نسمة لكن مجموع الدخل القومي ٥٣١ مليار دولار) - أقل من دخل إسبانيا - ومعدل النمو سنوياً أقل من نصف في المائة لكن معوقات التنمية هي النقص في الحرية والمعرفة، ونقص مشاركة الطاقات النسائية في العمل. والحرية والديمقراطية غائبتان.. والتعليم مازال يقوم على التقليد.. ولا زال يزداد مستخدمو الإنترنت على واحد ونصف الواحد في المائة، ولا يزداد عدد مقتني الكمبيوتر.. الخ. هذا جزء من مقال الدكتور المصري.

جريدة " الأهرام " لم تنشر مقالي الذي خالفت فيه ههنا الكاتب رأيه، ورأي آخرين ممن يقودون الرأي العام في بلادنا، والذين يتصورون أن الخطأ في التنمية يرجع إلينا " نحن " أو " القصور الذاتي ". بالطبع أنا مع النقد الذاتي، لأن القصور الذاتي موجود فعلاً. سواء في الحكومات العربية المستبدة أو في الشعوب العربية التي تعدت الخضوع

والخوف والتردد وعدم الثقة بالنفس.. وكم دخل السجون في بلادنا من المفكرين والباحثين من مختلف التيارات.

لا يمكن لاحد أن ينكر أن الحرية والديمقراطية غائبتان في بلادنا العربية ، لكن السؤال هو : من يسئ اند هذه الحكومات العربية المستبدة بشعوبها؟

إليست هي الحكومة الأمريكية التي تشجع هذه الحكومات المحلية على الاستبداد وغيظ الطرف وغمض عينها عن هذا لأن هذه الحكومة تابعة لها أو مطيعة لأوامرها الاقتصادية والاعلامية والعسكرية والسياسية وغيرها؟!!

تسجيع الارهاب:

وحيث جاءتني مندوبة مجلة "النيوزويك" إلى منزلي ، يوم ٥ يونيو ٢٠٠٢ شرحت لها وجهة نظري بدقة وكما ان معها جهاز تسجيل ، واستغرق الحوار ساعة تقريباً ، طلبت منها ألا تحذف شيئاً ، وخاصة الجزء الذي اربط فيه بين تزايد الفقر في بلادنا وفشل مشاريع التنمية وبين الاسلحة تعمار الأمريكي الراسمالي الجديد ، والأحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية وأرض فلسطين ، وبين غياب الحريات واسلحة استبداد

الحكومات العربية الخاضعة للسياسة الأمريكية في المنطقة العربية، وأن هذه السياسة الأمريكية بالتعاون مع الحكومات العربية ومنها حكومة " السادات " في مصر قد شجعت التيارات الدينية المسماة بالتيارات الأصولية، وهي التي مولتها بالأموال والسلاح، ودربتها على القتل والإرهاب تحت اسم محاربة الإرهاب الشيوع في أفغانستان، وفي بلادنا أيضا. إلا أنني دهشت حين قرأت مجلة " النيوزويك " في عددها ١٦ يوليو ٢٠٠٢، أدهشني هذا البتر لما قلته للسيدة الصحفية، بما قام بالبتر المسؤولون الكبار في المجلة وهي محررة شابة مندوبة عن هذه المجلة في القاهرة.

١- كيف تجاهلت " النيوزويك " جوهر الموضوع؟

كنت أدرك تماما بحكم خبرتي مع الاعلام الامريكي والاوروبي أن " النيوزويك " لن تنشر عن موضوع التنمية في بلادنا. ما العربي. إلا ما. ما. يذ. دم المصد. الح الأمريكي. والإسرائيلية، ولهذا أكدت على المحررة أن تستخدم جهاز التسجيل، وأن تنشر جوهر ما أقول فيما يخص التنمية في بلادنا وهو "الربط" بين القومي الخارجي والداخلي، بين

الحكومات العربية المحتلة وبين الاستعمار الأمريكي الجديد ودولة إسرائيل، وتطرق أيضاً لقضايا النساء العربيات، وأثر العولمة على هن ومشكلة "تأنيب الفقر". وتقديم المرأة "كبش فداء" للتيارات الأصولية الدينية، ليس في أفغانستان وفي بلادنا العربية وحدها، بل في الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً، تقديماً للنساء الأمريكيات "كبش فداء" لليمين الأمريكي، وجورج بوش والتيارات المسيحية الأصولية التي يمولها ويشجعها.

المشاكل.. صناعة عربية!

أدركت المحررة تماماً ما أقول ووافقتني. إلا أن ما نشر في "النيوزويك" كان مبتوراً وجاء كالاتي: "يؤكد تقرير الأمم المتحدة عن التنمية البشرية في العالم العربي أن اخ تلال إسرائيل غير المشروع للأراضي العربية هو من أكثر العقبات استشرأباً أمام الأمن والتقدم في المنطقة، بل إن بعض المنشقين في المنطقة كانوا واقفين لاسد تخدام ذلك كأسهل تفسير لما يمر به العرب من حال اليوم. والى السعداوي، وهي كاتبة مصرية بارزة تدافع عن حقوق المرأة

وتعرضت مراراً لتهديد الأصوليين ،تضع قدراً مساوياً من اللوم على واشنطن وإسرائيل، كما على إخفاق حكومتها في تفسير المعضلة التي تعاني منها مصر اليوم". وتقول: "إن الحكومة تشعر بالعجز ،في حين تصبح الدولة ضعيفة مقعدة فإنها تصبح أكثر سلطوية ،وتتزع إلى السيطرة بصورة أكبر على الناس". وتواصل " النيوزويك" كلامها: "ولكن النبوة العامة للتقرير تشير إلى أن المشكلات هي من صنع يد العرب أنفسهم".

المشكلات هي من صنع العرب انفسهم شعوباً أو حكومات ،اما واشنطن وإسرائيل فهما بريئتان من الذنب ، ولا علاقة لهما بمشاكل العرب بالاضافة إلى انهما تستخدمان كلمة " المنشقين " وهي كلمة ترن في الأذن "سلبية" لتصدي فني وتصف امثالي الذي يذهبون إلى دور واشنطن وإسرائيل في النكبات التي تحدث في بلادنا ونحن لسنا منشقين فحسب في رأي " النيوزويك" بل نحن أيضاً نلجأ إلى اسهل تفسير لما يمر به العرب من مشاكل.وهذا تمويه وخداع كبير لاننا أولاً لسنا "منشقين" بل نحن نعبر عن الاغلبية الصامتة التي لا يصل صوتها لمزمار الإغلام العربى إلا نادراً ، اما

الاستسهال فهو من نصيب الآخرين الذي نشد رت المجلة
آراءهم باعتبارها الآراء العظيمة التي يجب على نا اتباعها
ومنها رأي بعض المعلقين الأمريكيين مثل: توماس فريد مان
في صحيفة " نيويورك تايمز " الذي مدح التقرير ر: " وشد عر
بالتشجيع لأن لديه شركاء عرباً ليبراليين، من أجل تغيير
العالم العربي ". وإذا لم يرفع أكبر عدد من الناس أصواتهم
بمثل ما يقوله "توماس فريد مان" فإن تقرير التنمية القادم عن
العالم العربي قد يكون أكثر قتامة من التقرير الحالي.

وهذا هو ختام الموضوع في مجلة " النيوزويك " وه و
ختام يتفق تماماً مع أهداف السياسة الأمريكية والإعلام
الأمريكي ، وسواء كان في " النيويوركر تايمز " أو
" النيوزويك " ، أو عدد كبير من الصحف والمجلات المنتشرة
في بلادنا العربية ، أو التي يكتب فيها أغلب النخب والمتقنين
العرب.

وهنا آتي إلى النقطة قبل الأخيرة في مقالي وهي:

٢-انخفاض وعي النخبة العربية:

ربما لا يختلف تقرير الامم المتحدة كثيرا عن تقارير أغلب النخب العربية عن التنمية في بلادنا أو مشايرهم للنهوض بالامة العربية من كبوتها الراهنة وقد تأثر اغل بهم بالكتب الأمريكية التي نشرت مؤخراً ومنها ما كتبه "اب" ويس برنار" بعنوان:"ما هو الخطأ في علاقة الإسلام بالغرب؟".

وكم انبهرت النخب العربية بهذا المفكر الأمريكي ، لأنهالا يعتبر الخطأ في الدين الإسلامي" كما يفعل صمويل هانتجتون وفرانسيس فوكاياما وسلمان رشدي وغيرهم"، بل يعتبر الخطأ في العرب أنفسهم.. في المسلمين، وبقول في كتابه ما يلي:

"لقد انتهى الاستعمار منذ نصف قرن واصبحنا نعيش عصر ما بعد الاستعمار post-colonial لكن العرب والمسلمين يعلقون المشكلة على الغير ويتساءلون دائماً: من فعل بنا ما هذا؟ كأنهم ضد حياطة ول الوقت للوقي الخارجية ،والمفروض أن يسألوا أنفسهم: ما الخطأ فينا نحن؟

وماذا نفعل لتغيير أنفسنا؟ أما أن يحملوا الخطأ على غيرهم فهذا هو الخطأ".

وهذا الكلام فيه جزء من الحقيقة، إلا أنه ينطوي على خداع كبير، ذلك أن عصر الاستعمار لم ينته، كما لا يقل لويس برنار، ونحن نعيش عصر الاستعمار الجديد - New-Colonial وليس عصر ما بعد الاستعمار أو ما يسمى بمونه باللغة الانجليزية ما بعد الكولونيالية post-colonial.

ويسود الجامعات الأمريكية والأوروبية هذه التعريفات الخاطئة والذي تنقله الجامعات العربية والنخب العربية دون تحليل أو نقد.

كما أن لويس برنار يفصل بين العوامل الخارجية والعوامل الداخلية أو العوامل الدولية والمحلية وهذا أمر غير علمي "لأنه مستحيل نحن نعيش في عالم واحد تحكمه حكومة دولية مركزية في واشنطن، وحكومات محلية تابعة تدور حول المركز فكيف يمكن الفصل بين المركز والأطراف، أو بين الرأس والجسد الواحد دون الساقين أو القدمين؟

حرب الاقوياء:

وتدافع اغلب النخب العربية عن تقرير الامم المتحدة وعن موضوع "النيوزويك" عن هذا التقرير ويشدحرون بالسعادة لان التقرير لا يدين الإسلام، أو التراث الاسلامي العربي، بل يدين العرب انفسهم (الشعوب والحكومات) وغياب الديمقراطية والحريات وانتشار الفساد وتزوير الانتخابات وعدم تقرير الكفاءات، بل الاعتماد على الواسطة والعلاقات الشخصية، وقهر النساء وزلزالهن عن السياسة والحياة العامة، هذه كلها حقائق موجودة في بلادنا العربية ونقرأ عنها كل يوم في الصحف الحكومية قبل صدحف المعارضة إلا انها موجودة أيضا في البلدان ارجع العالم العربي، فهي ليست مشاكل خاصة بالعرب فقط لانهم عرب أو مسلمون، إنها ليست نتاج عرق معين أو دين معين أو جنسية معينة، بل هي شائعة في العالم أجمع على رأسه الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، وقد عشت فيها سنين طويلة وقمت بالتدريس في جامعاتها، وأدركت أن الرأس مالية الأمريكية سوف تسقط قريباً، أقرب مما نتصور، ومعها

الرأسمالية الإسرائيلية والأوروبية واليابانية وغيرها، وهذا
بؤادر هذا السقوط، وتفكك النظام الطبقي الأبوي، الذي يحكم
عالمنا الإنساني من خلال الشركات عابتر القارات التي
تتهاوي الواحدة وراء الأخرى ومنها شركة "إنرون" التي
أعلنت إفلاسها في شهر ديسمبر ٢٠٠١، إثر اختفاء ١١.٥
قدرها ٢٣ مليار دولار، وشركة "وولد-كوم" إثر اكتشاف
مشروعات مزيفة قيمتها ٣٩ مليار دولار، وشركة "تيكو" إثر
اختفاء ٩ مليارات دولار من أوراقها، وشركة "زيروكس" التي
زورت في أوراقها لتهرب من سداد مليارات ونصف المليار
دولار كانت على ها للضرائب وما يحدث في سوق المال
والبورصة وحتى "وول ستريت" في نيويورك من نصب
معروف في الصحف وما يكشف عن الفساد الشركات
الرأسمالية في بلاد أوروبية مثل فرنسا وبريطانيا وإيطاليا
وأسبانيا وغيرها، ويمس الفساد أكبر راس في العالم
الرأسمالي وهو الرئيس الأمريكي جورج بوش "الابن"
وعلاقته بشركة "إنرون" معروفة، ونائبه "ديك تشيني" وعلاقته
بشركة "هاليبورتون" وغيرها من الفضائح المالية التي تنشر
في الصحف الأمريكية والأوروبية كل يوم.

ولأن الفساد الرأسمالي الطبقي الأبوي " واحد" في العالم فإن الفساد في الولايات المتحدة الأمريكية لا يختلف كثيرًا عن الفساد في بلادنا العربية وفي مصر لا تكف صد حف الحكومة والمعارضة عن الكشف عن الفساد لكبار رجال الدولة . ف . بي . مجل . س . الش . عب أو ف . بي التليفزيون والبورصة، وشركات القطاع الخاص والعام، ونواب القروض والذين هربوا بأموالهم.

يقوم الفساد الرأسمالي على منطق " الربح" في السوق الحرة وفي حرية الأقوياء لا بطش بالضعفاء ، أو حرية السلاح النووي في اغتصاب أي أرض من أصحابها الذين يعيشون على هامشها، وإعلان الحرب على أي بلد لا تركع على ركبتيه أمام الإله الأمريكي وتابعة في أسد رائل وبريطانيا وغيرهما من دول العالم.

وتستخدم الرأسمالية الدولية والمحلية ورقة الادب لتخلق " الصراع" بين الأدب من أوب بين الثقافات أو بين الحضارات ، كنوع من التعمية وإخفاء الصراع الحقيقي حول الأموال والبتروول والأرض والأنهار والأسواق التجارية

ومشاكل الخصخصة وتزايد الفقر والجوع والأمر راض في جميع بلاد العالم وليس في بلادنا العربية فقط.

٣- كلمة أخيرة عن حوار الحضارات:

تتصور بعض النخب العربية أن كلمة " حوار الحضارات " أفضل من كلمة " صراع الحضارات " في حين أنهما وجهان لعملة واحدة ، عملة النظام " الطبقي الأبوي " الرأسمالي " ما بعد الحديث الذي يشغل الناس باللغة والكلمات. سواء كانت صراعا أو حواراً ، وإن لم تستد اللغة أو الكلمات أو الندوات الثقافية والأدبية والفنية ، وكم تكون الكلمة الصادقة حاسمة مثل طلقة الرصاص ، إن قيلت في وقتها ومكانها دون خوف من النار أو طمع في الجنة.

نحن في حاجة إلى كلمات صادقة من هذا النوع لكن أن يركز المشروع النهضوي في بلادنا العربية على الحوار بين الحضارات أو الحوار بين الأديان؟ فهذه خدعة كبيرة ، لأن الفروق الجوهرية بين الأديان؟ فهذه خدعة كبيرة لأن الفروق الجوهرية بين الأديان طفيفة جداً أو غير موجودة، وكذلك الفروق الجوهرية بين الحضارات طفيفة جداً

أو غير موجودة ، لاننا نعيش حضارة واحدة في الشرق والغرب هي الحضارة الرأسمالية التطبيقية الأبوية، وهي حضارة غير متحضرة لأنها قادمة على القوة وليس الحق أو العدل.

أصبحت كلمة العدل من الكلمات الثانوية في مشوار نهضة النخبوية العربية، كأنما العدل شيء ثانوي ، أما الشيء الأساسي فهو الأمن أصبحت كلمة الأمن هي السائدة في لغة الحوار أو لغة الصراع سيان كلاهما واحد.

الأمن هو المطلوب ومن هنا أصبح الارهاب الفلسطيني هو خطر العالم ولس الارهاب الأمريكي - الاسرائيلي، لأن القوة هي التي تحدد الأمن ، امن من؟ وندن نحن مبلغة وسلاح رجال الأمن و"البزنس" ورجال البورصة والاعمال والنخب المثقفة التابعة لهم.

القاهرة/ يوليو ٢٠٠٢

احتواء

- شاعت كلمة احتواء على لسان النخبة في مصر من الرجال والنساء
- يقول احدهم: السياسية الأمريكية الجديدة هي السيطرة واحتواء العالم تحت قوتها العسكرية.
- وتقول امرأة من رائدات تحرير النساء ورئيسة إحدى الجمعيات الخيرية:
- الرجولة الحقيقية هي الاحتواء.
- ما معني الاحتواء يا أستاذة؟
- الرعاية والحماية.
- مثل الحماية البريطانية على مصر، والرعاية الأمريكية لنا عن طريق المعونة والمساعدات؟
- ليه لأ؟ الاحتواء يعني الحماية والسيطرة والرجولة فيها سيطرة، وإلا ما الفرق بين الرجولة والأنوثة؟!
- أتقولين إن الأنوثة هي الخضوع؟
- نعم.
- مثل الخضوع لأمريكا وإسرائيل؟!
- ليه لأ؟

القاهرة نوفمبر ٢٠٠٢

اسمي بدرية

- اسمي بدرية.
- علي اسم القمر.
- كل ليلة أحلم أنني اغني.
- أطيّر في السماء وأمسك الشمس.
- أطيّر في السماء وأمسك الشمس.
- أعزف لحن حياتي على العود.
- وتغني معي البنات أول يوم العيد.
- نخلق معاً في الافق ونقول:
- أغنيتي حرיתי.

وهل الوطن للجميع كما تدعون؟

- إذا كان الوطن للجميع.
- والمواطنون متساوون امام القانون.
- فماذا تمنعون عن جواز السفر.
- لغياب تأشيرة ولي أمري؟
- وإذا كنت بالغة الرشد وفي الستين من العمر
- فكيف أظل قاصراً وفي حاجة إلى وصي؟
- وإذا كنت أستاذة وجاءتني دعوي للسفر
- لألقي كلمتي ويسمع العالم صوتي.
- فلماذا تمنعوني من الخروج؟
- لماذا تسألوني عن موافقة الزوج
- ولا تسألوه عن موافقتي؟
- لأنه رجل مثلكم والوطن لكم وحدكم.
- ولس للجميع؟

وما زال في اليأس أمل

- في ليلة الاحتفال بالقرن الجديد
- رأيت حفيدتي ملفوفة بحجاب أبيض
- يشهب الكفن
- لم ار منها إلا ثقب تطل منه نصف عين
- قالت هذا أمر الله
- ثم أغلقت فمها وصمتت.
- أما حفيدتي الثانية فكانت نصف عارية
- تغطي وجهها بطبقة من المساحيق.
- أذناها خرومتان بحلق كبير ثقيل.
- قدماها مقوستان فوق كعب عال رفيع.
- تتكلم الفرنسية بلكنة أمريكية وتقول:
- الرجال يدللونني.
- ولا توجد للمرأة قضية.
- تبتسم بإشراق الشمس وتقول:
- وما زال في اليأس أمل.

القاهرة ٢٠٠

حتى نهاية الطريق سأمشي

- قالوا لي ما من كاتبة مبدعة وإلا وانتحرت.
- "مي زيادة" انتحرت في المستشفى في النفس ي، "اروي صالح"،
 - "وفيرجينيا وولف" قتلت نفسها بعد أن وصموها بالجنون.
 - وأنت يا أنت ماذا تنتظرين؟
 - قلت لهم لن انتحر ايها السادة بل اترك لكم
 - إن شئتم هذا المصير.
 - إما انا فسوف أمشي وأمشي حتى نهاية الطريق.
 - إلي آخر مدي سأمشي ولا أتوقف.
 - إلي آخر خط في الأفق عند الشروق والغروب.
 - فما عدت أخسر من شئون الدنيا إلا الموت.
 - بعد أن خسرت طفولتي وخسرت شبابي وكهولتي.
 - لم تربحني الكتابة إلا السجن وتشويه السمعة.
 - مع ذلك سأمشي في الطريق حتى نهايته.
 - أقول لكم ايها السادة حتى نهاية الطريق سأمشي.
 - وأفعلوا انتم ما تشاءون.

النقاد

- قلت من يعين النقاد في مناصبهم؟
- قالوا الملك أو الرئيس أو الوزير أو رئيس التحرير.
- قلت ما علاقتهم إذن بي؟
- قالوا ألسنت كاتبه وأديبه ولك مؤلفات؟
- قلت نعم ،وما علاقة ذلك بموظفي الدولة؟
- انا اكتب للناس.
- قالوا لنتصل كتبك إلى الناس.
- قالت لكن كتب وصلت إلى الناس.
- قالوا وكيف يعيش النقاد بدون مؤلفات يكتبها غيرهم؟
- لن تأميني أبداً شرهم.
- هكذا اصابني من هجوم النقاد ما ليس له مثيل.
- إلا مدحهم للملك أو الرئيس أو الوزير.

القاهرة ٢٠٠١

نصف المجتمع

- أيولد نصف المجتمع داخل مقبرة؟
- أتقطع رؤوسهن على مقصلة؟
- أتقطع ظهورهن بالموس؟
- ألا يحق لنا أن نعيش مرفوعات الرؤوس؟
- وأن نموت حين نشتهي أن نموت؟
- لماذا تدفنونا بالحياة تحت اسم الحماية؟
- وتقتلوننا في أول الصبا تحت اسم الحب؟
- وتهجروننا في المضاجع وتضربوننا.
- وتقولون هذا هو أمر الله إليكم.
- أليس هذا ما تقولون؟
- أليس هو كلامكم أيها السادة.
- ثم تدعون.
- أنه كلام الله؟

القاهرة ١٩٩٨

انا جدير بأجمل رجل

- جاءني رجال كثيرون في شبابي
- وفي كهولتي.
- ينشدون الأنثى ذاتها في زمن الجواري.
- يمشون بالخطي ذاتها في عصر العبيد.
- يدقون بابي فلا افتح لهم.
- يسألونني ألا تشربين النبيذ؟
- ألا تشعرين بالبرد وحدك في الليل؟
- ألا تحنين إلى ذراعي رجل؟
- قلت لأنني أحب الشعر لأ أعرف إلا الدفء.
- ولأنني لا أعرف الوحدة فإننا لا ابرد في الشتاء.
- ولأنني لا اتزين ولا اتكحل ولا ينقصني شئ
- فإننا جديرة بأجمل رجل
- يأتي أو لا يأتي.
- فهو هنا وحيث أكون.

القاهرة ١٩٩٩

أستطيع الكلام في الجنس

- سأتكلم عن الجنس واكشف
- غياب القيم والاخلاق
- تحت اسم القيم والاخلاق.
- سأكشف عن اوامر لا تأتي من السماء.
- بل من رجال يمشون على الأرض.
- يدوسون بكعوبهم على الزرع.
- ويأكلون حقوق الناس.
- ينتهكون الاعراض والشف.
- باسم الشرف.
- ويغتصبون البنات والنساء
- يدخنون السيجار.
- ويأكلون الكافيار.
- ولكل واحد منهم امرأتان على الاقل.
- واحدة في البيت وواحدة في المكتب.
- ويقولون عني فاسدة.
- لأنني اكشف فسادهم.

القاهرة ١٩٩٨

وتحظى المؤودة بحبهم

- لا شئ يثير غضبهم أكثر من امرأة طبيعية.
- تعيش حياتها.
- تقاوم الؤاد والموت وتعيش.
- تقاوم اليأس والحزن وتضحك.
- لا شئ يثير رغبتهن في المرأة
- إلا موتها.
- وأنينها عند الاحتضار ودموعها
- ودمائها تتزف.
- وصوتها الذليل ينادي يستجدي.
- الرحمة من الآلهة.
- حينئذ فقط تكون هي الانثى.
- ووجبه العشاء الشهية.
- فلا شئ يثير شهوتهم.
- مثل امرأة مؤودة.

القاهرة ١٩٨١

والابنة الضالة تعيش

- هي صاحبة قلم تشير به إلى الجناة.
 - تخلع القناع عن الأنوثة ولارجولة والامومة والأبوة.
 - تكشف عن الوجوه المليئة بالندب.
 - ذهبت إلى الحب في اول شبابها.
 - وعادت شبحاً لا ترفع وجهها إلى الضوء.
 - استقلت قطار الحرب في منتصف الليل.
 - وماتت فداء الوطن.
 - ثم افاقت على حفنة من قطاع الطرق.
 - هاجمت مع زميلاتها الجشع والظلم.
 - أدانوها وقالوا انها الابنة الضالة.
 - فضحت مؤامرة اغتيالها في الظلمة.
 - صنعت لنفسها مكانة.
 - الابنة الضالة لم تولد لتقتل.
 - بل ولدت لتكشف عن القتلة.
 - وتفتح الطريق امام بناتهن وابنائها حتي النهاية.
- القاهرة ١٩٩١

لي رجال كثيرون

- فوق كل شبر من الأرض هناك رجل ينتظرني.
- له وطن وبيت وأم وزوجة وعيال وكل شئ.
- لكن ينقصه شئ.
- لا يكتمل إلا بوجودي.
- ليس هو الحب ولا الجنس ولا المال ولا المجد.
- شئ ليس له اسم.
- ليس حروفاً تدخل المطبعة.
- ولا سطور نقرأها في الكتب.
- ولا لغة بشرية نشأت في التاريخ.
- إنها لغة أخرى.
- تفهمها الطيور حين تغرد.
- وأوراق الشجر حين تتقبل قطرات الندى.
- وبسمة المولود أو المولودة حين تري وجه الأم.
- وإشراقة الشمس بعد أن يشقشق الفجر.

القاهرة ١٩٩٦

تكون الضمير الابداعي

من يحكم على العمل الابداعي في بلادنا ، فيقو
هذه الرواية تجاوزت المحرمات الدينية أو الاخلاقية أو
السياسية؟! وبالتالي لابد أن تمنع من النشر ، ولا بد من
عقاب مؤلفها؟

هذا السؤال هام ومطلوب عمل حوار فكري عميق
حول له لأنه يمس اهم شئ في حياتنا وهو العقل الابداعي
الذي يمكن أن يكتشف الجديد في العلم أو الادب أو الفن
أو الفلسفة أو السياسة أو الاقتصاد... الخ.

إنه يمس صميم الأزمة الفكرية التي تعاني منها
بلادنا ، والتي تجلنا مستهلكين للاكتشافات العلمية والفنية
في العلم وعاجزين عن إنتاجها أو المشاركة في إنتاجها.
والمشكلة تكمن في رأي في كلمة واحدة هي "
الخوف" الذي نتربي على ه من الطفولة ، الذي وف من
العقاب في الدنيا أو الأخذ برة أن تجاوزنا المحرمات
الموروثة والمفروضة على نا تحت اسم السياسة أو الدين
أو الاخلاق.

إن كان اكتشاف علمي أو فني جديد قد اصطدم على
نحو ما بالثالوث المحرم:
"السياسة والدين والجنس".

لقد حرق الفلاسفة والعلماء في تاريخ البشرية الذين
تجرأوا على الكنسية والنظام السياسي الحاكم، تم اهـ دار
رد المفكرين من النساء والرجال في جميع انحاء العالم
تحت اسم الدين أو الاخلاق ، أو السـلام الاجتماعي
والسياسي.

وقد ثبت انهؤلاء المبدعين والمبدعات الذين ادينوا في
حياتهم (من نظمهم السياسية والدينية) أنهم كانوا أكثر
أخلاقاً وأكثر فضيلة من هؤلاء الذين حكموا على هم.

لأن الاخلاق والفضيلة هي العدل والحرية والحب. إن
النظم السياسية أو الاجتماعية أو الدينية التي لا تقوم على
العدل والحرية والحب هي التي تعادي الفضيلة وهي التي
تنتهك الاخلاق والمحرمات. ولس المبدعين أو ذوي العقول
الابداعي الحر.

وفي بلادنا هناك فصل غريب بين ما يسمى الحرية
والعدل. وبين ما يسمى الديمقراطية. لازالت بلادنا العربية

محكومة بنظم سياسية واقتصادية وثقافية بعيدة كل البعد عن العدل والحرية ومع ذلك تسمى نفسها بلاداً ديموقراطية

كأنما الديموقراطية هي فقط تكوني أحزاب وانتخابات. وقد ثبت في العالم اليوم أن هذه الديموقراطية زائفة ، لأنها لا تقوم على الحرية الحقيقية أو العدل الحقيقي بين المواطنين نساء ورجالاً. فقراء وأغنياء حكما ومحكومين. الحرية بدون عدل مثل السلام بدون عدل. نحن نري هذه الخدعة التي تقوم بها إسرائيل وأمريكا تحت اسم السلام لسلب الشعب الفلسطيني من حقوقه العادلة. هذه هي الديموقراطية العربية الزائفة، وقد كشفت تماماً ولم تعد صالحة. وهم يبحثون الآن عن خدعة جديدة لتضليل الشعوب.

وبالمثل في الأعمال الإبداعية فإن مفهوم الحرية في بلادنا غير مفهوم ، لأن الحرية والمسئولية هما وجهان لشيء واحد.

إذا تربي الإنسان المبدع منذ الطفولة على الحرية فإنه يكون مسئولاً عن عمله الإبداعي وليس في حاجة إلى الحكومة أو وزارة الثقافة لتفرض على الوصاية.

إن الطفل الذي يتعود على الوصاية وانتظار الأوامر والتوجيهات يصبح حين يكبر هو الوزير الذي ينتظر الأوامر العليا، والتوجيهات من السيد الرئيس.

إن الطفلة أو الطفل الذي يتربي في جو من الحرية والجدل والمناقشة، بدلاً من القمع والطاعة ينشأ مبدعاً حراً ومسئولاً في آن واحد عما يفعل وعما يكتب.

هذه الازمة الفكرية في بلادنا تؤكد التناقض الذي نعيش، أو الازدواجية الاخلاقية والسياسية والدينية التي تسود مجتمعاتنا.

في الوقت الذي نقس فيه الشعب في موسم الانتخابات ونعطيه حرية اختيار ممثليه في مجلس الشعب. فإن ه ذا الشعب يصبح قاصراً وعاجزاً عن اختيار ما يقرأ من روايات؟!

لا شك أن الحكومة أو وزارة الثقافة (أو أي وزارة أخرى) ليس من حقها أو واجبها محاكمة المبدعين أو الحكم

على الاعمال الابداعية. لان الضمير الابداعي لـ دي
موظف الحكومة (وإن كان وزيرا) ليس أكثر وعيا أو حرية
أو مسئولية من ضمير المبدعين من الرجال أو النساء.

لكن السؤال: كيف يتكون الضمير الابداعي إذا غابت
الحرية؟ وكيف يتكون الاحساس بالمسئولية "تجاه الذات
والآخر" أن غابت الحرية في البنوك والمدارس والجامعات
والاحزاب والجمعيات؟!

هذه المعركة الاخيرة بين وزارة الثقافة والمتقنين تؤكد
اننا في حاجة إلى طرح السؤال مرارا وتكرارا: من يحكم
على العمل الابداعي؟

أليس هو ضمير المبدع واحساسه بالحرية والمسئولية
تجاه القراء والقارئات من الشعب؟!

إن القراء هم الحكم على الرواية أو العمل الابداعي.
وكثيرا من الاعمال الادبية أو الروايات تسقط وحدها بسبب
إعراض القراء والقارئات عنها. ذلك أن القارئ والروائي
وجهان لشيء واحد، كلاهما حر ومسئول في آن واحد. ومن
هنا ذلك المفهوم الجديد لما نسماه "القارئ المبدع" أي
القارئ الذي يستطيع أن يكون قارئاً وناقداً والذ ي تربى

على حرية الاختيار ،وبالتالي مسئولية الحكم بنفسه على العمل الأدبي، ولا ينتظر القرارات الادارية أو التوجيهات من أعلي.

إن الابداع يتعلق بالخيال والاحلام والافكار المسكوت عنها بسبب الخوف من العقاب أو الطمع في جائزة. هكذا نري كم نخطئ في حق انفسنا،وكم نلعب دورا في قتل الضمير الابداعي الحر حين يكون العقاب(اوالجوائز) هو الطريق الذي نتبعه للحكم على الأعمال الإبداعية.

نحن في حاجة إلى فصل وزارة الثقافة على منح الجوائز الادبية أو الابداعية لان الثواب والعقاب وجهان لشيء واحد،والذي يمنح جائزة من حقه أيضا أن يعاقب فيجب الجائزة أو يصدر قراراً بإقالة المبدع وكلهما عقاب.

نحن في حاجة إلى فلسفة جديدة للأخلاق والتربية تقوم على الحرية والمسئولية،وعلي الجدل والنقد وتكوين العقل النقدي. لأنه هو العقل الإبداعي.

وهذا يعني في النهاية "عدم الخوف".كيف ينشأ الطفل والطفلة على الشجاعة والإقدام ،وعدم الخوف من نقد

السلطة الأعلى في البيت أو المدرسة أو الجامعة أو الد زب
أو الوزارة أو المؤسسة التي يعمل بها؟!!

لكن نحن نتربي على الخوف ، نولد في الخوف
ونموت في الخوف، نحن نخاف السلطة التي تحكمنا،
ويمكن أن تشردنا وتجوعننا وتحبسنا، لكن السجن قد يك ون
أخف وطأة من تشويه السمعة الأدبية أو الإبداعية لم ن
يتجاوزون الخطوط الحمراء في الثالثون المحمر.

القاهرة/١٥ يناير ٢٠٠١

الزوجة المطيعة

- قال لي أبي وأنا طفلة.
- أن مريم العذراء كانت طاهرة.
- حملت لقب زوجة الإله وأم الإله.
- قال أبي كوني مثلها.
- ولا تكوني مثل حواء الآثمة.
- هكذا أطعت أبي وتزوجت الإله وأنجبت الإله.
- إلا أن الناس رجموني بالحجارة.
- قطعوا رأسي فوق المقصلة.
- دقوني بالمسامير فوق الصليب.
- وناديت الإله زوجي وأنا أنزف النفس الأخير.
- وقلت يا إلهي لماذا تخليت عن زوجتك المطيعة؟!
- كما تخليت من قبل.
- عن ابنك المسيح.

أحلامها لم تتغير

جلست لأكتب وشريط الذكريات يعيد بي إلى طفولتي، منذ دخلت المدرسة لأول مرة، وطلب مني المدرس أن نكتب أسماءنا فوق الكراسة، كتبت اسمي نوال، وإلى جوارهِ كتبت اسم أمي زينب، هكذا دربتني أمي على الكتابة قبل أن أدخل المدرسة. لكنم لم درس انتقضا غاضبا حين رأي اسم أمي. أمسك القلم وشد طبع على هـ بالحبر الأحمر بلون الدم. وقال لي: يا حمارة اسم الأم لا يكتب. أكتبي اسم أبيك وجدك والد أبيك. كتبت كلمة "السعداوي" ويدي ترتعش بالعغض. ب. إنه اسم جدي الذي مات قبل أولاد رجل غريب عذبي لا أعرفه، وأمي التي أعرفها وأحبها يشطبون على اسمها. منذ تلك اللحظة بدأت أحلم بعالم آخر لا يشد طبون فيه على أسماء الأمهات، ولا أحد يسألني من هو أبوك؟ وما هو دينك؟ وما هو جنسك؟ وما هي جنسيتك؟ وما هي هويتك؟ وما هي عائلتك؟ وغيرها من الأسئلة التي لا نكف عن سماعها منذ أن نولد حتى نموت.

في قريتي وأنا طفلة كنت أري الأطفال يرتعدون
ويموتون كالكتاكيت قبل أن يبلغوا العام الأول من العمر،
من حولي أري وجوه النساء ضامرة مشققة محروقة
بالشمس ، أجسامهن داخل الجلابيب السوداء المترتبة،
يخرجن قبل الفجر إلى الحقول حافيات، يشتغلن بالفئوس
في الأرض ثم يعدن عند غروب الشمس. أشد هدهن
عائدات على الطريق الزراعية مع البهائم، ما أن يدخلن
حتى يشعلن الفرن، أو الكانون، ويبدأن الطبخ والخبز
والغسيل والكنس، ثم يحملن الزلع فوق رؤوسهن ليدين
الماء من النيل، وقد العشاء يجلس الرجال والأولاد
والذكور يأكلون، بعد أن ينتهوا ويشبعوا تجلس النساء
والبنات ليأكلن ما بقي من الرجال والأولاد.

وفي أول أيام العيد أري النساء داخل جلابي بهن
السود المترتبة سائرات إلى المقابر حيث يبكين على
الموتي، تبكي الأم طفلها الذي صعدت روحه إلى السماء
بسبب الجوع أو المرض، وتبكي الزوجة زوجها الذي مات
بالبلهارسيا ، أو أخاها أو أباه الذي ذهب إلى الحرب ولم

يعد، أو ضربته سيارة بسرعة على الطريق، أو مات
في السجن أو هاجر ولا تعرف له طريقاً.

كان ذلك في القرن الماضي في الأربعينيات. اليوم
نحن في القرن الواحد والعشرين وبداية الألفية الثالثة.
رغم ذلك حين أزور قريتي تبدو وجوه النساء كأنما لم
تتغير، وجلاليهن السوداء المتربة هي التي رأيتهن منذ
ستين عاماً، وبكاؤهن ونحيبهن. في المقابر أول يوم العيد
هو البكاء وهو النحيب. كأنما لم يتغير شيء في القرية.
إلا أن مساحات الخضرة أصبحت أقل مما كانت، زحف
المباني من الطوب كالأورام السرطانية، وأكلت الزرع
والحقول. لم تعد الشمس تدخل بيوت القرية كما كانت
تدخل وأنا طفلة. أصبحت النوافذ مسدودة بجدران البيوت
المجاورة. أصبح الهواء ثقيلًا بالدخان والغبار، والأزقة
الضيقة أصبحت مسدودة بالسيارات المستوردة من كل
نوع أمام كل بيت من الطين سيارة وكوم من السد باخ أو
القمامة.

أبنة عمتي زينب تبدو امرأة عجوز مجعدة الوجه
ضامرة الجسم متورمة المفاصل تجلس في يمدخل البيت

أمامها جهاز تلفزيون فوق منضدة خشبية مشقة. تتابع
بعينها المضعضتين فيلماً أمريكياً تتلوي فيه أجساد نساء
نصف عاريات يطلق الرصاص في كل اتجاه. وتعرض
القرية بأصوات عشرات الرجال يؤذنون للصلاة من فوق
مآذن الجوامع ركبت على هـ الميكروفونات، ترتفع
أصواتهم إلى السماء، لا ينافسها في الارتفاع إلا
الاعلانات عن سجائر مالבורو وكوكاكولا وسفن أب
وسبرايت على أعمدة الطرق الزراعية.

يتخلل عرض الفيلم مقاطع من الإعلانات عن
غسول الشعر الأمريكي سان سيلك، تظهر امرأة عارية
تحت الدش تغسل شعرها بالشامبو ذي الرائحة
الغزيرة، تطل ساقاها البيضاء من تحت الماء، يلي ذلك
فقرة قصيرة دينية، يظهر شيخ وقور يتكلم بصوت
رصين، يمدح حجاب المرأة وطاعتها لزوجها،
واحتشامها درءاً للفتنة ثم تعود الفقرة الإعلانية ونرى
امرأة لها شفتان مغيرتان تحركهما في دلال وتضغط
على هما بقلم روج أحمر مستورد.

طوال هذا الوقت كله تجلس ابنة عمتي زينب امام الشاشة، تشهد الصور المتعاقبة أمام عينيها، ومن باب الزربية المفتوحة تطل البقرة أيضاً تتابع الصدور فوق الشاشة المضيئة. تمسح زينب حبات العرق فوق جبينها بطرف طرحتها السوداء. مفاصل أصابعها متورمة مشققة بمقبض الفأس حفرت به الأرض السنين. أكثر من نصف قرن.

عيناها سقطت رموشها. جفت فيها الدموع. تقرب منها من أذني وتهمس: "من ستين سنة وأكثر لما كنت علي ه صغيرة في المدرسة الابتدائية كان نفسي ابقى ضكطكورة علشان أهرب من العيشة السوداء، لكن خلاص الحلم راح، اشتغلنا زي العبيد في الأرض علشان نعلم أولادنا في المدارس، ودخلوا الجامعة واتخرجوا بعد التعب والشقاء في المذاكرة، وتعبنا وشقانا في الأرض، وأهم زي ما انتي شايفاهم، قاعدين جنبنا في البيوت من غير شغل، أو واقفين صايعين في الشوارع، ما فيش شغل ولا وظائف، ولا الأرض بقت تجيب منها ولا تمن الشغل فيها، زمان كنا بنزرع أكلنا ونأكل

عيشنا، دلوقتي بقينا نشترى العيش ونشتري الأكل، حتي
القول المدمس اللي كنا بنزرعه في أرضنا بقينا نشتره
في علب جاية من بلاد بره ، بيقولوا على ها كاليفورنيا.
أراها ترمقني بعينيها الذابلتين كأنم ما تسد أألني، ولا
أعرف ماذا أقول لها، وماهي أحلام ي التي يمكن أن
أحدثها عنها في بداية الألفية الجديدة؟ هل أقول لها إن
هناك نهاية لهذا البؤس الذي تعيشه وأهل القرية؟ هل
أقول لها أن الأحوال تزداد سوءاً عاماً وراء عام؟ أن
مصر تتوء تحت عبء الديون الخارجية، وأن هناك عجز
في الميزانية العامة، في التجارة والصناعة والزراعة، إن
مصر تسد .تورد طعامها .، إن الفقراء يزدادون
فقراً، والاعنياء يزدادون ثراء، وإن الفقر يصيب النسب ماء
أكثر لأنهن الشريحة الأضعف، الشريحة الأضعف
،الشريحة التي تطرد من سوق العمل بأجر بسبب البطالة
، تحت اسم العودة إلى حظيرة الدين ، هل أقول لها أن
العالم يحكمه نظام فاسد قائم على القوة وليس الحق، وأن
٤٤٣ رجلاً فقط في العالم يملكون نصف ما يملكه سبعة
بليون من سكان الأرض؟ وأن هؤلاء الذين نتجرون

ويتاجرون في الأسلحة يشعلون الحرب والفتن بين الناس
تحت اسم اختلاف الدين او العرق أو الاثنية أو الهوية؟!
وأنهم هم الذين يتاجرون بالمخدرات والعقاقير والأدوية
والبتروول وصادام الحضارات؟ وأن الحكومات المحلية
تعمل معهم ضد مصالح الأغلبية من البشر. هل أطلب
منها أن تعمل أكثر هي التي لم تكف في حياتها عن العمل
كل يوم من الشروق إلى الغروب؟

هل أقول لها أن المقهورات والمقهورين في بلاد
العالم قد بدأوا يخلعون عن عقولهم الحجاب، يكتشفون
الخدعة ويثورون ضد النظام العالمي الجديد والقديم، إن
مظاهرات سياتل تتكرر في كل بلد، وإن الدواجز بين
البشر سوف تسقط ويسقط معها النظام الدولي؟!

هل أشرح لها ماذا حدث في سياتل؟ هل أقول لها
إن أحلامي منذ الطفولة هي أحلامي، وأنا في حين أن
أشهد سقوط هذا النظام غير العادل؟ هل أقول لها أنه
هي زكية بطلة روايتي "الإله يموت في حضن"، زكية
المرأة المكشوفة التي التي استطاعت أن تتحدى

العمدة، وتكشف الصلة الخفية بين السلطة السياسية والسلطة الدينية في القرية؟

ثم دق جرس التليفون فوق مكتبي. جاءني صوت المحررة من لندن تسألني عن المقال. قلت لها اكتب نصفه فقط وباللغة العربية. قالت أرسله بالفاكس، وسوف نجد له مترجماً، ويمكنك إرسال النصف الباقي غداً حتى يمكن نشر المقال بعد غد.

إلا أنني لم أكتب النصف الآخر من الماقل. كنت أعرف أنني قلت ما أريد في النصف الأول. إن أحلامي لم تتغير منذ كنت طفلة صغيرة في القرية، تحلم بالحرية تحلم أن الفروق بين البشر قد اختفت، فلا شيء يفرق المرأة عن الرجل، أو الأب عن الأم، أو الولد عن البنت، أو المسلم عن القبطي، أو العامل عن الفلاح عن العمدة. ألسنا جميعاً أولاد وبنات تسعة - كما كانت جدتي الفلاحة تقول - (تسعة يعني تسعة شهور حمل داخل الرحم). يستوي في ذلك الملك والغير والغني والفقير والرجل والمرأة. صوت جدتي لا زال يسري في أذني - رغم مرور أكثر من ستين عاماً - ربنا هو العدل عرفوه

بالعقل" وإذا كان الله هو العدل فما الفرق بين دين ودين؟
لماذا لا تلغي إذن خانة الدين من بطاقات الشخصيات؟!
ولماذا يشطبون على أسماء الأمهات فوق ك راريس
التلاميذ والتلميذات؟! السؤال الملح لم يفارق عقلي منذ
دخلت المدرسة.

القاهرة ٢٠٠٠

الخيال الذكوري المبتور

في الأدب الشائع

الخيال المبتور في نظري أكثر خطورة من الجسد المبتور الاعضاء. وقد كثر الكلام في بلادنا عن بتر جزء من الجسم في عمليات الختان الشائعة للإذنه والذكور. لكن ناردأ ما يتكلم أحد عن بتر الخيال في الأعمال الأدبية الشائعة.

لاشك أن بتر الجسد عمل غير إنساني أو عملي إجرامي. خاصة إذا وقع على طفل أو طفلة لا تمك القوة للدفاع عن نفسها أو عن نفسه.

لكن بتر الخيال أخطر، لأن الناس ترى الجسد وتتألم لألمه، لكن الخيال لا يراه أحد. الخيال لا يذرف الدم عند البتر، ولا يتحدث عنه أحد، رغم أن الجسد بدون خيال جسد ميت أو شبه ميت، والمجتمع بدون خيال جسد مجتمع عاجز عقيم، فالخيال هو القوة الدافعة وراء الأبداع في العلم والطب والأدب والسياسة

والاقتصاد والجنس والفلسفة. الخيال هو قوة اكتشفنا
المستقبل والتنبؤ به.

حرية الخيال وسلامته واكتماله هي الوقاية الحقيقية
للمجتمع من قوِي العنف والإرهاب، وحركات القهر
والعودة إلى التخلف والوراء.

الخيال هو مشروع التمرد والثورة ضد الظلم
والجهل وفساد الضمير، وازدواج المقاييس. والثنائيات
الباطلة، التي نشأت منذ عصور العبودية حين انقسم
المجتمع إلى أسياد وعبيد. واندرجت النساء مع الماشية
تحت بند العبيد.

خطرت لي هذه الأفكار وأنا اقرأ رواية الأعش باب
التي ثارت حولها الضجة في مصر في الشهر الماضي،
ثار بعض الناس وتظاهروا ضد الرواية. لأن فيها بعض
عبارات قالوا إنها تمس المقدسات الدينية.

حين قامت الضجة لم أحاول الحصول على نسخة
من الرواية أو الكتابة عنها لكنني وقفت بالفطرة والطبيعة
مع حرية الإبداع وإطلاق العنان للخيال دون حدود أو

قيود. إن هذا هو شرط تاريخي في مجالات الاختراعات العلمية والفنية على حد سواء.

كنت على يقين أن الضجة سوف تنتهي ، بعد أن تنتصر حرية الإبداع والخيال على كل ما يعوقها أو يقيدتها تحت مسميات أخلاقية ودينية.

ثم وقعت تحت يدي بالصدفة نسخة من الرواية. جاءتني هدية من شابة سورية. أرادت أن تعرف رأيي في الرواية. لهذا قرأتها باهتمام شديد، أدركت بعد قراءتها أنها لا تمس المقدسات الدينية، لكنها رواية مبتورة الخيال، تتحول فيها الإنسانية المرأة إلى مجرد أنثى تملك فخذين من الرخام الناعم. سواء كانت عشيقة محتقرة أو حبيبة مقدسة.

تبدأ الرواية في أول صفحة تقول: أنا الصياد الذي لا يرتاح أبداً، والتي اقصدها تطير أمامي ، تقودني إلى ما وراء الجبال، عبر بحار بلا شمس وموس، داخل الليل والموت. يقتبس المؤلف هذه الكلمات من رجل اسمه هومان ملفيل. في أول صفحة نرى بطل الرواية يجري وراء فتاة ترفع الريح ثوبها عن فخذين كالرخام ناصعي

البياض مكتنزين باللحم، يناديها باسم طفلي الملائكية ،
اسمها آسيا الاخضر ، بطل الرواية اسمه مهدي جواد،
له أيضا عشيقة اسمها فلة، يصفها بالشهوانية والدمامة
والاحتقار، امرأة يقلو عنها ثرثرة مبذولة،وقد رأي ما
بين فخذيها وهي تصعد الشجرة فأثارت شهوته.

منذ الطفولة ندرك أن مهدي جواد ممتلئ برغبة
عارمة في الصيد وقتل الطيور ولاحيوانات،وقدامت
نزعة الصيد إلى جنس النساء في شبابه مع ذلك يقدّم
نفسه كماضل وطني يؤمن بالاشتراكية والعدالة في حياة
البشر ، لكن خيال المؤلف مبتور لا يري من البشر إلا
نصفهم فقط وهم الرجال الذكور ،لان النساء في الرواية
مجرد كائنات خلقها الله من أجل إشباع الغريزة الجنسية
عند بطل الرواية وزملائه المناضلين الذين هربوا من
الاستبداد والقمع في بلد دهم العراقة،وهما أجروا إلى
الجزائر.

يدور الحوار بينهم كالتاليك

- خلق الرجل للمبيت في أكثر من عش تلك
رغبة ربنا وأنبيائه والمرسلين.

- أي عش يفضل وريث الأنبياء

- الدافئ والضيق.

تتعدد العلاقات الجنسية في حياة الرجل منهم تحت اسم الطبيعة الذكورية والدين، رغم سخرية البطل م ن بع ض التناقضات في القيم الدينية والسياسية التي تحكمهم م. إلا أن خياله عجز عن إدراك التناقض في علاقته بالنساء، أو إدراك ما هي الطبيعة الأنثوية، فالرجل في نظره له طبيعة الإنسان الذي يفهم القضايا السياسية الكبرى، أما المرأة فهي ليست إنساناً، ولا تفهم هذه القضايا السياسية، وهي إما طفلة ملائكية لإشباع عاطفة الرجل العذرية المبتورة، أو أنثى محتقرة شيطانية متعددة العلاقات بالرجال.

حين تبكر هذه الطفلة الملائكية تصبح جسداً أنثوياً ناعماً أو مؤخرة حريرية وحمله ثدي، رغم أن هذه الفتاة أمسكت السكين وكادت تقتل عمها من أجل مهدي جواد، لكن مهدي جواد لا يدرك هذا الفعل الانساني الكبير من ناحيتها، ويظل يراها مجرد جسد أنثوي، ويدوس عند الغضب على كرامتها، ويمارس الجنس مع غيرها من النساء دون أن يشعر

بالخطأ ،ويتحدث عن العدالة في كل شيء إلا العدالة في علاقته الخاصة بالنساء. يعجز خياله الذكوري عن تصورها علاقة عادلة ديمقراطية بين الرجل والمرأة ، مع ذلك يتحدث عن غياب الديمقراطية في الدولة التي هرب منها، لا يدرك أن غياب الديمقراطية تحدثت قبلة البرلمان ترتبط بالديموقراطية في غرفة النوم.

تمتلئ غرف نوم الرجال في الرواية بالدكتاتورية ،والأحادية الفكرية ،والانفصام بين لاهياة العامة والحياة الخاص، دون أن يدرك أحدهم (بما فيهم بطول الرواية) أن هذا التناقض في حياتهم ينبع من خيال ذكوري مبتور موروث منذ نشوء العبودية أو مايسمى النظام الطبقي الأبوي، رغم سخريتهم من الدين في حياتهم العامة فإنهم يستخدمون الدين في حياتهم الخاصة لتبرير الازدواجية الاخلاقية في علاقتهم كان مهدي جواد يدارب الاسد تباد والطغيان في العراق، إلا أنه في الفراش لا يري طغيانه، إنه ذكر متضخم الذكورة مستبد في ذكورته، سواء مع الحبيبة الصغيرة ذات الفخزين من الرخام ، أو مع العشيقة الدميمة الزفرة المرذولة.

يقول البطل عن النساء كل النساء أن لا شئ يهمن في الرجل إلا هذا (يشير إلى ذكورته).وينطق ألفاظاً جارية بالنساء، أكثر فظاظة من تلك التي يصف بها الحاكم المستبد في بلده، فهو يخاف منه رعد البعد، وهو يخاف أيضاً من الله، رغم كونه في السماء البعيدة أبعد من الحاكم في العراق، أو رجال الشرطة في الجزائر ، ربما لأن عقابهم أقرب إليه وأسرع من عقاب الله. إن عقاب لرجال الشرطة يتجسد في البنادق والرصاص والهرات، لكن العقاب بعد الموت لا يتجسد إلا في الخيال.

حدث مرة أن تعارك الرجال المهاجرون في ساحة بونة، اشتبكوا في معركة يضربون بعضهم البعض بالسكاكين والشوك وزجاجات البيرة، أصيب مهيار صديق مهدي جواد بجراح وهو يدافع عن مهدي في غيابه وقال مهيار لبطال الرواية:نحن ندافع عنك في ساحة بونة ونجرح، وانت تعانق حبيبته آسيا الاخضر على البحر؟!!

يضحك مهدي جواد ويسخر من حبيبته آسيا الاخضر ومن كل النساء، يعبر عن احتقاره لعلاقة الحب وعلاقة الجنس مع الحبيبة الملائكية والعشيقة الشيطانية على حد

سواء، ويقول لمهيار: وهل تركوا لنا أولاد القحبة غير ذلك؟
كلمة "ذلك" تعني العلاقة بالنساء، أما أولاد القحبة فهم أعوان
الحاكم المستبد في العراق ، الذين حالوا بينهم وبين النشاط
السياسي المحترم ، ولم يبق أمامهم إلا النشاط الجنسي مع
النساء.

تمتلي الرواية بكلمات من نوع آخر ، أولاد الزواني ،
أولاد القحبة، يتوجه السباب في معظم الأحيان إلى المراهقة
القحبة أو الأم الوالدة وأعضائها، أو المراهقة الزانية التي
يمارسون معها الجنس في الليل ثم يلفظونها كالبصقة في
النهار.

أليس هذا هو الخيال الذكوري المبتور الذي لا يري
الرجل إلا حيواناً سياسياً، أو حيواناً جنسياً، وليس له نشاط
آخر في الحياة.

يقول أحدهم في الرواية عن العشيقة "فلة" التي تم مارس
معهم الجنس، تشبع حاجتهم وحنينهم إلى الوطن والأم، تعالج
جروحهم في المعركة في ساحة بونة بالغسيل والمطهرات،
تزيل عنها الصدير والدم ، تسهر بجانبهم طول الليل وهم
مرضي بين الحياة والموت، يدفنون رؤوسهم المتعبدة في

صدرها الكبير الحنون كصدر الأم، لكن ما أن يتماثلوا للشفاء وينهضوا من الفراش حتي يلفظونها كالבصقة، يقولون عنها امرأة مرذولة، امرأة مبولة، وعاد لتفريغ التوتر وما هو زائد عن الجسم، يقذفون فيها كل ما تطرده أجسادهم.

يظهر واضحاً في الرواية أن العلاقة الإنسانية الوحيدة هي بين الرجل والرجل، الحب الوحيد المحترم هو بين مهدي جواد وصديقه مهيار، هذا الحب أكثر عمقاً وأكثر صدقاً واحتراماً من حبه لآسيا الأخضر الحبيبة الملائكية!

أما العشيقة "فلة" فهي على علاقة أيضاً بكوميديار الشرطة في العراق، إنه صديقها من "النوع السرير" بلغتهم التهمكية على المرأة التي ترعاهم كالأم، مع ذلك يلجأون إليها لتتوسط لدي الكوميسار لحمايتهم من الشرطة.

هذه المرأة الساقطة في نظرهم تمنحهم الحب والحنان، تعرض نفسها للخطر والموت من أجل إنقاذ حياتهم، أما هم فلا يبذلون أي جهد لحمايتها، بل يضحون بها مثل كبش الفداء من أجل إنقاذ أنفسهم، ويقولون عنها امرأة سريرية ساقطة مرذولة تمارس الجنس معهم ومع رجال الشرطة. بعضهم

يتشكك في كونها جاسوسة وربما تفشي أسرارهم إن سألها
الكوميسار عن علاقتها بهم.

يخاطب هؤلاء الرجال بعضهم البعض بكلمة يا حلو وف
ربما يعرفون بعضهم البعض أكثر مما تظهره الرواية، أما
الفتاة الطفلة الملائكية حبيبة بطل الرواية فهي تقدم له الحب
والجنس واللذة في سرير الحب النظيف، وهي الطعم في
السنارة الذي يأكله السمك، هي تقع في المصيدة لأنها أحب
مهدي جواد بصدق وإخلاص، يطاردها رجال اسرتها حتى
تشهر السكين في وجه عمها، تدافع عن مهدي جواد حتى
آخر نفسومع ذلك لا تحظى آسيا الأخضر بما يحظى به
صديقه مهيار من الاحترام أو الصداقة أو حتي الحب، هو
يرأها مجرد أداة لتفريغ ما هو زائد عن الجسد، وسيلة لنسيان
الهزيمة والاحباط والقمع السياسي، وهي تراه إنساناً كاملاً
عاقلاً شريفاً مناضلاً وطنياً، يختلف عن الرجال الشرقيين.

كلمة "الشرقيين" هنا تعبر عن رؤية مهدي جواد للشرق
، كأنما الشرق هو المسئول عن تخلف الرجال وليس النظام
الطبقي الأبوي الذي يحكم الشرق والغرب على حد سواء ،
يعجز خيال الرجل عن إدراك حقيقة الظلم في الشرق

والغرب، يقع في هذه الثنائية الباطلة التي تقسم العالم إلى شرق وغرب، وتجعل الغرب أعلى مكانة من الشرق لمجرد أنه غرب، بمثل ما تجعل الرجل أعلى مكانة من المرأة لمجرد أنه ذكر.

رغم ما يعلنه بطل الرواية أنه غير مؤمن بالمقدسات الموروثة. إلا أنه في الحقيقة مؤمن بها فيما يخص العلاقة بين الرجال والنصف الآخر من المجتمع وهن النساء، إذ أنه يؤمن بالثنائيات البطالة ويعجز خياله عن إدراك التناقضات فيها.

أخطر ما في الرواية أنها تؤكد الازدواجية الأخلاقية، والنظرة الدونية لنصف البشرية من النساء، هذه الرواية تبتر الخيال أكثر مما تبتر إنسانية المرأة، وإذا كان الخيال الأدبي مبتوراً أصبح المستقبل مبتوراً يمشي على ساق واحدة. وينظر إلى الأمور بعين واحدة هي عين الذكر.

القاهرة ٢٠٠٠

ذاكرة النسيان

- كم اتسعت المسافة بيننا وبين نفسنا.
- لم تعد نفسنا هي نفسنا.
- أصبحنا نحمل نفوساً أخرى.
- وعقولاً أخرى.
- وأسماء لا تدل على نا.
- ونحن نساء ولسنا رجالاً.
- فلماذا يخاطبوننا بصيغة المذكر؟
- ولماذا نحمل فوق أجسادنا أسماء ذكور؟
- يقولون أبنة فلان أو حرم فلان أو أم فلان.
- ويطلبون منا أن نشكرهم ونشعر بالفخر.
- والرجل منهم إن حمل أسم أمه يشعر بالعار.
- وإن حمل اسم زوجته يموت من الخزي.
- فماذا نفعل نحن النساء يا نساء؟
- ألا نعود إلى أنفسنا؟
- نتذكر أسماءنا وتاريخنا.
- ونستعيد ذاكرة نسياتنا.

متي أشك في نفسي؟

- رأيتهم يتنافسون لمصافحة المسئول الكبير .
- يدوسون على أقدام بعضهم البعض .
- يسيل لعابهم بكلام معسول .
- أو مسموم .
- يعملون في الحكومة والمعارضة وكل شئ .
- يجلسون في الصفوف الأمامية .
- يقبضون الماهية والعمولة والحوافز .
- يحصدون الجوائز .
- في الادب والعلم والدراسات السياسية والاجتماعية .
- رجال ونساء ينطقون الفصحي بلكنة أمريكية .
- يعيشون خارج الوطن وداخله .
- يحملون لقب مفكرين أو مثقفين أو غير ذلك .
- ويسألونني أين أنت يا أنت؟
- وأقول لهم لن أحصل أبداً على جائزة .
- وإن حصلت على ها في يوم
- فسوف أبداً الشك
- في نفسي .

القاهرة ١٩٩٨

النفقة للرجل

- سمعت زوجها يهددها بالطلاق.
- أو يصفعها على وجهها مهدداً
- بقطع النفقة.
- وهي تتمسح عند قدميه مثل قطة جائعة
- من أجل النفقة.
- يفرض على ها الطاعة مقابل الانفاق.
- وتدوخ في المحاكم السبع دوحات.
- السبع سنين
- لتحصل على الملايم.
- وجاءني الزوج يحمل الهدايا والمهرز
- أعدتها كلها إليه وقلت:
- الهدية رشوة والمهر إهانة.
- وجاءني الزوج الثاني يهددني بال دخول في بيت
- الطاعنة.
- كانت نكتة ضحك لها الجميع.
- وقلت له خلعتك عني حسب قانون الخلع.
- ولتذهب أنت إلى المحكمة إن شئت
- وتطلب النفقة.

القاهرة ٢٠٠٠

سأمشي حتي النهاية

- سأمشي حتي النهاية.
- لن أتوقف أبداً في منتصف الطريق.
- ولن أعود أدراجي إلى الوراء
- لأقول نعم.
- إلي آخر المدي سأمشي.
- مرفوعة الرأس.
- لا أخشي قطعها.
- لن أفقد بموتي
- إلا الإغلال
- وإن اختفي اسمي في التاريخ
- وإن أهالوا على التراب.
- فهناك من يحلمون بصمتي.
- وكلمتي وصورتي.
- لأنني امرأة لم تلد عيلاً
- ترسلهم إلى الحرب
- ليموتون.
- بل ولدت كباراً عاشوا

- رغم الحروب
- ونساءً مبدعات
- غيرن العالم
- والتاريخ.

القاهرة ١٩٩٨

رحلة الصيف إلى الجنوب

أندهشت صديقتي الكاتبة المصرية البارزة حين قلت لها إنني مسافرة إلى الجنوب الإفريقي، كانت هي تعدها حقائبها إلى الساحل الشمالي حيث القيل الكيرة على بحرية مارينا. إن الحر في القاهرة لا يطاق في شهر أغسطس مع زيادة الرطوبة. لم تكن المكاتب البارزة (الحاصلة على درجة الدكتوراة في الجغرافيا أو التاريخ) تعرف أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، كما اعتقد بعض الآلهة القدماء، وأن المدار الذي تدور فيه الأرض له شكل بيضاوي مائل، وحين تكون الشمس رأسية حامية فوق أرض مصر خلال شهر أغسطس فإنها تصبح فوق الجنوب الإفريقي مائلة حانية حنان الأم أو الأب الذي يفهم معنى الأبوة الحديثة، قلت لصديقتي الكاتبة البارزة التي تدرس لطلاب الجامعة الجغرافيا أو التاريخ "أغسطس هو شهر الشتاء في الجنوب الإفريقي وليس الصيف". أندهشت الكاتبة وقالت: "أهكذا تتقلب فصول السنة فوق القارة الواحدة؟".

كانت الدعوة قد جاءتني لحضور معرض الكتب
الدولي الذي يعقد في زيمبابوي كل عام خلال أجم
الشهور في الشتاء، وهما يوليو وأغسطس، لم تكن
صديقتي (الاستاذة الجامعية والكاتبة المعروفة) تعرف
أن "هاراري" هي عاصمة زيمبابوي، وإنما تقع في
أقصى الجنوب الإفريقي شمال مدينة جوهانسبرج. نطقت
كلمة هاراري بطرف لسانها وقلب الرء إلى الغاء (مثل
بنات الارستقراطية المصرية الفرنسية القديمة) وقالت يا
عزيزتي لن يكون لإفريقيا وجود فوق خريطة العالم في
القرن الواحد والعشرين، إنها تغرق في الجهل والمرض
والحروب الأهلية. قلت لها: "وماذا عن مصر؟"، انتقضت
وصاحت: "لا! مصر حاجة تانية! مصر ليست في إفريقيا
يا عزيزتي! مصر في الشرق الأوسط ووض البدر
الأبيض المتوسط!".

قلت لها: "مصر في إفريقيا وفي شمال إفريقيا
أنظري إلى الخريطة!!".

إلا أن صديقتي الكاتبة البارزة و الأستاذة الجامعية
لم تكن تريد الاعتراف بالجغرافيا والواقع والحقيقة
،وظلت تقول مصر ليست من البلاد الإفريقية.

علاقتي بإفريقيا أشبه ما تكون بالعلاقة العضوية،
تجذبني إلى منابع النيل رائحة الأرض والماء والزرع،
كأنما ولدتني أمي في قلب أدغال أوغندا على أحد
شواطئ بحيرة فيكتوريا، وقد عشت في قلب أفريقيا حين
اشتغلت بالأمم المتحدة في اللجنة الاقتصادية لإفريقيا عام
١٩٧٩ وكان مقري أديس أبابا،واقترضى العمل أن أسافر
في جميع البلاد الإفريقية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً،
وكان الانتقال من بلد إفريقي إلى بلد إفريقي آخراً
وأن يمر بإحدى العواصم الأوروبية. ولكي أصل من
أديس أبابا إلى السنغال أو النيجر وساحل العاج لابد أن
أطير شمالاً إلى القاهرة ثم أجتاز البحر الأبيض المتوسط
إلى باريس،ومن باريس أركب الطائرة إلى دكار في
السنغال. لكن اليوم،وبفضل مصر للطيران أصبحنا نظير

مباشرة من القاهرة إلى هاراري دون المرور على أوروبا.

أول مرة سافرت إلى هاراري عاصمة زيمبابوي كان في شهر يوليو ١٩٨٥، بعد انتهاء المؤتمر الدولي للمرأة الذي عقد في نيروبي ، كنا مجموعة من الكاتبات الإفريقيات تزيد عن الثلاثين كاتبة وأديبة وشاعرة، قررنا أن نؤسس معاً جمعية للكاتبات الإفريقيات، وتم اختيار مدينة هاراري لتكون مصر اللقاء الأول، وسافرنا معاً من نيروبي إلى هاراري ، وفي فندق "مونو موتاب" (باسم إحدى الإلهات الإفريقيات القديمات) جلسنا في قاعة

" إن . دابا " وأعلن . إنش . إماء جمعية الكاتبات الإفريقيات، وقد مضى على هذا اليوم أربعة عشر عاماً حين وجدنا أنفسنا مرة أخرى في القاعة ذاتها والفندق ذاته. وربما الوجوه والأسماء ذاتها، زاد على ذلك بعض الشابات الكاتبات من الكاميرون وناميبيا، وبوتسوانا، وغانا، ومالي، وتنزانيا، وزامبيا، وأوغندا والصومال، بلغ عددها أكثر من خمسين كاتبة، وبحضرة الجمعية القديمة التي أقمناها عام ١٩٨٥ فلم نجد لها أثراً، أي من

راحت؟! قالت الكاتبة الإفريقية من غانا واسمها " أما آث ما
اودو"، لقد تفرقنا يا نوال ،وتبعثرنا في القرات من امريكا
الشمالية إلى اسبانيا، وكندا، هرباً من الحكومات
الدكتاتورية في بلادنا الإفريقية". إنها "آما آث مار وأود"
إحدى الكاتبات الشهيرات الإفريقيات التي كانت وزيرة
للثقافة في غانا، وبانقلاب الحكم اضطرت إلى الرحيل
إلى أمريكا الشمالية حيث أصبحت أستاذة زائرة في
جامعة بولاية نيويورك. وأيضاً الكاتبة الإفريقية من كينيا
واسمها " ميشيري موجو" التي هربت من الاضطهاد في
كينيا وبحثت عن عمل خارج وطنها في كندا واسبانيا،
ثم استقر بها الحال في جامعة سيراكيوس بالولايات
المتحدة، والكاتبة " سيذيو ماجونا" من جنوب إفريقيا التي
هربت من حكومة الآبار ثايد العنصرية، وحلست على
وظيفة بالأمم المتحدة في جنيف وغيرهن الكثيرات من
الأدبيات المبدعات في إفريقيا اللاتي أنقذن حياتهن من
برائث الاضطهاد في أوطانهن، وهن ماجرن إلى سبيل الله
الواسعة ، حيث أثبتن كفاءتهن الأدبية أو العلمية وحققن

شهرة عالمية أو مكانة بارزة في العالم، لم يحد ظيها
بعض حكامهن.

قلت لآما آثا أودو وميشيري موجو وسينيو ماجونا:
"لم اذا لا نعيد تأسيس جمعيتنا القديمة للكاتبات
الأفريقيات؟". وفعلاً جلسنا في القاعة ذاتها التي جلسنا
فيها منذ أربعة عشر عاماً، وأعلننا قيام جمعية الكاتبات
الأفريقيات، عدد المشاركات في التأسيس الجديد خمسة
وستون كاتبة، والتاريخ ٢ أغسطس ١٩٩٩.

تلفت حولي أبحث عن كاتبات من إفريقيا الشمالية فلم
أجد كاتبة من المغرب أو تونس أو ليبيا أو الجزائر، ومن
مصر لم يكن هناك إلا أنا.

وقلت: " أين الكاتبات في الشمال الإفريقي؟!"، وقالت
ميشيري موجو: "المشكلة أن الكاتبات في شمال إفريقيا
يكتبن باللغة العربية، وقليل جداً من تترجم أعمالهن إلى
الإنجليزية أو الفرنسية".

كانت الكاتبة "تي تسي داجا ريمو" (من زيمبابوي)
قد قامت بحثاً في إحدى ندوات معرض الكتاب الدولي
٩٩ عن "مشكلة اللغة في التواصل بين الكاتبات

الإفريقيات"، إن معظم الكاتبات من إفريقيا اللاتينية
يشتهرن عالمياً يكتبن باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، أما
اللاتيني يكتبن باللغات الإفريقية المحلية فلا مكان لهن فوق
خريطة العالم. بعض آثار الاستعمار القديم والجديد.

لهذا كان أول هدف من الأهداف التي وضعتها
لجمعية الكاتبات الإفريقيات هو:

١- العمل على ترجمة أعمال الكاتبات من اللغات
المحلية إلى اللغات العالمية.

٢- تشجيع الكاتبات على الكتابة باللغة المحلية حتي لا
تت عزل الكاتبة عن أهل بلادها ،ومن بعد ذلك الكتابة
باللغات المحلية يمكن الترجمة بعد ذلك لمن تشاء.

٣- عقد الندوات الأدبية المشتركة بين الكاتبات
الإفريقيات على الأرض الإفريقية وليس في أوروبا
 وأمريكا.

٤- مناقشة الأعمال الأدبية التي تنتجها الكاتبات
الإفريقيات، وليس يتجاهلها النقاد الرجال.

أحدي الندوات في معرض الكتاب الدولي ٩٩ في
زيمبابوي ناقشت سرتي الذاتية" أوراق حياتي" التي ترجمت

إلى الانجليزية بعنوان " ابنة إيزيس " وقد دهشت حين علمت أن هذه السيرة الذاتية قد نالت الاهتمام الادبي من معظم النقاد في القارة الغفريقية (والأوربية والأمريكية) إلا الاصد دقاء النقاد في مصر، رغم أنها صدرت باللغة العربية منذ ٣ سنوات عن دار الهلال، وصدر الجزء الثاني منها العام الماضي عن دار المستقبل العربي مع ذلك لم يهتم بها ما في بلدنا إلا النادر القليل ، بل إن جمعية الكاتبات المصريات رفضت عقد ندوة أدبية لمناقشة هذه السيرة الذاتية، وقالت أحدي المسئولات بها " يا خبر إسود! دي سيرة ذاتية خطيرة".

منذ ثلاثين عاماً (وبالضبط عام ١٩٦٩) ، طرأت لدي فكرة إنشاء جمعية للكاتبات المصريات عرضت الفكرة على بعض الصديقات الكاتبات. وبدأنا تسجيل الجمعية بوزارة الشؤون الاجتماعية عام ١٩٧٠ ، وفعلاً ولدت الجمعية إلا أن انقلاب السياسة في عهد السادات في أدى إلى تجميد نشاط هذه الجمعية لأكثر من عشرين عاماً، ولم تستأنف عملها إلا في السنين الأخيرة.

تذكرت هذا التاريخ وأنا أشارك في ندوة معرض الكتاب الدولي في زيمبابوي واستمع إلى كبار النقاد في العالم يناقشون سيرتي الذاتية. تذكرت أيضا أن معرض الكتاب الذي يعقد بالقاهرة (كل عام في بداية الشتاء) لم يعقد ندوة واحدة لمناقشة أي كتاب من كتبي، ولم يسد مع شديئا من سيرتي الذاتية أو غيرها مؤلفاتي، وقد رفض عقد ندوة أتحدث فيها لرواد معرض الكتاب من الشبان والشابات، وقال أحد المسؤولين عن إقامة المعرض: يا خبر إسود ندوة لنوال السعداوي؟! دي كاتبة خطيرة!

أجمل ما شهدت في مدينة هاراري هذا العام هم أطفال المدارس الذين تجمعوا في مسرح "شيباوو" الإفريقي يوم ٣ أغسطس ١٩٩٩، فوق خشبة المسرح صعدت طفلة في الثانية عشر من عمرها وراحت تقرأ بعض الفقرات من أحد كتبي المترجم إلى اللغة الانجليزية، ثم شاركها بعض الأطفال من البنات والأولاد، وراحت تقرأ قصص رحيات قصيرة مأخوذة من روايات الادبيات الإفريقيات ومنها بعض روايات

وسط التصفيق الذي ملأ القاعة الفسيحة التي تضم أكثر
من ألف طفل وطفله وقفت وقفلت: " هذا يوم من أجمل أيام
حياتي،لانه يقع أرض إفريقيا،ولأني أري أم مامي وجوه ماً
نضرة سمراء البشرة عيونها تلمع بالفرح، وتذكرني بطفولتي
في قرיתי على ضفاف النيل".

هاراري-زيمبابوي

تخطيط النخبة المثقفة

رأيت صور الفتاة في الصحف التي فقدت عينها في مظاهرات الإثنين ٨ مايو ٢٠٠٠ بجامعة الأزهر، وهي لم تقرأ الرواية للمؤلف السوي التي أثارت المظاهرات، ولا تعرف شيئاً عن المعركة السياسية الدائرة تحت شعارات دينية.

ثم قرأت أن البوليس سيطر على الموقف، وتم حبس بعض الشباب رهن التحقيق.

إزاء هذه الأزمة التي تراق فيها الدماء وبعضهم صغار السن وأبرياء أود مصارحة القراء والقارئات بكثير من الهواجس وعلامات الاستفهام التي تدور في عقول الكثيرين:

١- ألا تعرف الحكومة الرؤوس الكبيرة التي حرضت الشباب على المظاهرات؟

ألا تظل هذه الرؤوس الكبيرة حرة طليقة تكتب في الصحف، وتخطب على المنابر وفي الأحزاب وفي أجهزة الإعلام المحلية والعربية والدولية؟!

٢- ألا تشترك النخبة المثقفة في هذه اللعبة السياسية الدينية، سواء النخبة في الحكومة أو المعارضة أو الهيئات غير الحكومية، أو ما يطلقون على أنفسهم "المستقلون"؟!

٣- ألم تتكرر هذه الأحداث المؤسفة الدامية، والتي يروح ضحيتها الأبرياء وينزف المغمورون الدماء، على حين تزداد النخبة تألقاً تحت الأضواء، يريقون الحبر الاسود فوق الورق بدلاً من الدماء الحمراء.

مما يدل على تخطيط الحكومة والنخب المثقفة أسد وق إليكم الأمثلة ،وأمامي الآن ثلاثة من الصحف الهامة الصادرة من مختلف الهيئات الحكومية أو الحزبية المعارضة أو المستقلة خلال الأيام الثلاثة ٩ ، ١٠ ، ١١ مايو ٢٠٠٠:

(أ) تعلن الحكومة ومؤسساتها الثقافية انها لم تصدر أي كتاب يمس الدين أو المقدسات ،بل العكس هو الصحيح، لقد تم نشر العديد من الكتب الدينية وكتب التراث بأسعار زهيدة،وقد تم إحالة رواية الكاتب السوري إلي لجنه لإعداد تقرير حولها.

(ب) لقد تم سحب الرواية، كما تم منع تداولها من الأسد وواق لأن بها عبارات تمس الدين والمقدسات.

(ج.) أكدت وزارة الثقافة أن الرواية لم تسحب من الأسد وواق ولا أي كتاب آخر، وأن اللجنة التي شكلت لانتهاج دفع للتحقيق في الرواية بقدر ما تهدف لتقديم قراءة متكاملة لها.

(د) أصدرت اللجنة المشكلة من المثقفين المستقلين بياناً يرفض لغة التحريض على العنف واغتيل الثقافة والمثقفين ووقع على البيان عدد كبير من كبار المثكرين والمثقفين والأدباء.

(هـ.) أصدر رئيس الوزراء حكمه بأن رواية الكاتب السوري تسيء إلى الإسلام، كما أن البيان الرسمي لوزارة الداخلية أصدر حكمه أيضاً بأن الرواية تضمنت عبارات ماسة بالمعتقدات الدينية، وقرر رئيس جامعة الأزهر أن الرواية تضمنت عبارات تسيء للمقدسات الإسلامية، وقدم احتجاجاً رسمياً لوزير الثقافة، ولمجلس الشعب، طالب فيه مصادرة الرواية، وإجراء محاكمة لمؤلفها السوري أمام القانون الدولي.

(و) إن المحرضين على اعتيال المتقنين وإهدار دمهم كانوا يعرفون من قبل أن الحكومة سوف تتراجع ، وقد دتراجعت بالفعل.

(ز) حين تواجه الحكومة هذه الازمات فهي لا تسخدم إلا الرصاص والهرافات والقنابل المسيلة للدموع- أي الوسائل الأمنية، ولا يسقط إلا الضحايا الأبرياء ،الذين ليسوا في الحكومة ولا في الاحزاب المعارضة، ولا من النخب المثقفة ولا من دعاة التفكير والاعتدال، ولا من المستقلين، بل تراق دماء الصغار الأبرياء ومنهم أطفال البنات لم يقرأن الرواية.

ألا يتكرر هذا الكلام في كل أزمة مرت بنا منذ لودنما وحتى نموت؟ والوجوه التي تتصدر دائماً هي الوجوه ، نراها على الشاشة والمجلات والصحف حكومية وغير حكومية؟! ربما تتغير مناصبها العليا من حين إلى حين أو تتغير شعاراتها ومقاعدها مع تغير اللحن الموسيقي، من الحكومة إلى المعارضة إلى الحكومة أو اللا معارضة! يمسكون العصا دائماً من المنتصف ولا نعرف موقفهم في وضوح. ونراهم في كل مكان بارز تحت الأضواء. سواء في

المجالس الحكومية أو الشعبية أو القومية العليا، سواء كانت مجالس تخص الديمقراطية أو التنمية أو المرأة والشباب أو حقوق الإنسان! تصدر قرارات التعيين فيها بقرار حكومي في أغلب الأحيان.

منذ أيام قليلة، بالضبط يوم ٢٤ مارس ٢٠٠٠ ج.م.عني خطاب رسمي مسجل من وزارة الشؤون الاجتماعية ترفض تسجيل جمعية النهضة الفكرية للمرأة المصرية. لماذا؟

لأن المقر لا يصلح! المقر به كمبيوتر وفاكس وتليفون ومقاعد للجلوس ونوافذ على الهواء الطلق والسماء. لم يذكر الخطاب الرسمي لماذا لا يصلح المقر. إلا أننا سمعنا شفاهة أن المقر ليس له مدخل مستقل عن صاحبة البيت وهي عضوة بالجمعية!

كانت الحكومة المصرية منذ سبعة وسبعين سنة أكثر تقدماً منها اليوم، فيما يخص النهوض بالمرأة، وفي منزل هدي شعراوي عام ١٩٢٣ تكون الاتحاد النسائي المصري، وفي منزلها ذاته الواقع في شارع قصر النيل رقم ٢ وفي الساعة الخامسة مساءً يوم الجمعة ١٦ مارس ١٩٢٣ تشكلت لجنة دائمة من النساء بلغ عدد عضواتها ٢٤ امرأة، انتخب

مجموعة منهن لحضور المؤتمر النسائي الدولي في رومانيا، وعلي رأسهن صاحبة المنزل (راجعوا جريدة الأهرام الصادرة في ١١ مايو ٢٠٠٠ صفحة ٧).

واليوم كيف تتخطى الحكومة هكذا؟ وهل ننسى الهجوم الضاري الذي شنته وزارة الشؤون الاجتماعية خلال العام الماضي (١٩٩٩) ضد تكوين الاتحاد النسائي المصري، والذي تشكلت من أجل تكوينه لجنة تحضيرية تزيد عن المائة عضوة وعضو، وكانت وزيرة الشؤون الاجتماعية (حينئذ) قد دحمت للفكرة منذ بدايتها، وأمدت اللجنة بقائمة الجمعيات النسائية في مصر التي يمكن ان تتضمن إلى هذه الاتحادات النسائية المصري؟!!

ربما يكون هذا التخطي هو حال الحكومات في معظم بلاد العالم. إن طبيعة تكوين الحكومات من الموظفين المطيعين أساساً لا تؤهلها للقيام بعمل خلاق أو جديد يقتضي إعمال العقل المستقل عن عقول الرؤساء أو أصحاب السلطة والنفوذ.

إن المشكلة الحقيقية في هؤلاء النخب المثقفة الذين يتخبطون مع الحكومة ويحملون لقب مفكرين أو مثقفين -

رغم أن معظمهم ليس له فكر مستقل أو رؤية فلسفية أو ثقافة
أو موقف نابع من الاقتناع الحقيقي، وليس الولاء لحكومة ما
أو حمزب أو فرد.

نحن نعيش هذه المأساة على الدوام، تتكرر في كل عهد
منذ الملكية القديمة حتي الجمهورية الحديثة. ولا يروح
ضحيتها إلا الأبرياء من الشباب أو الشابات. على حين
يتألق الكهول من النخب المثقفة ويزدهرون، وتطاردنما
صورهم الليل والنهار، أصواتهم تعلو وتعلو مع الازمات.

القاهرة ١١ مايو ٢٠٠٠

عن استراتيجية لثقافة والإبداع

قرات ما نشره الأستاذ سلامة أحمد دة سلامة بجريدة
الاهرام ١٤ يناير ٢٠٠١ وأنا اتفق معه في أن محاكمة أو
الحكم على الأعمال الإبداعية ليس من وظائف وزارة
الثقافة.

لكني اختلف معه في أن يكون قانون العقوبات هو الحكم
في مثل هذه الأمور المتعلقة بالإبداع الأدبي أو الفكري. لأن
قانون العقوبات يختص بالأفعال التي تشكّل اعتداء على
الأداب العامة، كالسب والقذف، قد يحكم القانون بالعدل في
هذه الحالات، إلا أن المجال القانوني (في رأيي) لا يمكن أن
يكون هو الدستور الأخلاقي الذي يضبط إيقاع النشاط
الإبداعي والفكري كما يقول الأستاذ سلامة.

ومن هنا السؤال: من إذن يتولى الحكم على الأعمال
الإبداعية كالروايات مثلاً؟

إن الرواية عمل إبداعي يجمع الخيال والواقع معاً، وهي
تقدم للناس أي الشعب، والمفروض أن يحكم الشعب بنفسه
على الأعمال الإبداعية، وأن تكون له حرية القراءة أو عدم

القراءة، أليس الأساس الأول للديموقراطية هو أن يحكم
الشعب نفسه بنفسه؟ وأن تكون له حرية النق
والمعارضة، وأن يكون مسئولاً عن اختيار الروايات التي
يقرأها؟

ربما يقول البعض إن الشعب في بلادنا لم ينضج بعد
حتى يمكنه الحكم على الروايات الأدبية. لكن إذا عجز
الشعب عن اختيار ما يقرأ فهل يكون في مقدوره أن يختار
من يمثله في البرلمان أو مجلس الشعب أو المجالس النيابية
الأخرى؟!

وغذا كنا نعطي هذا الشعب الحق في اختيار ممثليه
الذين ينوبون عنه في وضع واتخاذ أهم القرارات السياسية
والاقتصادية، فمن المنطقي إذن أن يعطي هذا الشعب الحق
في اختيار ما يقرأ من روايات أو قصص أدبية.

إن إعراض القراء عن الرواية هو أكبر عرقاب
لمؤلفها، وكم من روايات سقطت بسبب إعراض الناس عنها.
هذا السقوط أقوى من القرارات الإدارية أو الوزارية أو أي
قرار يصدر عن المحكمة بمصادرة الرواية. لأن الجمهور

نفسه هو الذي يصادرها بحريته واختياره دون انتظار القرارات العليا.

لقد اتضح في معظم بلاد العالم أن الأمم الابداعية التي تمنع بالقوة الادارية أو السياسية هي التي تلقي رواجاً بين الجماهير. ذلك الإنسان إلى الخيال مثل حاجته للطعام والهواء، وبالطبيعة والفطرة يولد الخيال الإنساني قويا لدي الأطفال يجعلهم قادرين على الإبداع والإحساس بوجود العدل أو غيابه، هناك علاقة وثيقة بين الإبداع والخيال والأحاسيس بالعدل والحرية والحب. لذلك يغضب الأطفال ويثورون لأي ظلم يقع على هم.

إلا أن غياب العدل والحرية في أغلب المجتمعات يفسد دخيال الأطفال ويقتل قدراتهم الابداعية، ويصكهم مثل النقود، يصبحوا أدوات لغيرهم، غير قادرين على الإحساس بالعدل أو الحرية أو الحب، بمعنى آخر عاجزين عن الفضيلة أو الإنسانية الحقيقية ذات الضمير الحي.

وقد اتضح أن الطفلة أو الطفل الذي يتربي في جو من الحرية والعدل يكتسب القدرة على الاختيار الصحيح القائم على الحرية والعدل ويكتسب الثقة في نفسه، والحكم بنفسه.

على الأشياء ولا ينتظر الأوامر أو التوجيهات من الجهات العليا.

هذا هو الحجر الاساسي السليم الذي يمكن أن نبني على ه استراتيجية جديدة للثقافة والابداع في بلادنا. لقد اتضح أن الطفلة أو الطفل الذي يتربي على الخوف من العقاب (أو الطمع في جائزة) يعجز عن الإبداع الحقيقي، لأن لذة الإبداع الحقيقي تتعلق بالعمل ذاته، بالقدرة على إنجاز ما به وتحقيقه بالشكل الذي يريده الفنان أو هذا هو الضد لمير الأبداعي النابع من الحرية والعدل، وهو الذي يوجه الإنسان المبدع أو الإنسانية المبدعة، بمعنى آخر هو الذي يضاعض الضوابط لصاحبه هو الذي يجعله يختار هذه العبارة للتعبير عن فكرته، وليس عبارة أخرى خالية من الجمال أو الذوق.

لاشك أن الإبداع هو الجديد، وهو يختلف عن القديم، وقد يصطدم به، إلا أن الحساسية للعدل والحرية النابعة من الخيال السليم غير المبتور تساعد الإنسان المبدع على إدراك التوازن والانسجام الفني بين القديم والجديد، أو بين العدل والظلم.

وقد قرأت رواية وليمة لاعشاب البحر، وكتب ت عنها ا
مقالاً في جريدة الحياة الصادرة في لندن يوم ١١ يولي و
٢٠٠٠ ، تحت عنوان " الخيال المبتور في الادب الشائع".
ليس معني ذلك أن من حق الجهات الإدارية أو القانونية
مصادرة الرواية أو منعها ، لأنها (في رأيي) تمتد مع نفسها
بنفسها ، ليس لأنها تمس المقدسات كما قيل عنها ولكن لأن
الخيال فيها مبتور ، بحكم التربية التي يعيشها اغلب المؤلفين
في طفولتهم.

منذ الطفولة ندرك أن الرجل بطل القصة، قد تربي عل
القنص والصيد، وقتل الطيور والحيوانات،وقد امتد نزعته
الصيد إلى جنس النساء، مع ذلك يقدم نفسه كمناظر وطني
يؤمن بالاشتراكية والعدالة، إلا انها عدالة نظرية فحسب أو
لغوية في الخطب والروايات ولا تمتد أبداً إلى حياته الحقيقية
ولا تدخل بيته ولا غرفة نومه.

تمتلئ غرف نواف الرجال في الرواية بالدكتاتورية
والأحادية الفكرية والانقسام بين الحياة العامة والحياة
الخاصة، هذا التناقض أو الازدواجية الأخلاقية هي التي تفسد
العمل الإبداعي كما تفسد الخيال والواقع؛ إن الواقع المشوه

بالظلم في العلاقات بين الناس (ومنه ما علاقة الرجل بالنساء)يؤدي إلى تشوية الخيال وبتره ومنذ الطفولة.

الخيال المبتور في نظري أكثر خطورة من الجسد المبتور الأعضاء. لأن الناس تري الجسد المبتور وتتألم لألمه ، لكن الخيال أو الضمير الإبداعي لا تراه العين ولا يذرف الدم عند البتر.

لقد أدت الضجة التي أثارت حول رواية" وليمة لأعشاب البحر" إلى انتشارها، وإقبال الناس على شرائها بسبب حب الاستطلاع ، لكني لم أقابل أحداً قرأ الرواية إلا وقال لي أنه لم يكملها ،و تركها منذ الصفحات الأولى . وقد شعرت بهذا الإحساس ذاته وأنا أقرأها، إلا انني واصلت القراءة بجهد كبير من أجل أن أكتب عنها.

وانا لم أقرأ الروايات الثلاثة التي سببت الأزمة الأخيرة بين وزير الثقافة وبعض المثقفين والأدباء والأدبيات، ذلك أن الضجة التي أثارت حولها ربما جعلت الناس تتسابق إلى قراءتها ،ومن ثم عدم وجودها في المكتبات.

لهذا لا يمكن لي الحكم على ها كقارئة ، إلا أن الصراع الذي حدث لا يخلو من إيجابيات ، لقد تأكد الآن أن وزارة

الثقافة يجب ألا تكون هي الحكم على الأعمال الإبداعية ،
كما يقول الأستاذ سلامة أحمد سلامة.

لكن قانون العقوبات أيضاً لا يمكن أن يكون على
أعمال تاتعلق بالخيال. إن مجال القانون هو الواقع وليس
الخيال.

نحن في حاجة إلى قيم جديدة في تربية أولادنا وبناتنا .
قيم قائمة على العدل والحرية والحب، ولابد أن تمتد هذه
القيم إلى الوزارات جميعاً، وليس وزارة الثقافة وحدها، وإلى
جميع المجالات السياسية والاقتصادية، وجميع الأحزاب،
حكومة ومعارضة، وجميع المنظمات غير الحكومية بحيث
يصبح المناخ الثقافي الذي نعيشه صحياً والضمير الإبداعي
حياً منذ الولادة حتي الموت.

الاحتمال المفيد والاحتمال غير المفيد

منذ أكثر من عشرة أعوام دعاني الاستاذ لطفي الخولي إلى اجتماع بجريدة الاهرام ،كان يعد أيامها لعقد مؤتمر أدبي كبير ، ذهبت في الموعد المحدد للاجتماع فلم اجد احداً بالحجرة ، تصورت أن الاجتماع تأجل دون علمي ، لكنني رايت احد الادباء يدخل ويؤكد لي أن الاجتماع قائم، ووصل المدعوون متأخرين أكثر من نصف ساعة، وتأخر الداعي للاجتماع نفسه الاستاذ لطفي الخولي أربعين دقيقة أو أكثر وجلس في مقعد الرئاسة عين يمينه الأسد تاذ يوسف العقيد، وبين شفتي كل منهما سيجاراً غليظاً ينفث الدخان الكثيف إلى السقف وبدأ الاستاذ لطفي الكلام دون أن يذكر شيئاً عن التأخير ، القى كلمة طويلة استغرقت أربعين دقيقة ، ثم صمت قليلاً وأشعل السيجار من جديد وقال: "والآن ندخل في صلب الموضوع ،وهو الإعداد للمؤتمر الأدبي الكبير والذي نرجو منكم أن تشاركوا فيه".

ونظرت في ساعتي كاذبات الثانية عشرة وبضع دقائق، وكنت على موعد آخر ولا أريد التأخر عن مواعيدي، فنهضت من مقعدي، وحين رأي الاستاذ لطفي اتجه نحوه وباب الخروج سألني مندهشاً "رايحة فين يا دكتورة نوال؟" وقلت: "عندي موعد آخر يا استاذ لطفي"، قال: "ألسدت مهتمة بهذا المؤتمر الأدبي الكبير". قلت: "أنا هنا منذ ساعتين وليسيت مسئولة عن تأخركم عن الموعد". وخرجت من الحجرة، وبالطبع لم أشارك في المؤتمر الأدبي الكبير رفقة حذف لطفي اسمي من قائمة المدعوين. ومرت الأيام ربما عام أو عامين والتقيت بالاستاذ لطفي في مؤتمر دولي ثقافي في مدينة بولونيا في إيطاليا، وقال لي: "علي فكرة أنا زعلت منك أو يا دكتورة نوال، وانتي أن في مصر لما نقول الساعة عشرة يبقى بين الساعة حذاشر.

هي دي العادة في بلدنا"، وقلت: "هذه العادة لا بد أن تتغير ولا بد أن نبدأ بأنفسنا".

ورمقني الاستاذ لطفي بنظرة كأنما أنا المخطئة وهو على صواب.

هذه الحكاية تتكرر دائماً وكما فقدت من أصدقائي
وصديقات بسبب هذه العادة الضارة ،وهي عدم احترام
الموعد ،أذكر أن الاستاذ مكرم محمد رئيس تحرير المصور
أعطاني موعداً وتأخر نصف ساعة فأنصرفت وتوقفت عن
نشر أش بمجلة المصور وفي يوم أعطاني الدكتور إسماعيل
سلام وزير الصحة موعداً وتأخر نصف ساعة فأنصرفت ولم
أنتظره وكان الدكتور أحمد بدران ينتظر بمكتب الوزير أيضاً
وقال لي ، الغائب حخته معاه. وده وزير عنده اشغال هامة،
قلت ، كل إنسان عنده أشغال هامة ولا بد من احترام وقت
أي إنسان. خاصة من الكبار لانهم هم النموذج لأغلب الناس.
وقد عشت في بلاد أخرى وعرفت كيف تكون المحافظة
على الموعد باعثاً على الراحة والاحترام،ولاشئ يهدر
كرامة الإنسان مثل إهدار وقته في الانتظار دون عمل شئ
وفي بلادنا قلما يحافظ احد على الموعد،منذ أيام طلبت من
احد السباكين موعداً ليقوم ببعض أعمال السباكة العاجلة في
بيتي،

وقلت له: ميعادك بكرة الساعة كام يا أسطه؟

قال: احتمال الساعة ستة.

قلت: يعني إيه احتمال؟

قال: احتمال الساعة ستة ونص.

قالت لازم تحدد!

قال: حتمال الساعة سبعة.

قلت: ما فيش حاجة اسمها احتمال لازم يك ون المع ماد مضبوط.

إلا إن كلمة "احتمال" كانت تجري على لسانه بحكم العادة، ولا يمكنه الإقلاع عنها. ولاحظت أنها دخلت ق ماموس اللغة العامية، ولا يمكن أن يحافظ احد العمال على موعده أو احد الموظفين او غير الموظفين، والكل يقول احتمال، وما أسخفها من كلمة في حالة المواعيد في عالمنا الثالث.

الاحتمال الإيجابي:

وهناك احتمال آخر إيجابي في مجال العمل لم يدخل في إلى بلادنا مع أنه اصبح جزءاً لا يتجزأ من علم الطبيعة أو الفيزياء، وعمل الفلسفة و غيرهما من العلوم، لقد تغيرت قوانين الطبيعة التي درسناها في الجامعات، وتجاوز العلم الحديث، أو ما بعد الحديث نظريات ارسطو ونيوتن ودارون

وأينشتاين ،ونظريات الجاذبية والنسبية، تجاوزت المطلقات العلمية كلها، بما فيها مطلق الزمن الذي توقف عنده نيوتن، وسرعة الضوء المطلقة التي توقف عندها أينشتاين، والفكرة الحديثة القائلة بأن الكون بدأ بانفجار آخر عظيم ، فكرة أن الكون له بداية ونهاية تجاوزها العلم أيضاً، وتحرر العلماء تماماً مما سمي باليقين،وتجاوزوه إلى ما يسمى اليوم قانون الاحتمال أو قانون الشك.

لم يعد كوكب الأرض مركزاً للكون، ولا كوكب الشمس ولا أي كوكب آخر ،ولم يعد الإنسان مركز الكون ولا أي كائن آخر ،تزايد الشك بازدياد الاكتشافات العلمية التي اثبتت خطأ هذه الأفكار،وتلاشي اليقين من العلم،وحل مكانه ما يسمى بالاحتمالات المتعددة والتي تقترب واحدة منها إلى الحقيقة أكثر من الأخرى.

إذا نظرنا إلى الذرة في الكمبيوتر فلا يمكن لنا أن نحدد أين يكون الإلكترون في دورانه السريع حول الذرة ، لن نري على الشاشة إلا نقاطاً تزداد كثافة في بعض الاتجاهات فنقول هنا قد يكون الإلكترون وقد لا يكون ، يمكن احتمال وجوده داخل هذا المسار أو هذا المسار.

لم يعد الإلكتروني شيئاً مادياً يوجد في المكان ، ولا هـ و
طاقة ضوئية يمكن قياسها بسرعة الزمن كسر الإلكترونيات
الفاصل بين المكان والزمن وبين المادة والروح أو الحركة ،
بعبارة أخرى تم سقوط الثنائيات القديمة التي فصلت الجسد
عن الروح ، وأصبح قانون الاحتمال أو الشك هـ و اليقين
الوحيد .

إن آفاق المعرفة تتسع أكثر وأكثر ، ونقترب من الحقيقة
أكثر وأكثر عبر قانون الاحتمال والشك .

قد تبدو هذه الأفكار العلمية الجديدة غير مفهومة أو غير
مقبولة لعقولنا ، تعودت عقولنا منذ الطفولة على كل ما هـ و
يقيني ، تربينا على أن نرث الأفكار كما هـ و ي ، لانطاك
الشجاعة على أن نشك فيها لهذا عجزنا عن الاجتهاد
والتجريد والابداع ، سبقنا الآخرون الأكثر رشادة إلى
الاكتشافات العلمية ، أصبحنا مجرد مستهلكين لما ينتجون من
أدوات حديثة ، ومنها الكمبيوتر والإنترنت ، لا نكاد نعرف إلا
القليل عن الثورة الإلكترونية الأخيرة ، نرفض في خمسين
الكسل اللذين داخل اليقين الثابت غير المتغير .

القاهرة ١٩٩٨

مفهوم الوطن والحب في عيد الأم

كان ذلك منذ عشرة اعوام (بالضبط يوم ٢١ مارس ١٩٨٩).

وجاءتني فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها ما من قلب الصعيد، من قرية بالقرب من أسوان وقالت لي: أريد أن أتكلم معك، أريد منك أن تكوني أُمي، وقد شرتب من أبي وأُمي في الصعيد، حملت حقيبتني في الليل، وركبت القطار، ووجدت إلى القاهرة لأتكلّم معك، وأنا تخرجت في الجامعة كلية الآداب قسم الفلسفة، قرأت كتباً كثيرة وانفتح عقلي على أشياء كثيرة جديدة، ولم تعد لي حياة داخل أسرة تعيش في القرن التاسع عشرة وتؤمن بوجود الجن والعفاريت، وأن المرأة نصف الرجل واجبها الطاعة، وظيفتها السياسية في الحياة الزواج وولادة الأطفال وأعمال البيت، حتي أخي الأكبر الذي تخرج من الجامعة وحصل على الدكتوراة فرض على زوجته أن تتفرغ للزواج والأمومة، ويقول لها: الأمومة عطاء وتضحية بلا مقابل مثل حب الوطن، والوطنية هي العطاء والتضحية بلا مقابل مثل الأمومة.

كانت الفتاة تنتفض وهي جالسة ، جاءتني من محطة
القطار مباشرة ، ليس لها أقارب في القاهرة بشرتها سد مرآة
شاحبة، وجهها نحيف. عيناها سوداوتان مملوءتان بريقاً ،
ذكرتني بنفسي حين كنت في أول الشباب والعائلة من حول
متجمعة ، العمات والخالات والأعمام والأخ والوأبذ ماؤهم
وبناتهن وجيرانهم، والجميع يهتفون في نفس واحد: ال زواج
مصير البنت والأمومة هو الدور الاسمي للمرأة. وإذا تعارض
الزواج مع طموحك الشخصي في الطب والأدب فاختاري
الزواج والأمومة. لأن المرأة التي لا تكون زوجة ولا تد
أطفالاً فهي امرأة عقيمة كالشجرة بلا ثمار.

وسمعت الفتاة تقول: لا أريد أن أتزوج ، ولا أريد أن ألد
أطفالاً! إن العالم ملئ بالأطفال الجوعى المشردين! فهل
أضيف إليهم أطفالاً آخرين؟ رأيتهم راقدين على الرصيف
في محطة القطر ، أطفال صغار بلا آباء ولا أمهات ولا
عائلات ولا بيوت. ولا مأوى إلا الشارع ورصيف المحطة،
احد الاطفال اقترب مني وأنا أهبط من القطر ، عمره لا يزيد
عن سبع سنوات، يرتدي جلباباً ممزقاً يرتعد تحت ضربات

الهواء الصاقع ، وانا متدثرة بالبالطو الصوف وتحت الب الطو
بلوفر صوفي، قدماء حافيتان، وانا ارتدي حذاء جل ديا متيناً
وجوريا من الصوف، كان الطفل يقترب مني ويمد لي يده
ينشج بصوت مبحوح " حسنة لله يا ستي " قلت لنفسي " ه ذا
الطفل يشبه طفلي أحوطه بذراعي وأخذه إلى بيتك؟".
قلت للفتاة: " تأخذه إلى بيتك؟".

قالت: ليس عند بيت في القاهرة ، ولكني أحمل شهادة
جامعية ويمكن أشتغل وأفتح بيتاً، ويصبح هذا الطفل هو طفلي
، إنه يشبه طفلي ، عيانه بالضبط هما عيانه مملوءتان بالبريق
والدموع.

قلت للفتاة: " وهل كان لك طفل؟".
قالت الفتاة: لم أتزوج ولم ألد. لكني كنت أحلم دائماً بهذا
الطفل يخطر إلى في الحلم بعينين مملوءتين بالبريق والدموع
وهو يشبه بالضبط الطفل الذي تقدم نحوري وأنا أهبط من
القطار، أعطيته معطفي الصوفي وخمسة جنيها وطلبت منه
أن ينتظرني في المحطة حتي أعود إليه.

قلت للفتاة: وستعودين إليه؟

قالت: نعم.

قلت وتعودين به إلى بيت أسرتك في الصعيد؟
انتفضت بذعر وقال: يقتلني إبي إذا عدت وحدي بعد أن
هربت ، فما بال أن أعودومعي طفل؟ سوف يتصورون أنه
طفلي ،وانه ثمرة حب محرم أو حمل سفاح!
قلت: لكن الطفل كما تقولين في السابعة من عمره وانت
كم عمرك؟ خمسة وعشرون عاماً؟ معني ذلك انك كنت في
الثامنة عشر وقت ولادته ثم كيف يحدث ذلك كله وانت في
بيت أسرتك تلميذة بالمدرسة؟ لا أظن أن والدك سوف يشك
في الأمر!

قالت الفتاة:أنت لا تعرفين أبي. أنه يشك في أخلاقي منذ
ولدت ، لم أخرج من البيت إلا تحت رقابته أو رقابة أخي
الأكبر أو أخي الأصغر الذي يصغرني بخمس سنوات وكنت
في الخامسة عشر من عمري وأخي الأصغر طفل في
العاشرة ،مع ذلك يخرج معي لحمايتي!

قلت: وامك؟ أليس لها دور؟

قالت الفتاة: أُمي تخاف من أبي وتعمل حسد باب أنه ما
الأكبر ،وتقول لي تحملي يا ابنتي كما تحملت أمك وجدتك
وخالتك وعمتك وكل النساء ،هذا مصيرنا يا ابنتي فاصبري

لعل الله يرزقك بعريس الهنا يعوضك عن قسوة ابيك لكني لم
اسمع كلام أمي ولم انتظر عريس الهنا ،قررت عدم الزواج
وعدم الإنجاب ،وكيف ألد اطفالاً يتعذبون كما عذبت وكيف
أضيف إلى هؤلاء الأطفال الراقدين على الأرض طفلة طِفلاً
جديداً؟!

كان ذلك في بيتي بالجيزة منذ عشرة سنوات (٢١ مارس
١٩٨٩) وكنت أعرف أنه عيد الأم وان الاذاعات تحتفل به
بالأغاني والهدايا يقدمها الأطفال لأمهاتهم،وقد جاءتني ه ذه
الفتاة من أقاصي الصعيد تطلب مني أن أكون أمها ،وتقو ل
إنها سوف تعود إلى محطة القطار لتحمل بين ذراعيها طفلاً
فقيراً يتيماً في السابعة من العمر،سوف تكون هي أمه وسوف
تشتغل وتفتح بيتاً وتعيش معه، وسوف تعلمه في احسن
المدارس ولن تفرض على ه القيود التي فرضتها على ه ا
اسرتها سوف تتركه حراً طليقاً ينعم بالحرية التي حرم ت
منها وهي فتاة ناضجة في الخامسة والعشرين م ن عمره ا
تحمل شهادة الليسانس من كلية الآداب قسم الفلسفة ، سوف

تشتغل وسوف تتحدي الكون ولن يقف في طريقها أحداً هكذا
تقول لي.

وقالت الفتاة: أريد منك أن تكوني أُمي.

قلت: وماذا أفعل بالضبط؟

قالت: لاشئ! مجرد إدراكي إنك موجودة في الحياة.

كان ذلك منذ عشرة أعوام وقد وضعتني الفتاة أمام
اختبار صعب في الحياة هل اشجعها على التمرد والتحدي
والسباحة في المياه الخطرة ضد التيار؟! أم اتبع نصيحة
صديقتي الاستاذة الدكتورة؟!

في مثل هذه اللحظات الحرجة يبدأ الصوت الخافت من
أعماقي. قال لي الصوت: الم تكوني في عمر رهذه الفتاة
وتمردت وسبحت في المياه الخطرة ضد التيار؟ لم اذا
تحاولين الآن الوقوف في طريقها؟، وليس لك منصب كبير في
الدولة يساعدك على البحث لها عن وظيفة في الحكومة
وليس لك اصدقاء رؤساء الشركات في القطاع الخاص، وإن
حاولت التوسط لها ربما تكون هذه الوساطة ضدها، لأنك

من المغضوب على هم، ولن تفيدنيها في شيء ، فاتركها تشق
طريقها في الحياة ولا تثبتي همتها.

كانت الفتاة جالسة امامي لا تزال. عيناها ما سد وداوان
مملوءتان بالبريق،. تذكرني بنفسي حين كنت في عمره ا.
العينا نافذتان أطل منهما على معدن الغنسان أو الإنسانية ،
غمروني إحساس جارف بالثقة في هاتين العيدين المشدعتين
بالضوء القوي.

قالت الفتاة: لا أريد منك إلا أن تمنحني الثقة في نفسي
، منذ ولدت وأنا احس أن أبي يشك في أخلاقي ، يتصور
أنني مثل الفتيات لا يشغلني إلا الحب أو الرجل، وقد كرهت
الرجال جميعاً بسبب أبي ، لم أقع في حب رجل واحد، ولا
أريد أن أتزوج ولا أريد أن أنجب ،سوف أعود إلى الطفل
اليتيم الذي ينتظرني في محطة القطار، وسوف أشتغل وأفتح
بيتاً ،وأكون أمه التي يحتفل بها في عيد الأم!

مضت الأعوام واضرتني الظروف إلى مغادرة الوطن
لأعيش المنفي خمس سنوات ،وفي عيد الام ٢١ مارس
١٩٩٥ جاءتني رسالة من الفتاة، كانت هي أجمل هدية أتلقاها

في عيد الأم، كتبت في رسالتها تقول: بلغ ت ي أُمي الواحد د
وثلاثين عاماً ، أصبحت مديرة في شركة الملابس القطنية في
طنطا، لي شقة جميلة تطل على الحقول الخضراء ويعيش
معي ابني عمره الآن ثلاثة عشر عاماً، أعطيته اسم أمي "
رجاء " متفوق في المدرسة، ويريد أن يكون عالماً في الذرة
ويكتب الشعر، أول قصيدة أهداها لي في عيد الأم منذ
أيام، مطلعها: أمي يا أجمل كلمة في قاموس اللغة. وقد رأيت
أن أرسل إليك هذه الرسالة وأنت بعيدة عن الوطن. لابد أن
بك حنيناً للوطن والأهل ، لهذا أكتب إليك ، أقول لك: إنني لم
أنس اليوم الذي جئت إليك هاربة من الأهل ، كنت أرتعد
بالخوف والبرد بعد أن تركت معطفي الصوفي للطفل اليتيم
لم يعد يتيماً يا أمي ، وأصبح اسمه رجاء ، وجاءت أمي من
الصحراء، ورأت بيتي الجميل في طنطا وفرحت حين سمعتني
أنادي به باسمها رجاء ، وجاء أبي أيضاً واطمأن على ، أكثر
ما أسعدت أنني أصبحت مديرة لشركة صناعية كبيرة،
أتقاضى كل شهر مرتباً كبيراً ثلاثة أضعاف مرتب أبي ،
لكن فرحة أمي كانت بحفيدها رجاء الذي يحمل اسمها ،
أكتب إليك يا أمي قبل عيد الأم بالأسبوعين ، أعرف أن

البريد في مصر وولاية نورث كارولينا يستغرق على الأقل
عشرة أيام، أرجو أن تصلك الرسالة في عيد الأم، لتعرفي أن
ابنتك "رشيدة" تذكرك وتذكر اليوم الذي فتحت فيه قلبك وبيتك
لها ، كان هو يوم مولدي الحقيقي ،لقد ولدت من جديد في
هذا اليوم ، مملوءة بالثقة في نفسي، قادرة على أن أتد دي
العالم!

ابنتك رشيدة أم رجاء

أمسكت الرسالة في يدي، ألامسها بأطراف أصابعي ،
كأنما ألامس وجه الوط، راحت الغربة تبدد الحزن، فتد ت
نوافذ بيتي لتدخله الشمس، إنها الشمس ذاتها التي تشرق في
كل بلاد العالم ، إفريقيا ما وآس يا وأوروبا ما وآس تراليا
والأمريكتين، الوطن ليس قطعة ارض تسقط على ه الراس ،
الوطن هو رسالة مليئة بالحب يأتيني من البعد.

لا يكون الحب حبا حقيقياً إلا إذا كان متبادلاً. الحب من
طرف واحد نوع من العبودية. الهوان واله ذاب والاحت راق
بنار الحب كلها من بقايا عصر الرق والعبيد. دين كمان
يفرض على العبد أن يحب سيده الذي يضربه بالكرباج.

ويفرض على المرأة أن تحب زوجها الذي يقهرها ويضربها
ويشدها من شعرها.

الحب إن اختلفت أنواعه فهو واحد، منبعه القلب والعقل
والجسد والروح في كيان واحد، وأساسه الأول هو الأخذ
والعطاء، أي التبادل بالعدل والحرية، وليس بالإجبار والقسوة
والجبروت.

وإن حدث الحب من أول لقاء أو آخر لقاء فهو ينشأ
السعادة واللذة والحرية، لا يعيش الحب في التعاسة والألم
والقيود لا يختلف حب الوطن عن حب الأم أو الأب أو الزوج
أو الزوجة أو الابن أو الابنة، كلها أنواع من الحب لا تعيش
إلا بالتبادل المتساوي أخذاً وعطاءً.

إن الأب الذي يقسو على أبنائه وبناته لا يمكن أن
يتوقع منهم الحب. إن الوطن الذي يجرد الإنسان من كرامته
وحرية وطعامه وشرابه لا يكون وطناً.

الوطن هو حيث يكون العدل، وحيث تكون الحرية
، وحيث يكون الحب، الوطن ليس هو المكان حيث مسقط

الرأس ،بل هو دفء الإنسانية والمحبة والتعاضد والصداقة
والعمل المنتج،ولذة الإبداع والفرحة بالجديد والتجديد.

لقد مللنا الأغاني الوطنية التي كان يغنيها العبيد دايم
المماليك والسلاطين،ولم نعد نغني للملك في عيد ميلاده، أو
الملكة في عيد زواجها،فما هذه الاغاني التي تشد دنا إلى
الوراء إلى عصور الرق: وما هذه الأصوات التي تأمرنا
بحب الوطن بالكرباج؟ وكيف أحب رجلاً يذيقني ألوان
الهوان؟ وما هذه الأغاني في عيد الأم دون أن يكلمنا
حقوق الإنسان

قليلًا من العدل

- قليلًا من العدل ايها السادة.
- قليلًا من المنطق.
- كيف يكون المتهم هو القاضي
- أشكو منه إليه؟
- يقولون لانه الحاكم يملك الأمر والنهي.
- ويقولون لأنه الرجل ولأنك امرأة.
- ولأن الله أعطي للرجال
- حق تأديب النساء.
- ولم يعط للنساء حق تأديب الرجال.
- قلت ومن يؤدب الرجل؟
- قالو هو يؤدي نفسه بنفسه في الدنيا
- وفي الآخرة يؤدبه الله.

خطوة نحو تحرير المرأة المصرية ولكن...

قرأت بجريدة الأهرام (١١/٥ / ٢٠٠٠) الحكم الجديد الذي أصدرته المحكمة الدستورية العليا بعبء تخويل وزارة الداخلية سلطة منح أو سحب جواز السفر، الغاء قراره باشتراط موافقة الزوج على سفر زوجته.

إلا أنني بعد أن أكملت قراءة الخبر أصابني الأسف. لأن هذا الحق الدستوري في السفر ليس مطلقا للمرأة المصرية. بل مقيد بالمادة ١١ من الدستور (عن كفاؤل التوفيق بين واجبات المرأة نحو الأسرة وعملها في المجتمع) هكذا يمكن لأي زوج أن يمنع زوجته من السفر بحجة مصلحة الأسرة. ومن يكون الحكم حين يختلف الزوجان حول ما هي مصلحة الأسرة؟

أرادت إحدى صديقاتي الطبيبات أن تسافر إلى مؤتمر طبي في لندن لمدة أربعة أيام، لكن زوجها منعها من السفر. لماذا؟ لأن الدعوة لحضور المؤتمر جاءت لزوجته فقط، أم

تأت دعوه له وهو طبيب أيضاً. فكيف تتفوق الزوجة الطبية
عن زوجها وزميلها في العمل؟!

تكررت هذه الحوادث مع نساء متفوقات في مجالات
متعددة علمية وأدبية وكم من امرأة متفوقة حرمت من السفر
بحجة مصلحة الأسرة، وكيف يمكن الفصل هنا بين مصلحة
الأسرة وأنانية الزوج؟ وهل الزوج أدري بمصلحة الأسرة
من زوجته الطبية مثلاً؟ فكيف تكون الطبيبة مسؤولة عن
أرواح الناس ثم نحرمتها من مسؤلية الأسرة، أو معرفة
مصلحة أسرتها؟

ألم تثبت لنا التجارب والحوادث والقضايا في المداكم
أن المرأة المصرية أكثر حرصاً على مصلحة الأسرة
والأطفال من كثير من الأزواج؟!

ألا يطلق الرجل زوجته أو يتزوج على امرأة أخرى
دون مراعاة مصلحة الأسرة؟ وكم طفلاً تشردوا وبيوتاً
خربت بسبب حق الرجل المطلق في الطلاق والزواج
بأخرى، لماذا إذن نضع مصلحة الأسرة في يد الرجل وحده؟
هو الذي يحددها وهو الذي يبددها حسب رغبته ومصلحته
الخاصة؟

هل مصلحة الأسرة تعني مصلحة الرجل؟! لماذا إذن لا يحق للمرأة أن تمنع زوجها من السفر حرصاً على مصلحة الأسرة؟

لقد أسست المحكمة الدستورية حكمها الجديد على أن حق الإنسان المصري (والمرأة إنسان) في السفر والتنقل (واستخراج وحمل جواز السفر) هو رافد من روافد الحريات الشخصية التي يكفلها ويصونها الدستور. وإن حرية الانتقال من الحريات العامة فلا يجوز تقييدها وقد عهد الدستور بذلك إلى السلطة التشريعية دون غيرها و الأصل فيها هو المنع إعمالاً لحرية الانتقال، والاستثناء فيها هو المنع.

لقد اثبتت المرأة المصرية منذ آلاف السنين قدرتها على التوفيق بين عملها خارج البيت وداخله سواء خرجت للعمل في الحقول أو المصانع أو المتاجر أو المكاتب أو المستشفيات أو الوزارات أو غيرها.

فلماذا تظل هذه المادة رقم ١١ سيفاً مسلطاً على رقاب النساء، لماذا تظل الثغرة التي ينفذ منها أي رجل يريد التحكم في زوجته تحت اسم مصلحة الأسرة؟

إنني اضع هذا السؤال أمام جميع النساء والرجال في بلادنا وليس فقط رجال القانون أو المهتمين بتعديل الدستور، فالمسألة ليست قانونية محضة، بل سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية، إن العدالة الاجتماعية ليست تخصصاً يخص العاملين في مجال التشريع أو القانون، بل هي تخص الشعب المصري كله، بنسائه ورجاله وشبابه وأطفاله، ألا ليس الطفل الذي تربيته أمه على الانانية والسيطرة على أخته البنت هو رجل المستقبل الذي يمنع زوجته من حقوقها الدستورية بسبب الأنانية والرغبة في السيطرة؟

لأشك أن عدالة القوانين هامة وضرورية وقد سررت لهذا الحكم الجديد للمحكمة الدستورية العليا الذي يعتبر خطوة هامة نحو تحرير المرأة المصرية، إلا أن الطريق أمامنا لا يزال طويلاً ليصبح الحق فوق القوة داخل الأسرة، ولا تكون هناك ثغرات تسمح لمن يريد أن يسيطر (دون حق) أن يسيطر.

ولا يزال أغلب الآباء والأمهات في بلادنا يفرقون في الحقوق بين البنت والولد وتتشأ البنت على الخضوع والطاعة وينشأ الولد على السيطرة (وأحياناً الغطرسة).

كما تتغير التربية في البيوت والمدارس ، بحيث نربي
الضمير في الطفولة ، الضمير الإنساني الذي نيشد العدالة
بصرف النظر عن كون الإنسان رجلاً أو امرأة ، أو غنياً أو
فقيراً، أو حاكماً أو محكوماً؟

القاهرة ٢٠٠٠/١١/١٥

قضية المرأة في الحوار القومي

من الافكار التي شاعت في التاريخ.خاصة خلال القرن الماضي العشرين أن قضية المرأة لا تهم إلا فئة النساء، الأمهات والزوجات والأطفال ،أي أمور الأسرة الصغيرة ،ولا علاقة لها بأمور المجتمع الكبير،وقضائياه الكبرى المتعلقة بالسياسة أو الاقتصاد.

هذه الفكرة الخاطئة انتشرت في البلاد الأوروبية وفي الولايات المتحدة الأمريكية روجت لها القوي الأبوية الطبقية التي تحكم المجتمع، ثم انتقلت الفكرة إلى البلاد الأخرى ومنها بلادنا العربية.ومن هنا الفكرة الخاطئة التي سادت بأن الحركة النسائية التحريرية قد نشأت في الغرب ثم انتقلت إلى الشرق.

حقائق التاريخ تؤكد أن النساء والعبيد اتحدوا معاً في الثورة ضد النظام الفرعوني العبودي في مصر القديمة ، لقد حاربوا معاً نساء وفقراء وأجراء ضد بطش الفراعنة والآلهة القدامي، كان النظام العبودي أو الطبقي الأبوي قائماً على السلطة المطلقة للرجل في العائلة ،والسلطة المطلقة

للفرد الحاكم في الدولة، الإله فرعون. لقد حدثت ثورات عديدة ضد هذا النظام شارك فيها النساء والرجال والشباب والأطفال، لولا هذه الثورات الشعبية لم يكن للعصر العبودي أن يزول. ويحل مكانه العصر الإقطاعي، ثم العصر الرأسمالي القديم، ثم الحديث وما بعد الحديث الذي نعيشه اليوم وهو نظام طبقي أبوي في الأساس يقوم على سلطة الرجل المطلقة في الأسرة، وسلطة الفرد أو مجموعة من الأفراد في الدولة. تطورت القوانين العامة والخاصة مع مرور السنين ومع ازدياد القوة السياسية للنساء والفقراء، أصبحت السلطة المطلقة للزوج تناقش في البرلمانات، في محاولة للحد من هذه السلطة المطلقة وقد شهدنا مؤخراً الصراع داخل البرلمان المصري للحد من سلطة الزوج في الطلاق، أو في منع زوجته من السفر، وإعطاء المرأة بعض حقوقها الشرعية القديمة مثل الخلع. كما شهدنا أيضاً الصراع من أجل الحد من السلطة الدكتاتورية في الدولة ومنح بعض الحريات للشعب أي بعض الديمقراطية.

خلال القرن العشرين بدأت قضية تحرير المرأة في بلادنا تخرج من مفهومها الضيق المحدود بأمور الاسرة والأمومة والأطفال إلى مجالات السياسة والاقتصاد والجنس، ذلك المجال الذي كان محرماً الكلام فيه، رغم أن القهر الجنسي للنساء والفقراء الرجال هو الوجه الآخر من القهر الاقتصادي والسياسي.

حسب نظرية المعرفة الجديدة لا يمكن فصل الاقتصاد عن الجنس ولا يمكن فصل الحياة العائلية الخاصة عن الحياة العامة السياسة والاجتماعية الشاملة لنواحي الحياة جميعاً. إذا رجعنا إلى التاريخ ندرك أن هذا الفصل قد نشأ مع نشوء النظام الطبقي الأبوي، من أجل تجزئة المعرفة، وبالتالي تجهيل الناس بما يحدث لهم، اصحبت المعرفة الكلية نوعاً من الإثم، وقد تم تحريمها على النساء والفقراء والعبيد.

لأشئ يؤهل المرأة أو العبد للثورة ضد النظام الظالم إلا المعرفة الكلية الحقيقية التي لا تفصل بين الخاص والعام ولا تجل الازدواجية أو الثنائية هي أساس القوانين والأخلاق

والفلسفة ، ه ذه الثنائيتان الأساسيتان في التاريخ منذ
العبودية، والتي قسمت المجتمع إلى نساء وعبيد، واحد بحث
الأسرة هو النواة الصغيرة التي يسيطر فيها الرجال على
النساء ، والدولة هي المجتمع الأكبر الذي تسيطر فيه الـ قلادة
المالكة للثروة والسلطة على الاغلبية الساحقة من الفقراء.

وأصبحت المرأة ترمز إلى الجسد أو الجنس غير
المحتوم ، واصبح الرجل يرمز إلى العقل أو الروح الأعلى
السامي، أصبحت القضايا العامة هي القضايا المحترمة.
اما القضايا الخاصة فهي غير محترمة، ومن هنا النظرة
الدونية إلى مشاكل الجسد والجنس والمرأة، والنظرة السدامية
الرفيعة إلى المشاكل السياسية والاقتصادية والثقافية العامة.
لابد لنا من دراسة الماضي ورابطة بالحاضر حتى
ندرك أن الاقتصاد لا ينفصل عن الجنس، وأن الجسد لا
ينفصل عن العقل عن الروح ، وأنه لا يمكن بحال من
الأحوال فصل قضايا تحرير النساء عن قضايا تحرير
المجتمع كله.

إلا أن النخبة المثقفة في بلادنا من الرجال أو النساء لا تدرك هذه الحقيقة، وتكرر أخطاءها في فهم قضية المرأة منذ القرن القديم وحتى القرن الجديد الواحد والعشرين. وقد اتهمت النساء رائدات الحركة النسائية المصرية في بداية القرن العشرين بالاتهام ذاته الذي اتهمت به الرائدات في منتصف القرن العشرين وهو الاتهام ذاته الذي يوجه إلى رائدات الحركة النسائية اليوم، ونحن في بداية القرن الواحد والعشرين.

حين تكلمت مي زيادة وملك حفني ناصف عن تحرير المرأة من القهر الخاص داخل الأسرة تم اتهامهما بالقصور عن إدراك القضايا العامة الهامة الخاصة بالوطن والمجتمع وحين تكلمت درية شفيق عن قضية المرأة المصرية خرجت بعض النساء المصريات في منتصف القرن العشرين ضد ختان الإناث وربطن بين المشاكل الجنسية والمشاكل الاقتصادية قامت الدنيا ضد هؤلاء النساء كيف ينطقن كلمة جنس؟ أو كلمة ختان؟ وتم اتهامهم بالفساد، وتحريض البنات على الحرية الجنسية على غرار الإباحية في الغرب.

وفي يومنا هذا يتكرر الاتهام ذاته ربما ما على ندو
مختلف، إلا أن جوهر الاتهام واحد، والقصور في فهم قضية
المرأة واحد، والفصل بين الخاص والعام واحد، واعتبار
قضية المرأة قضية اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية
عامة وليس لها علاقة بذلك الشئ المستورد من الغرب الذي
يندرج تحت اسم الجنس أو المشاكل الجسدية للنساء، وهو ي
في نظرهم مشاكل ثانوية أو هامشية أو تافهة وليست مشاكل
حقيقية محترمة مثل مشاكل الاقتصاد والتنمية الاقتصادية أو
الاصلاح الاقتصادي وغير ذلك من القضايا العامة.

رغم مرور اكثر من نصف قرن لا تزال هذه النغمة
سائدة تهيمن على عقول النساء من النخبة المثقفة في بلادنا.
بل كثيراً ما تقع النساء المتعلّقات أنفسهن في هذا المأزق
،وبصرف النظر عن الاتجاهات السياسية أو الحزبية ، يسار
أو يمين أو وسط فإن قضية المرأة لا تزال غير مفهومة ،ولا
يزال الفصل بين الاقتصاد والجنس قائماً وكذلك الفصل بين
الحياة الخاصة والحياة العامة.أو ما يندرج تحت أمور الدولة

وأمر العائلة والأسرة ، رغم أن الأسرة هي النواة والحجر الأساسي الذي تقوم على ه الدولة والمجتمع. بالأمس فقط قرأت في الصحف كلاماً عن قضية المرأة المصرية يفصل بين قضايا الاقتصاد وقضايا الأسرة والجنس يشبه الكلام الذي قرأته منذ نصف قرن، والذي يتكرر دائماً في الأزمات أو في مواسم الانتخابات وحين تصدح قضية المرأة كبش الفداء في الصراعات على المقاعد ومراكز القوة في المجتمع والدولة.

كتبت احدي القيادات النسائية من النخبة المثقفة نقول إن قضية المرأة في بلادنا هي قضية تتعلق بالفقر والأمية والمطلوب هو إدماج المرأة في مشاريع التنمية والإصلاح الاقتصادي. اما مشاكل الأسرة والجنس فهي مشاكل تهم النساء في الغرب وليس النساء في بلادنا. نحن نعيش في بلاد إسلامية لها قيمها وتقاليدها وتراثها وهويتها الأصلية وخصوصيتها الثقافية.

يذكرني هذا الكلام بما تكتبه النساء الأمريكيات المستشرقات عن قضية المرأة في بلادنا وما صدر من كتب جديدة بأقلامهن عن المرأة والإسلام، وقد أكدت بعضهن على

أن ختان المرأة وحجابها جزء من هويتها الأصلية ،ويجب عدم التخلي عن هذه الهوية الثقافية في بلاد العالم.

هكذا يتم التضليل فيما يخص قضية المرأة وكأنما التقاليد القديمة كلها إيجابية ولا بد من الحفاظ على ما ،ولا توجد تقاليد سلبية يجب الإقلاع عنها ، وهل الغرب كله فاسد الأخلاق مشغول بالجنس والإباحية والشذوذ؟! وهناك رجالات ونساء في الغرب يكدون ويعملون ويخترعون في مجالات العلم والفن والأدب ،وأغلب الاختراعات والإبداعات العلمية والفنية حدثت في الغرب. فكيف نطلق هذا التعميم الضار على الغرب؟!

كما إن الشرق ليس كله طاهر ونقي ومشغول بالقيم والفضيلة، وهناك رجال ونساء في الشرق يتاجرون بالجنس ويتاجرون بالقيم الأخلاقية والدينية في السوق المالية.

لقد أصبح تقسيم العالم إلى غرب وشرق مضللاً لا يكشف عن الحقائق أو التنوع بل هي نظرة أحادية تعتمد على التعميم من أجل التعتيم على الحقيقة،وقد حدث في الغرب مظاهرات شعبية ضد العولمة وضد البنك الدولي وضد

منظمة التجارة الدولية وغيرها من المؤسسات الاسد تعمارية الجديدة. هذه المظاهرات لم تحدث في الشرق ، لم تحدث في بلادنا رغم أن بلادنا تعاني من هذه المؤسسات وأكثر من غيرها وينالها من الفقر والبطالة أكثر مما يحدث في بلاد اخرى.

كما أن مفهوم الجنس قد تغير منذ القرن الماضي ، لم يعد الجنس مجرد عملية بيولوجية أو كيميائية يمكن تنشيطها بالعقاقير أو الفياجرا ، بل أصبح الجنس عملية إنسانية يشدعر فيها الإنسان (الرجل أو المرأة) أنه لا يوجد انفصال بين الجسد والعقل والروح، أصبحت العلاقات بين الجنسين أكثر إنسانية وأكثر عدالة ووعياً ، وأصبح علم الجنس في كليات الطب في العالم لا يقل احتراماً عن علم النفس، وتم التبرابط في الطب الحديث بين الأمراض النفسية والجسدية لا فاصل بينها.

كما أن مفهوم الاقتصاد قد تغير منذ القرن الماضي ، وسقوط الفكر الجامد، الذي كان يرى أن الاقتصاد مادة واحدة محرك التاريخ ، وأن رأس المال وحده مشكلة الرأس مالية ،

لقد تم الربط بين علم الاقتصاد وعلم الاجتماع والثقافة والتاريخ والفلسفة والطب، وفي جامعات العالم بدأت أقسام جديدة تربط بين العلوم الإنسانية وبين العلوم الطبيعية، وبين الاقتصاد والفيزياء وعلم النفس وعلم الجنس وأصبح التاريخ الاجتماعي للبشر يشمل التاريخ الجنسي والتاريخ الاقتصادي في آن واحد.

وفي علم الحضارات الجديد بدأ العلماء يرون أنه ما من حضارة نقية خالية من السلبيات فالحضارات الإنسانية متداخلة لا يمكن الفصل بينها والهوية متعددة الجوانب والابعاد وليس لها جانب واحد، وتم الفصل بين الهوية متعددة الجوانب والابعاد وليس لها جانب واحد، وتم الفصل بين الهوية الأصلية وبين استئصال الأعضاء الجنسية في عمليات الختان.

إن الأصالة أو القيم أو الاخلاق لا علاقة لها بالعملات الجراحية التي تقطع من أجساد الاناث أو الذكور. رغم كل ذلك لا يزال في بلادنا بعض النخبة المثقفة من الرجال والنساء الذين يرددون المفاهيم القديمة، أو الأفكار الاستشراقية الأمريكية الجديدة التي تحاول إعادتنا إلى الوراء

تحت شعارات براقعة جميلة. منها الهوية والأصدالة والدين والخصوصية الثقافية أو التراث أو الاقتصاد وغيرها.

ولا تختلف لهجة النساء في النخبة المثقفة عن الرجال وفي الطريقة التي ينطقون بها الحروف والكلمات ، خاصة كلمة " الفقر " .

لاشك أن مشكلة الفقر أصبحت خطيرة في كثير من البلاد ومنها بلادنا ، لكن بدلاً من ضرب القوي العالمية والمحلية التي تؤدي إلى الفقر فإنه يضربون قضية المرأة ، كبش الفداء ، لأنها الأضعف في ساحة الصراعات الدولية والمحلية ، وتحت اسم الفقر يتم اختزال قضية المرأة ، وفصل المشاكل السياسية والاقتصادية العامة عن المشاكل الخاصة داخل الأسرة أو بين الجنسين .

كلمة واحدة ينطقها الجميع بلهجة واحدة هي "الفقر" كلهم يتحدثون عن الفقر فمن ذا الذي يمكن أن يعترض أو يفتح فمه؟! أقل اتهام يوجه إليه أنه يقلد الغرب أو يتحدث في أمور الجنس أو الأمور الهامشية.

ألهذا صمت جميع الفقراء من النساء والرجال خجلاً وتعففاً؟! لقد عانينا منذ فترة قصيرة من محاولات إهدام

الادباء تحت دعاوي دينية وشعارات أخلاقية، ونحن نعلم اني اليوم من محاولات واد قضية المرأة تحت دعاوي اقتصادية، أو تحت شعار "محاربة الفقر"، وهه محاولة جديدة لاختزال قضية المرأة إلى بعد واحد هو الاقتصاد، بعد عزله عن المشاكل الاجتماعية والاسرية والفسدية والجنسية والتاريخية التي تعاني منها الاغلبية الساحقة من النساء في بلادنا وفي بلاد اخرى من العالم.

إن كلمة "الفقر" أصبحت براقلة وجميلة ورقيلة لا تدش حياء احد، وان كان من رجال أو نساء الاعمال (البيزنيس) فهي لا تكلف شيئاً، كما أن الحديث عن الاقتصاد والتنمية والإصلاح الاقتصادي أصبح حديثاً شائعاً وجميلاً وبراقاً.

لكن السؤال الهام: ماذا نعدى بالتنمية والإصلاح الاقتصادي؟ وهل يؤدي هذا الإصلاح الاقتصادي إلى مزيد من الفقر أم مزيد من الثراء؟ ولمن؟

رأيت بعض الشابات الفقريات جالسات فوق الرصيف في الشارع يقرأن عن الفقر في الصحف، بعد أن رفضت وزارة الشؤون الاجتماعية تسجيل جمعيتهم الجديدة للنهوض

الفكري لدي الشابات المصريات، لم اذا رفضت الوزارة
تسجيل الجمعية؟ لأنهن فتيات لا يمكن إيجار شقة خالية
تكون مقراً للجمعية.

طلبت مني الشابات التدخل لحل المشكلة، وذهبت معهن
إلى وزارة الشؤون الاجتماعية، لنكتشف أن القانون الجديد
للجمعيات يرفض تسجيل أي جمعية لا تملك إيجار أو شراء
شقة خالية. كيف إذن تدافع الفتيات أو الفقراء عن حق وقهم
الفكرية؟!

كيف نشأ ختان الذكور في التاريخ؟!

مع بداية القرن الواحد والعشرين يتحلي النظام العالمي الجديد بكلمات جديدة براقية يتخفي وراءها أشكال جديدة من الاستغلال والاستعباد للفقراء في العالم وللنساء أيضاً.

أصبحت كلمة العولمة من الكلمات الغامضة السداحة للكثير من المثقفين في الغرب والشرق أو الشمال والجنوب، إلا أن نتائجها على شعوب العالم ليست إلا مزيداً من الكوارث والازمات الاقتصادية والاجتماعية والحروب الدينية والطائفية المشتعلة في كل بلاد العالم اليوم. وكم من النساء والشباب والأطفال يسقطون قتلى الفتن العنصرية والتي تتخفي وراءها المصالح المادية.

أضعف شرائح المجتمع هم أول الضحايا، وهم النساء والفقراء من جميع الطبقات والفئات والألوان، زادت الهوة من مزيد من العولمة بين الذين يملكون والذين لا يملكون ونبش الجنس المؤنث والجنس الذكر الذي له السيادة في الدولة والعائلة في ظل النظام العالمي الجديد كما كان في ظل النظام العالمي القديم، لا يختلف النظام الجديد عن القديم إلا في

التفاصيل والجزئيات ، لكن الجوهر واحد ، فهو جوهر النظام الطبقي الأبوي ، يعني ذلك أن قلة من الأفراد تشكل "الطبقة الحاكمة" تسيطر على مصائر الملايين وأرواحهم وأرزاقهم وأمنهم وأمن أولادهم وبناتهم. هذه القلة القليلة من الأفراد في كل بلد من العالم تملك المال والسلاح والإعلام ، الثالث الذي تركز على السلطة الدولية أو المحلية ، الثالث الذي تبطش به على الأغلبية البشرية المفروض على ما يفكر والصمت ونزع السلاح.

يمكن لمن يدرس التاريخ أن يكتشف الترابطين لاسلطة والجنس منذ نشوء العصر العبدودي منذ انقضاء المجتمع إلى اسبياد وعبيد وإلى نساء ورجال.

في مصر القديمة كانت "نوت" هي الإلهة الأم ، إلهة السماء ، زوجها "جيب" كان إله الأرض ، وكانت الأم هي التي تعطي اسمها لأطفالها ، لم تكن الأبوة معروفة كان الرجال يتصورون أن الجنين يتكون في بطن الأم بقدره خارقة غامضة سماوية ثم بدأ العقل البشري يكتشف شيئاً فشيئاً علم البيولوجي وعلم الامبريولوجي "الأجنة" وبدأ الرجل يعرف دوره في عملية الأخصاب ، ثم بدأ يكشف "الأبوة".

لم يعد يأكل أطفاله أو يغتصبهم كما كان يفعل من قبل
ولم يعد يؤمن أن النساء يحملن بسبب أرواح تهبط إليهن من
السماء.

أنعكست هذه الفكرة البدائية في الاساطير القديمة، وكما
قرأنا هذه الحكايات عن الأبطال الشجعان الذين ولد دتهن
أمهاتهن بعد أن نفخت الآلهة المقدسة في أرحامهن، ويصبح
المولود مقدساً، وإن كانت المولودة أنثى أصبحت قديسة أيضاً
تتضم إلى زمرة الإلهات المعبودات.

إلا أن المجتمعات البشرية كانت في تحول دائم وصراع
دائم للاستيلاء على السلطة والمال والأرض، ظهر الصراع
في التاريخ بين الآلهة الذكور والآلهات الإناث، يكشف
التاريخ القديم عن معارك طويلة بين الآلهة المصرية إزي
س وأعدائها من خارج البلاد وداخلها، استمرت هذه المعارك
الضارية تحاول هدم فلسفة إزي س في مصر (وغيرها من
البلاد في الغرب والشرق) حتى عام ٣٩٤ ميلادية حين جاء
الإمبراطور تيودور، وحطم تماثيل إزي س ومعابدها في

الإمبراطورية الرومانية ،وفي مصر ظل اتباع إزيس وكهنتها
يقاومون حتي آخر معبد من معابدها في جزيرة فيلة.

كيف تحولت نوث إلهة السماء وازيس إلهة الحكمة
ومعات إلهة العدل إلى حواء رمز الخطيئة في التوراة؟!
لقد ارتبط هذا التحول بانتصار النظام العبودي ، أو ما يطلق
عليه اليوم النظام الطبقي الأبوي ،والذي جعل " القوة" هي
التي تحكم وليس العدل وليس المنطق.

أصبح الاله الذكر في التوراة لا يلد إلا الابناء الذكور
،نقول الآية في الإصحاح السادس (التكوين):

"وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض،وولد لهم
بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسد نات. فاتخذ ذوا
لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا.. إذ دخل بنو الله على
بنات الناس وولدن لهن أولادا".

كذلك أصبحت ولادة الأنثي (في التوراه) ذات نجاسة
مضاعفة، لا تطهر الام الوالدة من نجاستها إلا بعد تسعة
وستين يوماً (إن ولدت ذكراً تطهر بعد ثلاثة وثلاثين يوماً
فقط).

أما قهر العبيد فقط ارتبط بالجنس أيضاً وولد م يكن
للطبقة الحاكمة من الآلهة الذكور أن يقهروا الأجراء والعبيد
دون عمليات جسدية مثل الإخصاء والختان.

كيف نشأ ختان الذكور في التوراه؟

في الإصحاح السابع عشر (تكوين) يعقد الإله مع النبي
إبراهيم عهداً، يقول له:

"أقيم عهدي بيني وبين نسلك من بعدك... عهداً أبدياً..
أعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان
ملكاً أبدياً.. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم. يختن
منكم كل ذكر.. فتتتون في لحم غرلتكم. فتكون علامة عهد
بينني وبينكم.. فيكون عهدي في لحمكم أبدياً. وأما ما لا ذكر
الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتتقطع تلك النفس من
شعبها. أنه قد نكث عهدي".

هذه هي الكلمات التي جاءت في التوراه، تؤكد لنا أن
إله اليهود رفع شعار "الأرض مقابل الختان". وهو شعار
غريب فمعلقة الاستيلاء على أرض الغير بالقوة المسلحة
وختان الذكور؟!

لا يمكن أن نفهم هذا السر إلا إذا قرأنا ما جاء في التوراه بعد ذلك. كان إبراهيم ابن مائة سنة وزوجته سارة بنت تسعين سنة، لم يكن عندهما ابن يرثهما، اشارت سارة على إبراهيم أن يتزوج جاريتها هاجر لينجب منها الولد، لكن ما أن انجبت هاجر ابنها اسماعيل حتي غيرت سارة رأيها، طلبت من زوجها ابراهيم أن يطرد هاجر وابنها تردد ابراهيم قليلاً، لكن سارة اقنعتة بطردهما بعد أن انجبت له ولداً قالت إنه من عند الله فسأل ابراهيم الله مندهشاً: "هل يولد لابن مائة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة" (الإصحاح ١٧ / تكوين ١٨) توسل إبراهيم إلى الله أن يجعل ابنه اسماعيل يعيش امامه، لكن الله رد على ه في التوراه قائلاً: "فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده".

هكذا تمت الخطة حسب تدبير زوجته سارة خطة استغرقت ثلاثة عشر سنة بسبب تردد إبراهيم وتلك وه في طرد زوجته هاجر وابنها اسماعيل. أمرت سارة بتختين اسماعيل قبل طرده وعمره ثلاثة عشر عاماً، كما أمرت أيضاً بتختين زوجها إبراهيم وعمره تسع وتسعون عاماً.

تقول التوراه: " وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في حلم غرلته وكان اسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته. في ذلك اليوم عينه ختن ابراهيم واسماعيل ابنه وكان رجال بيته ، ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من اين الغريب ختنوا معه".

في الإصحاح الثامن عشر تكشف العلاقة الخفية بين الرب وسارة وزوجة إبراهيم إذ يظهر الرب عند باب خيمة إبراهيم ،ومعه ثلاثة رجال، وسجد إبراهيم إلى الأرض ثم أسرح إلى سارة زوجته داخل الخيمة وقال لها "أستدري بثلاث كيلات دقيقاً سميذاً. أعجني واصنعي خبزاً طيباً. ثم ركض إبراهيم إلى البقر، وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله. ثم أخذ زبدًا ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم. واذ كان واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا".

بعد الأكل سأل الرب إبراهيم عن زوجته فقال له ها هي في الخيمة. "فقال إني أرجع إليك... ويكون لسارة أمراًتك ابن. وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام. وقد انقطع أن يكون لسادة عادة كالنساء".

إلا أن سارة تحصل على ابنها ما اسد حاق كيد ف؟ لا نعرف،ولماذا كانت تقف وراء الباب تتسمع ما يدور بين الرب وزوجها إبراهيم ،ولماذا كان الرب يسد تجيب لجميع طلباتها ويأمر زوجها إبراهيم بطردهماجر وابنها إلى الصحراء؟! وهل هناك إذلال للرجل وهو في التاسعة والتسعين من عمره أن يمسكه الرجل كالنكش فونعورته، يقطعون غرلته بالموس أو قطعة من الحجر؟ لقد تلوث جرح إبراهيم ولم يلتئم إلا بعد زمن طويل من الألم والمعاناة ،حتي أنه اشتكى للرب من الألم وطلب منه الرحمة.

ويظل الشعار القديم أو العهد القديم " الأرض مقابله الختان" غير مفهوم وفي حاجة إلى دراسات اعمق لعصور العبودية والصراعات على السلطة والمال والأرض بين الجماعات البشرية المختلفة.

إلا أن عادة ختان الذكور مثل عادة ختان الإناث أصبحت تتوارث عبر الاجيال رغم ما يصاحبها من مخاطر صحية مختلفة.

بل كثيرا ما حاول المجتمع البشري تبرير هذه العمليات الجسدية من أجل استمرارها، كانت السلطة الحاكمة في أي

مجتمع في حاجة دائمة إلى التحكم في أجساد النساء والعبيد
وتقطع اجزاء منها لأسباب قمعية تتخفي تحت الدين.
ولهذا انتشرت الشائعات حتي بين الاطباء أن عمليات
الختان للإناث والذكور ضرورية من أجل النظافة أو الصحة
، أو لمنع بعض الامراض.

منذ اكثر من ثلاثين عاما حين نشرت كتا بي " الم راة
والجنس" ثارت السلطة الحاكمة في الدولة. لان الكتا ب
تضمن بعض الفصول التي تكشف عن المذا طر الص حية
النا تجة عن ختان الإناث. كان هذا الكتاب (والذي ص ودر
عام ١٩٦٩) هو فاتحة المشاكل في حياتي، والتي أدت إلى
فقداني منصب في وزارة الصحة في أغسطس ١٩٧٢ رغم
ذلك أصدرت الكتاب من بيروت عام ١٩٧١. وبعقبته بتكبت
اخرى على توالي السنين. نشرت كلها في بيروت أو
معظمها.

لكني لم أتعرض في هذه الكتابات السابقة إلى المخاطر
الصحية الناتجة عن ختان الذكور. كنت مشغولة بما تصورت
أنه أهم من ذلك. كما أنني لم أكن عرفت بعد شيئاً عن هذه

المخاطر الصحية وهي معلومات حديثة نسبياً، لم يتم نشرها في المجالات الطبية إلا في السنين العشرة الأخيرة.

لحسن حظي وصلت إلى هذه المعلومات حين كنت أستاذة زائرة في جامعة ديوك بولاية نورث كارولينا. بأمريكا الشمالية خلال الأعوام ٩٣، ٩٤، ٩٥ وقد شهدت هذه السنوات الثلاثة حركة طبية واسعة النطاق، وفي أنحاء متعددة من العالم لنشر المعلومات الجديدة عن مخاطر ختان الذكور، وساعدت الثورة الإلكترونية الأخيرة في سرعة نشر هذه المعلومات وتكونت فرق من الأطباء تدعو إلى منع ختان الذكور وتقدم للجماهير العادية المعلومات الطبية عبر الإنترنت تحت عنوان:

"الأطباء يعارضون الختان" وبالانجليزية
"Doctors Opposing Cirumcision".

في المعركة ضد ختان الإناث انتصرت الحقائق الطبية والعلمية وصدر القرار في مصر بمنع ختان البنات عام ١٩٩٧، وقد حسم المعركة السلطة الدينية في مصر حين

أعلن الشيخ الأزهر أن الختان مسألة طبية م ن اختص ماص
الاطباء، وليست مسألة فقهية.

هذه عبارة صحيحة تماماً تتطبق على خت ان الأناث
والذكور وايضاً. والمفروض أن يطلع الاطباء في مصر على
المعلومات الطبية الجديدة التي تؤكد أن ختان الذكور ضار
صحياً وليس له أي فوائد كما اشيع قديماً.

منذ ثلاثين عاماً أو أكثر حين طالبت بمنع ختان البنات
حصراً على صحة النساء سخر مني زملائي الأطباء
،وأكدوا أن ختان الإناث عادة صحية م ن اجل النظافة
والجمال والعفة أيضاً.

واليوم قد يسخر كثيرون من الاطباء حين نطالب من مع
ختان الذكور، لقد ورثوا كثيراً من الأفكار القديمة الخاطئة
داخل علم الطب ذاته ، كما أن وقتهم الضيق لا يسمح لهم
بالاطلاع على المعلومات الطبية الجديدة إن التعليم في بلادنا
لا يزال يمشي بخطوة السد لحفاة في عصر الانترنت
والإنترنت.

المطلوب اليوم من وزارة الصحة ونقابة الأطباء أن
تلعب دوراً فعالاً لتعريف الأطباء الشباب به ذه المعلومات

الجديدة ، والتي لا يمكن تلخيصها في مثل ه ذه المقالات
الصحفية السريعة.

كما أن من حق الناس (من غير الاطباء) أن يعرفوا هذه
الحقائق الجديدة حت يحمي الاباء والأمهات أبناءهم من ه ذه
العادات القديمة الضارة جسدياً ونفسياً واجتماعياً.

أول رحلة بالمترو تحت الأرض في القاهرة

توقفت سيارتي ذات يوم فوقفت في الشارع لأركب تاكسي إلى الجيزة. كنت أعرف أن الاجرة خمسة جنيهات، إلا أن صاحب التاكسي أراد أن يأخذ عشرة جنيهات. رفضت وجاء تاكسي ، آخر قال لي السائق ادفعي ما تشاءين حين ناولته الخمسة جنيهها رفض وقال اريد ثمانية جنيهات. ضيعت وقتا في الجدل مع السائق الذي كان غليظ الصوت يستخدم لغة غير لائقة مما اصابني بالغضب. لم يكن عندي وقت ولا طاقة نفسية لأواصل الجدل فأعطيت له الثمانية جنيهها. كنت اعلم انه يستغل كوني امرأة مثقفة ووقتي ثمين وكرامتي اثن ولا اريد أن اهدرها في الشارع مع سائق التاكسيات. لهذا حصل مني على مبلغ لا يستحقه. رغم أن هذا المبلغ ثلاثة جنيهات فقط إلا أن يومي كله تعكر وسؤال ظل يلح على كيف تركت هذا السائق يستغلني رغم ثقافتي ودفاعي الدائم عن العدل؟! تضايقت من نفسي لاني تنازلت عن حقي. كنت أعرف أن أي استغلال لا يمكن أن يحدث

دون أن يتنازل الإنسان عن حقوقه، سواء كان فرداً أو جماعة.

إن الشعب الذي يتنازل عن حقوقه يخلق الحاكم المستبد الظالم في الدولة. إن المرأة التي تتنازل عن حقوقها تخلق الزوج المستبد الظالم في الأسرة التي تتنازل عن حقها تخلق صاحب التاكسي المستبد الظالم في شوارع المدينة.

تذكر اليوم بسبب هذه الأفكار التي تراجعت في راسي. كنت احضر اجتماعاً في جامعة القاهرة اتحدث فيه عن الديمقراطية، ووجدتني أبدأ الحديث بأن أقول أن الإنسان أو الشعب الذي يتنازل عن حقه في الحرية لا يمكن أن يعيش الديمقراطية، وفي الحزب السياسي، وفي البرلمان وكل مكان. وحكى ما حدث بين وبين صاحب التاكسي، وبدأ الحاضرون جميعاً نساء ورجالاً يحكون تجاربهم الشخصية، وكيف أنهم تنازلون عن حقوقهم كل يوم وكل لحظة من أجل يهرولوا إلى مواعيدهم وأعمالهم التي لا تحتل التأجيل.

في طريق العودة إلى بيتي قررت إلا اتنازل عن حق ي
،ولن أدفع أكثر من خمسة جنيهات ،،أن اضطررت إلى
العودة سيراً على القدمين. وفعلاً بدأت السير وكنت متحمسة
لهذه الحركة المتحدية لأصحب التاكسيات ،واصدأبنتي
الحركة مع الحماس بشحنة من السعادة،وكانت الشمس مشرقة
وهواء مايو منعشاً ، إلا أن المسافة بين الجيزة وحدائق شبرا
ب . دت أم . مامي طويل . ة ،وفج . أة رأي . ت محط . ة
" المترو"كانت المرة الأولى في حياتي التي أري فيها مترو
في القاهرة. لقد رأيت الكثير من محطات المترو في العالم
وركبت القطارات تحت الأرض (داخل الأنفاق) في معظم
العواصم والمدن، توقفت لحظة وقلت لنفسى: ولماذا لا أركب
المترو تحت الأرض؟! كنت أري العمال يحفرون شوارع
القاهرة منذ سنوات،واسمع عن أن مدينة القاهرة سوف يكون
بها قطارات تحت الأرض أو "مترو الأنفاق".

لم يكن لي أن أصدق أن هذا سوف يحدث ،وإن حدث
فلن أركب مترو الأنفاق في مدينة القاهرة! لم أذا صد يطرت
على الفكرة أن هذا المترو لن يسير ،وأن سارفسد وف
يتوقف أو يتعطل مثلماً تتعطل كل الأشياء في المدينة ومنها

المصعد الذي ياخذني إلى شقتي في العمارة الجديدة في الدور السادس والعشرين وكم توقف بي المصعد حيث كدت اموت في يوم من الأيام وتدربت على الصعود على القدمين ستو وعشرين دوراً تصورت أن مترو الأنفاق لن يك ون احسن حالا من المصاعد الكهربائية ،وقد ينقطع التيار في أي لحظة. بل قد يسقط النفق فوق القطار.او يحدث حريق أو تتسرب مياه المجاري إلى تحت الأرض أو يهمل احدهم وينسي شيئاً فإذا بقطار يصطدم بقطار آخر وكم من حوادث قطارات فوق الأرض فما بال تحت الأرض!؟

إلا أن الشمس قد بدأت تشتد حرارتها ،وبدأ الطريق من الجيزة إلى شبرا طويلا وجمعت شجاعتي وهبطت إلى مترو الانفاق.

أصابنتي ما يمكن أن يسمى " صدمة حضارية" كأنما أصبحت في أجمل المدن وانظفها وأكثرها احتراما للشعب ،ربما هي مدينة في سويسرا أو السويد ، ليست أبداً هي مدينة نيويورك أو لندن ،حيث أصد بحت القطارات تحت الأرض ومحطاتها من أقذر الامكنة وأكثرها خطورة، أذكر أن قطاراً احترق بي في نيويورك ،وقطاراً في لندن اصطدم

بقطار آخر ، واشتعل الحريق حتي كدت اختنق مع الآلاف
تحت الأرض لولا حضور بوليس النجدة والإسعاف.

تصورت أنني اصحبت خارج مصر ، لكنني تذكرت
أنني داخل محطة مترو الانفاق، وأنني واقفة على الرصيف
النظيف أتطلع إلى الاسهم، والعلامات التي ترشدني إلى حيث
أذهب. من حسن حظي أن خط الجيزة يذهب مباشرة إلى
شبرا، رأيت فوق الرصيف زحاماً من طلبة الجامعة
والطالبات و فلاحات وخادمات مازل يحملن سبوت
الخضار، وموظفين وربات بيوت، وفقراء ومن الطبقة الوسطي
وفوق الوسطي، رأيت بعض اساتذة الجامعة وبعض السيدات
الانيقات من الطبقة العليا، ونساء بالطرح والحجاب
والنقاب، ورجال بالجلابيب وملابس العمال، كل طبقات الشعب
المصري واقفة فوق الرصيف الطويل تنتظر القطار. فوق
رأسي رأيت جهاز تليفزيون يتحدث باللغة الانجليزية.
اندهشت لماذا الانجليزية مع أن جميع الركاب من
المصريين؟! جاء القطار وهبط الناس وصعد الناس في طابو
منظم جميل ذكرني بأوروبا عيون الشباب تتطلع إلى المحطة
والقطار بفرح وزهو، أو ربما هي عيوني التي ملأها الفرح

والزهو فتصورت أن كل العيون مثل عيوني. أجمل شيء أن
أحدي الطالبات فتحت كتاباً وراحت تقرأ رغم أنها كانت
واقفة وليست جالسة في مقعد.

تذكرت كم كنت أعجب بالناس في أوروبا حين أراه م
يقرأون في القطارات ولا يضيعون الوقت. قلبي يخفق بالفرح
والحب لهذه الوجوه المصرية الحميمة والبشرة السمراء بلون
بشرتي ، العيون السوداء بلون عيوني، إلا أن الفرح والفخر
يملاها وليس الحزن القديم أو الهوان المزمّن.

انطلق القطار بالسرعة التي تنطلق بها القطارات في
أوروبا وأمريكا، يحملني على جناح السرعة إلى شبرا في
دقائق، وأنا أتطلع في سعادة إلى جدران المحطات المتعاقبة
النظيفة الجديدة وكل شيء يبدو مفرحاً إلا بعد أسماء المحطات
التي بدت كلها أسماء رجال حكموا مصر ، كأنهم مدينة
القاهرة تحت الأرض يملكها الحكام الرجال كما ملكوها فوق
الأرض، ما هذا التقديس الموروث منذ الفراعنة لحكام مصر؟
كان يمكن أن تكون هناك محطة واحدة باسم حاكم في
التاريخ حرر بلادنا من الاحتلال الأجنبي مثلاً لكن أن نضع

اسماء كل الحكام هذا الذي حرر مع هذا الذي لم يحرر فهذا
مؤلم فعلا لمشاعر الشعب المصري الذي يدرك تمام ما أن
ليس كل حاكم يستحق أن يمتلك محطة تحت الأرض ، ألا
تكفي المحطات فوق الأرض؟!

في أوروبا كنت أقرأ أسماء كبار العلماء أو الأدباء أو
الفلاسفة الكبار الذين غيروا مسار الفكر البشري ليصبح أكثر
إنسانية وعدلاً وحرية وجمالاً. أغلبهم رجال بالطبع وقليل
جداً من أسماء النساء الفيلسوفات أو الأديبات المرموقات. إلا
أن مدينة القاهرة تحت الأرض في مترو الأنفاق مثلهما
كالمدينة فوق الأرض لم أقرأ اسم امرأة مصرية واحدة فوق
أحدي المحطات! إلا اسم "سانت تيريزا" (علي خط الم/رج/
حلوان)، والسيدة زينبت!

ألا توجد امرأة واحدة في تاريخ مصر القديم أو الحديث
تستحق أن يوضع اسمها فوق أحدي المحطات؟! وكم تفخر
أوروبا بنسائها المشاركات في تحرير بلادهن أمثال جان
دارك ، إلا توجد في مصر امرأة واحدة شاركت في تحرير
بلادنا خلال القرون الماضية؟! أو شاركت في الفكر والأدب
والعلم؟

وهل ينتقل العالم الذكوري الطبقي من فوق الأرض إلى
تحت الأرض بهذا الشكل المؤلم؟ كأنه لا بلادنا مسكونة
بالذكور فقط، وكأنما أصحاب السلطة يركبون على أنفاسنا
تحت الأرض أيضاً!

هبطت في محطة شبرا القريب من بيتي، قبل أن أصعد
إلى الشارع ذهبت إلى ناظر المحطة لأطلب خريطة لخواتم
القطارات. لا يمكن لأحد أن يعرف طريقه تحت الأرض
دون خريطة وفي كل مدن العالم يمكن الحصول على هذه
الخريطة من شباك التذاكر. فوجئت بأن ناظر المحطة ليس
لديه خريطة. وإن شبابيك التذاكر ليس بها خرائط. لماذا؟ لم
يكن لي أن أعود إلى بيتي دون خريطة استرشد بها في
رحلاتي القادمة داخل مترو الانفاق بعد نصف ساعة تقريباً.
وبعد أن قلت أنني كاتبة مهمة جداً استطاع ناظر المحطة أن
يحصل لي على خريطة. إنها مطبوعة بالالوان فوق ورق
مصقول لامع ثمين. اندهشت كثيراً لأن خريطة مترو الانفاق
في أغني بلاد العالم تطبع على ورقة عادية ولتكفون في
متناول الناس دون ثمن. سألت ناظر المحطة فقال لي ما
أدهشني. قال نحن لا نعطي هذه الخريطة إلا للسياح الأجانب

ولذلك لابد أن يكون مظهرها براق جميل قلت له ه ذا
المشروع " مترو الانفاق" للشعب المصري ، وليس للساح
الاجانب ، جميع الركاب والراكبات من المصريين
والمصريات فكيف تطبع الخريطة فقط للأجانب؟ وكيف
تكون الاذاعة في التليفزيون على الارصفة باللغة
الانجليزية؟! ابتسم الناظر رقة وقال: والله مش عارف!

أشياء صغيرة قد تفسد جمال الأشياء مثل النقط السوداء
فوق القلب الأبيض المملوء بالفرح ،قاومت هذه السليبات
القليلة التي يمكن أن تعالج عن طريق الكتابة والنقد من أجل
أن يفرح الشعب المصري بمشروع جديد يحرره من عبودية
المواصلات فوق الأرض ومنها التاكسيات ،وبدلاً من أن
ادفع ثمانية جنيهات لصاحب التاكسي دفعت خمس جنيه قرشاً
(نصف جنيه فقط) ثمن التذكرة من الجيزة إلى بيتي في
شبرا.

أدخلت سيارتي الجاراج، واخرجت أصحاب التاكسيات
من حياتي وقررت ركوب المترو تحت الأرض كل يوم.

مايو ١٩٩٩

أحلام إنسان بسيط

منذ ستين عاما وانت طفلة بالمدرسة الابتدائية رأيت
نفسك في الحلم داخل طائرة تسقطين منها القنابل مثل رذاذ
المطر، فوق ثكنات الانجليز على شط قناة السويس.
وانت نائمة لم تحلمي بالعرس او الفستان، أو الفرحة
في عيني ابيك وأمك، قتلوها الاثنان امام عينيك وانت طفلة
واخوك قتلوه واختك، واطفال الجيران وزميلك في المدرسة
،والإنسان البسيط الذي خفق له قلبك ثم مات وهو شاب.
وأنت يا علاء رأيتهم في طفولتك منذ ثلاثين
عاما، وأنت طفل في الخامسة من عمرك، اصحبت وحدك بلا
أم ولا أب، وأرغمك الفقر على البقاء في مسقط رأسك،
الذي لم يعد وطنك بل الأرض المحتلة بجيش اسرائيل
المدجج بسلاح الإنجليز والأمريكان والفرنسيين وغيرهم ممن
يحملون جواز سفر عربي.

وكل يوم تمشي في جنازة طفل شهيد، يحطم مثلك
بركوب الطائرة وإسقاط القنابل فوق الثكنات المسلحة، الحلم

الطفولي البسيط يا علاء لكل أطفال الحي الفقير في رام الله
وغزة وغيرهما من المدن والقرى.

كان يوم تمشي في جنازة شهيد أو شهيدة، وتعود إلى
زوجتك وأطفالك الخمسة أكبرهم في التاسعة من عمره،
ينامون بغير عشاء وبغير غطاء يراودهم الحلم الطفولي مثلك
ومثلي وكل الأطفال في بلادنا الذين فقدوا الحلم.

حرمك الفقر يا علاء من التعليم فاشتغلت سائقاً تحت
سيطرة حكومة الاحتلال، خمس سنوات وانت تقود الباصات
كل يوم من الصباح إلى المساء نظير أجر ضئيل تتقل العمال
من زملائك وجيرانك في قطاع غزة إلى تلك أبيب، ثم تعود
إلى مسكنك الفقير من غرفتين في حي الشيخ رضوان شمال
مدينة غزة.

خمس سنوات يا علاء وانت تقود الباصات وتمشي في
الجنازات ترقد إلى جوار زوجتك صامتاً مرهقاً تفكر في
مستقبل أصفالك الخمسة، وأطفال الجيران، وكل الأطفال الذين
قتلوا أمام عينيك.

تنام كل ليلة وانت تفكر في الموت تسأل نفسك في الحلم
إذا كان الموت هو النهاية فلماذا لا افعل شيئاً بسيطاً قبل أن
أموت؟ ويشغل عقلك الباطن في النوم ، تري نفسك داخل
الباص.الذي لم يعد باصاً بل طائرة تقودها بنفسك،لم تركب
في حياتك طائرة لكن قدراتك في الحلم تدهشك ، تقحم
بالطائرة عاصمة الاعداء ،تل أبيب نفسها تدخلها تلك التي لا
يدخلها أي جيش عربي ولا جيوش العرب جميعا مجتمعين
في القمم وغير القمم ، الجهابذة منهم والاباطرة والاسدياد
والسادة المؤيدين والمعارضين اليسار منهم واليمين والوسط
ويسار الوسط ويمين الوسط فهو لاء جميعاً يا علاء أصد بحوا
بغير سلاح إلا فصاحة اللسان في الشعر والخطب والمقالات
المحبرة فوق الورق.

تري نفسك في الحلم يا علاء تقود الطائرة من الف ولاذ
وليس من الورق ، طائرة مصفحة تكاد تشبه الباص الذي
تقوده كل يوم من الصباح إلى المساء يهتز بك سريرك وانت
نائم حين تقتحم تل أبيب بالباص المصفح ،الذي أصبح يطير
في الجو مثل الطائرة تماماً وأنت وراء عجلة القيادة.

في الصباح وجدت نفسك في بيتك موقوفاً عن العمل .
منذ بداية الانتفاضة طردوك انت وزملاءك أصبحت تخرج
كل يوم تبحث عن رزق أطفالك الخمسة وتعود فارغ اليدين
سنة شهور يا علاء وانت تمشي في الشوارع وفي الجنازات
، لا شئ أمامك إلا أن تموت أنت وأطفالك ، لكن قبل أن
تموت ماذا تفعل؟

هكذا رأوك تمشي في الشوارع شارداً ذهن تدوس على
دم الأطفال الشهداء وتمشي تغمض عينيك لحظة تري نفسك
راكباً الباص كالطيارة تنقل زملاءك العمال حتي مفتد رق
اليازور، القرية التي دمرها جيش الاحتلال جنوب تلك ابيب
تدور عجلة القيادة في يدك نصف دورة وتنطلق كالطائرة
نحو تكتات العدو.

تفتح عينيك يا علاء وتري نفسك تمشي في الشوارع
تدوس على دماء لم تجف. تتعثر في اشد لاء الأطفال
والرصاص يدوي في اذنيك وانت تمشي.. هكذا تمشي لا
تعرف إلى أين لم تدخل في حياتك حزبا يا علاء. لم تنضم
إلى تنظيم أو جماعة لم تعلق في بيتك صورة شهيد، كنت

مثال الطاعة والهدوء والعمل دون شكوي ، خمس سنوات
تقود الباصات تحت عيون الرقابة والجنود والضباط المهمة
المدربين على الاستجواب ولا تحقيق، ورؤساؤك في شدة ركة
الباصات ، والجميع شخصوك بأنك إنسان بسيط لا تحيط بك
أي شكوك لم يسبق لك أن اعتقلت من قبل جيش الاحتلال أو
الشرطة الفلسطينية ، ولم تكن لك مشاكل سياسية أو أمنية
أوجنائية ، أنت إنسان عادي بسيط لك زوجة وخمس أطفال
وليس شاباً أعزب طائشاً.

كيف إذن يا علاء يحدث ما حدث صباح الأربعاء ١٤
فبراير؟ منذ أيام قليلة أعادوك إلى عمالك ولم تعرف لم ماذا
أعادوك هل قمعوا الانتفاضة؟ هل مات كل الأطفال؟ هل
نفدت كل قطع الحجارة من الشوارع؟

خرجت يا علاء ذلك الصباح صامتاً كعادتك شامرد
الذهن جلست وراء عجلة القيادة داخل الباص أنزلت العمال
جميعاً عند مفترق اليازور جنوب تل أبيب وفجأة دارت
عيناك نصف دورة رأيت الفرقة العسكرية ثلاثين من جنود
الاحتلال واقفين هناك أغضت عينيك كما في الحلم، تدول

الباص إلى الطائرة المصفحة انطلقت نحوهم مثل الصواريخ
سقط منه ثمانية قتلى وواحد وعشرين جريحاً.

عقدت الدهشة السنة رؤسائك في شدة ركة الباصات، لم
يفهموا كيف يقوم إنسان بسيط مثلك بمثل هذا الهجوم، لكن
زملاءك البسطاء قالوا: ما حدث لعلاء أمر بسيط طبيعي،
إن ما نراه في حياتنا كل يوم يجعل الإنسان البسيط منا يقوم
بأي شيء ما فعله علاء لسي عملاً جنونياً، ولا انتحارياً ولا
أي شيء لقد فعل ما يفعله كل منا وهونائهم في الحلم.

القاهرة - ١٥ فبراير ٢٠٠١

عن توفيق الحكيم في ذاكره الـ ١٥

أولاً: لأحياء الذكرى:

إذا اردنا إحياء ذكرى توفيق الحكيم او اي انس ان ان و
انسانة قدمت افكارا جديدة تنتش ل عالمنا الانس اني م ن
الحروب أو العنف أو العدوان على حق وق الأخ رين أو
الأخرىات ، فإن أفضل ما يمكن أن نفعله ه و أن نناقش
افكار هذا الإنسان ، أو هذه الانسانة مناقشة هادئة عميقة، وأن
نعيد قراءة هذه الأفكار قراءة متأنية بحيث نكشف ما فيها من
إيجابيات فنبرزها ونظهرها ونطرحها للنقاش على أوسع
نطاق وعلينا ايضاً ان نبرز السلبيات أو ما نراه سلبيات مما
يوضح نقاط الاختلاف في الآراء والأفكار المطروحة وك
نتعلم أكثر من اختلاف وجهات النظر ، لأن الاختلاف يكشف
لنا عن نواحي الغموض " وعدم الفهم " إن العنف في الحوار
غالباً ما يكون سبب (هو الذي قدم لي نفسه بصفته إسلامي)
وبداً كلامه لي بصوت غاضب عنيف إلى حد أن اسد ملك
التليفون كانت تهتز من عنف صوته، إلا انني اسد تمتعت ل ه

حتى النهاية ثم بدأت معه حواراً هادئاً حول نقاط الاختلاف بيني وبينه، ثم اكتشفت أنه لم يقرأ كتاباً واحداً من كتب الأربعين، وأنه استقى معلوماته عني من بعض الصحف التجارية المنتشرة في السوق هذه السنين، واعتذر الرجل عن عنفه وسوء فهمه أو عدم فهمه لأفكاري.

هذا مجرد مثل واحد لما يحدث في حياتنا كل يوم. ونحن نقع في هذا الخطأ ونكرره على نحو غريب ويشجعنا على هذا تلك الحوارات العنيفة التي نراها على الشاشة والقنوات الفضائية المحلية والعربية والدولية، وقد أصد بح "العنف في الحوار" كأنما هو موضعه العصر الأمريكي ما بعد الحديث، وأشهر برنامج للحوار في الولايات المتحدة يحمل اسم "cross fire" "التراشق بالنيران" وفيه يجلس الشخص في مواجهة الآخر ويتراشقان بالألفاظ والأفكار كأنهما هي طلقات نارية فعلاً، يحاول المذيع أو مقدم البرنامج أن يفرض العراك على نحو يشبه الحرب.

وهي يمكن أن نقضي على الدروب الاقتصاد المادية واغتصاب الأرض أو الحقوق المادية للناس من أرض أو

مياه أو انتاج زراعي أو صناعي ونحن نعيش الحرب اليومية
حياتنا الفكرية والثقافية والأدبية؟

ربما لهذا لاسبب أكتب اليوم لأناقش فلسفة توفيق الحكيم
في ذاكره الخامسة عشر، لقد مرت خمسة عشر عاما على
وفاة توفيق الحكيم، ولم أفكر في مناقشة فلسفته إلا اليوم. ربما
كتبت مقالا واحدة أو مقالين خلال حياته، ومثلهما عند وفاته
أو في الذكري الأولى لوفاته ثم توقفت عن الكتابة عنه. ربما
شعرت كأنما انفخ في قربة مثقوبة كما يقولون، ولم أجد أحداً
متحمساً لأفكار توفيق الحكيم بعد موته، أو ربما قلّة قليلة
كانت متحمسة، ثم ضعف حماسها مع مرور السنين.

وهذه عادة سيئة نتوارثها جيلا عن جيل منذ عهد
الفراعنة، أو السلطة المطلقة في المجتمع الكبير والعائلة
الصغيرة، أن " السلطة السياسية " هي التي تحدد لنا الافكار
والقيم والثقافة والادب والفلسفة، ويطغى على الساحة
الفكرية رجال ونساء السياسة وليس رجال ونساء الفكر.

ربما لهذا السبب شعرت بالزهد والابتعاد عن تلك
الضجة الإعلامية الكبيرة لاعادة مناقشة فلسفة جمال عبد
الناصر وعبد الحكيم عامر، و شعراوي جمعة وغيرهم من

القيادات السياسية لثورة يوليو ١٩٥٢ ، وانا بالطبع لست ضد مناقشة أفكار رجال ونساء السياسة لأن الفكر والسياسة والثقافة والاخلاق والاقتصاد وغيرها كلها متشابكة ويجب أن تكون متشابكة نظرياً وفكرياً واجتماعياً. ف الواقع اليومي المعاش يؤكد تشابكها وتلاحمها.

ولكني ضد تركيز الاضواء أو معظم الاضواء على اصحاب السلطة السياسية، واعتبارهم قادة الفكر والفلسفة. على حين نهيل تراب النسيان على المفكرين الحقيقيين من الرجال والنساء ، الذين زهدوا في السلطة من أجل التعمق في الفكر والفلسفة.

وكان توفيق الحكيم واحداً من هؤلاء الزاهدين ، وقد عرفته عن قرب شديد في اجتماعات لجنة القصة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، ولمدة ثلاثة أو أربعة أعوام من عام ١٩٦٩ حتى عام ١٩٧٢ ، وكان هو رئيس اللجنة. وكنت أذكر عضوة بهذه اللجنة آخرين وأخريات من الأدباء والادبيات. أذكر منهم يوسف الشاروني ويوسف إدريس ونجيب محفوظ ولطيفة الزيات وثروت اباطة وغيرهم. كان أغلبهم من

الشباب وانا كنت شابة انظر إلى توفيق الحكيم باعتباره من الكهول بشعره الابيض وشاربه الابيض وعصاه التي يتكئ بها حين يمشي وصوته المبحوح قليلاً. وأسنانه الصفراء من الدخان ربما ، وخوفه من قيادات السيارات ، وكانت قيادة سيارتي كفتاة شابة تجعلني اكثر استقلالاً من توفيق الحكيم، إذ أركبها واقودها وحدي إلى بيتي في الجيزة بعد انتهائنا اجتماع لجنة القصة في الزمالك اما توفيق الحكيم فكان ينتظر ثروت أباظة ليأخذه بسيارته إلى بيته.

مع ذلك كان توفيق الحكيم اقرب إلى من الشد باب اعضاء اللجنة ، عيونهم كانت باهتة قليلاً إلى جانب عيني المتقدتين بالبريق الاشبه بالطفولي ، اقرأ في عيني شقاءه الطفل الذي اصبح كهلاً ومع ذلك يحتفظ بطفولته وسد حاجته ومكره وكان توفيق الحكيم مأكراً مثل معظم الفنانين الحقيقيين ذلك المكر النابع من دهاء الفن وذكاء الابداع وكان يحكي لنا النكت السياسية التي تتعد السلطة المطلقة للحكم دون أن يتعرض لمضايقات رجال الأمن. وكان مثل الأطفال يضحك على النكتة قبل أن يحكيها لنا، بل كثيراً ما كانت سخريته تمتد من السلطة المطلقة فوق الأرض إلى السلطات

المطلقات في السماوات وإلى الفراعنة الآلهة في مصر القديمة.

وكم اود لو عندي الوقت أن اكتب كتاباً كاملاً عن توفيق الحكيم كإنسان وفنان وصاحب فكر وفلسفة. ربما ما نشرت بعض الكتب عن توفيق الحكيم ، لم أقرأها ربما لا. إلا أن ما قرأته عن توفيق الحكيم قد سقط عنه اهم عناصر توفيق الحكيم الفكرية أو النية أو الإنسانية.

وفي هذا المقال الموجز عن توفيق الحكيم وفي ذاك راه الخامسة عشر اود أن اناقش فكرة واحدة من افكاره وهي فكرته عن تحقيق السلام فوق الكرة الأرضية هذه الفكرة شغلت المفكرين من النساء والرجال منذ نشوء العبودية وحتى اليوم.

ونحن نعيش اليوم هذه المشكلة الكبيرة المتعلقة بمشروع السلام أو عملية السلام الممطوطة بين دولته إسرائيل والشعب الفلسطيني وكيف يذبح هذا الشعب أمام عيوننا كل يوم تحت اسم السلام وهذه الكلمة " السلام " أصبحت مراوغة وثعبانية ومفرعة ومرعبة أكثر من كلمة "

الحرب" بل قد تبدو كلمة "الحرب" أحيانا بريئة وإنسانية إلى جانب كلمة السلام.

وما أحوجنا اليوم إلى إعادة قراءة افكار توفيق الحكيم وغيره من المفكرية والمفكرات عن كيف يمكن للسلام الحقيقي أن يتحقق في عالمنا الذي يسير نحو مزيد من الحروب والدمار الشامل.

ثانياً: وماذا يقول توفيق الحكيم عن تحقيق السلام؟

كان توفيق الحكيم متحمساً شديداً للحماس لفكرة تحقيق السلام، في عالمنا البشري كله وليس فقط في عالمنا العربي ، كان مثل " ارسطو " الذي انشغل طوال حياته بالفكرة ذاتها، وكيف يتحقق السلام فوق الكرة الأرضية. إلا أن ارسطو عاش في العصر اليوناني العبدودي (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) وكان جزءاً من هذا العصر وحين يكون الإنسان جزءاً من شئ فإنه لا يري إلا هذا الشئ أو لا يراه كله ،العين لا تري نفسها رغم أنها الجهاز الذي يري ،وهذه مشكلة تعتد برض جميع الفلاسفة من الرجال والنساء، وهناك امرأة فيلسوفة في عصر العبودية خلع عينها لتري أكثر وهناك مثل مصدري قديم يقول: إن آلهة السماء أعطوا المعرفة للعميان ،وأكثر الفلاسفة في الريف المصري كانوا من العميان،،من أشد مهر الفلاسفة في مصر "طه حسين" وكان لا يري بعينه ولكن بالعقل والفكر والبصيرة.

ليس معني ذلك اننيب ادعو المفكرين والمفكرات في بلادنا إلى خلع عيونهم ،ولكني أود إن أقول أن العين لا تري نفسها، هذه بديهية تغيب عن عقولنا ضمن بديهيات أذري كثيرة وبسيطة ،ولأنها بسيطة فإنها تفوت على الناس ونحن نبحث عن المعقد والمركب وهذه مادة فلسفية سيئة ،إذ نتصور أن الفكرة المعقدة المركبة هي الفلسفة. في حين أن الفلسفة الحقيقية هي الواضحة البسيطة بساطة الحياة والطبيعة والجمال الطبيعي وضوء الشمس.

من الأشياء الواضحة أننا لا نري ظهورنا على شكل كامل كما يراها الآخرون والأخرىات وكم نحاول من خلال المراة أن نري ظهورنا دون جدوي وهذه حقيقة شغلنتني في أول الشباب ، كنت أحسن نظرات الأخوين والأخريات فوق ظهري بعد أن استدير وأدرك (بغيط شديد) أنهم الغرباء عني اقدر على رؤية ظهري أكثر مني.

وهي مشكلة فلسفية ازلية تعرض لها أرسطو وغيره من الفلاسفة وقد عاش أرسطو القيم العبودية (أو القيم التطبيقية الأبوية) ورضعها من أمه في طفولته دخلت هذه القيم والأفكار إلى عقله وجسده مع لبن الأم ،ولهذا عجز أرسطو

عن رؤية النقص في هذه الافكار ،ورغم أنه من رواد "العقل" في الفلسفة ونبذ الخرافات. إلا أن بعرض خرافاته العبودية تسربت إلى فلسفته ومنها فكرة أن الله خلق العبيد والنساء من أجل الخدمة والاعمال الجسدية، اما الاعمال الفكرية فهي من اختصاص الاسياد من طبقة النبلاء ومنهم أرسطو.

وربما لو عاش ارسطو في زماننا هذا ما كان له أن يؤمن بهذه الأفكار التي ثبت خطأها بعد أن تحرر العبيد والنساء وظهرت لهم ولهن أعمال فكرية غير مسبوقة في العالم.

وكان النقاش يدور بيني وبين توفيق الحكيم عاجزاً عن رؤية المرأة المفكرة مثله، كان يتصور دائماً أن عقل المرأة أقل من عقل الرجل، وإن قيمة المرأة في جمالها والجسدي الظاهر وليس في عقلها. كنت أختلف معه في هذه الفكرة، ومع ذلك ظل الحوار بيننا متصلاً رغم الاختلاف وهذا ما كان رجال أدباء انقطع الحوار بيني وبينهم بسبب عنفهم في الكلام، أو اتهامهم لي "بالرجولة" ومنهم يوسف إدريس، الذي كان يتصور أن ذكاء المرأة يتناقض مع أنوثتها.

لاشك أن أغلب الأدباء والمفكرين الرجال في بلادنا عاجزون حتي اليوم عن فهم المرأة الحرة المستقلة عقلياً عن الفكر الذكوري الطبقي ، بمثل ما هو عاجزون عن فهم الرجل الاجير في الأرض اوالمصنع الذي يقوم اسد تغلال الطبقة الاقطاعية أو الطبقة ربما كان توفيق الحكيم أكثر تحرراً وتقدماً في أفكاره عن كثير من الرجال المعاصرين لنا اليوم وكان يدرك القهر الاقتصادي الواقع على الفقراء في بلادنا وفي العالم كله.وكان يدعو إلى الغاء الفقر أو الجوع كشرط اساسي لتحقيق السلام على الأرض وهذه فكرة هامة تربط بين السلام السياسي والعسكري وبين العدل الاقتصادي ، إلا انه وقف عند هذه الحدود وعجز عن تجاوزها بحكم انتمائه إلى قيم عصره التي رصدها في طفولته ،وهي القيم الطبقية الأبوية، المختلفة كثيراً عن القيم التي عاشها ارسطو ، إلا أن الاساس الفكري لها ما يظل متشابهاً.

ويمكن في إيجاز شديد تلخيص فكرة توفيق الحكيم عن تحقيق السلام على النحو التالي:

- ١- تحقيق السلام عن طريق القضاء على الجوع،
والغاء الحدود الدولية والخوف وعدم الثقة بين
الدول.
- ٢- فصل موضوع السلام عن السياسة والأخلاق والقيم
والعواطف.
- ٣- تحقيق السلام على اساس علمي بحت.
- ٤- استخدام الخيال العلمي والفني لصياغة مشروع
السلام.

هذه النقاط الأربعة الأساسية لمشروع توفير الحكيم
تستحق الدراسة والتأمل بعمق وبها إيجابيات لا شك وبها ما
أيضا سلبيات وأنا اتفق مع توفير الحكيم في أن الخيال سواء
في العلم أو الادب أو الفن يسبق دائما أي مشروع علمي أو
أدبي أو فني. وهل يمكن أن يكون هناك إبداع جديد في أي
مجال دون خيال؟ ولعل أهم ما ينقص النظم التعليمية في
العالم هي عجزها عن تنمية خيال الطفل والطفلة، وتحت اسم
المحظورات السياسية أو الدينية أو الاخلاقية.

ومن هنا عدم انفصال الاخلاق عن السياسة وعن الاقتصاد وعن مشروع السلام الذي يمكن أن يتحقق على الأرض. وربما اشير هنا إلى فكرة توفيق الحكيم التي تفصل بين السلام والأخلاق والقيم والعواطف أو التي تفصل بين ما هو علمي بحت وما هو اجتماعي وثقافي وأخلاقي. وهل هناك شيء اسمه علمي بحت بعيداً عن السياسة أو الأخلاق والقيم والعواطف؟ وهل يختلف الخيال العلمي عن الخيال الأدبي أو الفني؟ وهل يمكن فصل التفكير عن الأحساس والعاطفة؟ هل يمكن فصل العقل عن الجسد؟!

هنا وقع توفيق الحكيم في الثغرة الفكرية ذاتها التي وقع فيها أرسطو وفصل بين الجسد والعقل وجعل الأعمال الجسدية من نصيب الفقراء والنساء وجعل الأعمال الفكرية من نصيب طبقة النبلاء الأسياد الرجال.

ربما لهذا السبب ظل مشروع توفيق الحكيم مشروعاً خيالياً غارقاً في الوهم والتعميمات دون النزول إلى أرض الواقع.

ظل مشروعه مجرد رواية أدبية مثل أعمال جول فرن وويلز وزبولكوفسكي وغيرها من الأعمال التي استشهد

بها، وهي أعمال ريادية فعلاً في عالم الأدب والفن وربما
ساهمت في تغيير مسيرة العالم الإنساني على نحو ما، إلا
أنها عجزت عن تحقيق السلام المنشود الذي نحلم به ويحلم به
توفيق الحكيم.

وقد ظل توفيق الحكيم يتحدث عن مشروع للسلام في
لجنة القصة بالزمالك وفي مكتبة بجريدة الأهرام، كان يطلب
لي فنجان القهوة (رغم ما أشيع عن بخله) ويتحدث مع
الساعة وراء الساعة مشروعه الخيالي لتحقيق السلام في
العالم.

- ولكن يا استاذ توفيق مشروعك ده غير قابل للتحقيق.

-ليه يا دكتور؟ (كان خجولاً يتحرج من أن ينطق اسمي).

-لأنك تفصل بين العلم والسياسة والأخلاق.

-لازم نفصل، إنتي طبيبة درست الطب يمكنك عمل مشروع

طبي علمي. لكن انا لم أدرس الطب ولا يمكن أعمل

مشروع طبي علمي، مش كدة؟!

-لا مش كدة يا استاذ توفيق، لأن دراسة الطب وحده (كعلم

منفصل عن المجتمع والسياسة والاخلاق) لا يمكن

تؤهلني لعمل مشروع طبي علمي ناجح يقضي على
الأمراض، أبداً.

-ليه أبداً؟

-لأن الأمراض هي ظواهر سياسية واجتماعية واخلاقية، ولا
يمكن اعرف الاسد باب الحقيقة للأمر راض الجسد مية
او النفسية إلا بدراسة المجتمع والسياسة والاقتصاد م ثلا
اغلب الامراض في بلادنا بسبب الجوع والفقر.

-برافو انا معاكى الجوع اكبر مشكلة ولذلك لابد من القضاء
على الجوع.

-أيوة يا استاذ توفيق. لكن كيف نقضي على الجوع بالعلم
البحث المنفصل عن السياسة والاخلاق والعواطف؟

-انا قصدي لازم مشروع السد لامي يوم على فروض
علمية، ووضوح الهدف مثل هدف الصعود إلى القمر ليه
ما يكونش هدفنا "الطعام لكل فم" كل الافواه في العالم لو
اكلت وامتألت فإن الحروب تنتهي ويتحقق السلام، م ش
كده؟

-لأ مش كدة يا استاذ توفيق، لان المش كلة مش الطعم
وخلص، ولان الانسان رجل وامرأة لا يمكن يعيش على
الاكل بس ،ليس بالخبز وحده يعيش الانسان.

-ده كلام نظر يا دكتورة.

-لا يا استاذ توفيق ده كلام عملي.

-عملي أزاى؟

-مثلا انت عندك طعام مش كده؟

-طبعاً ،خصوصاً صنية البطاطس اهم عندي من ارسطو!
وضحك توفيق الحكيم مقهقهاً وكنت احب فكاهته كثير
واضحك معه. لكني اعود إلى المناقشة وكمان يرمقني
بعينه مندهشاً قليلاً كيف يمكن لامرأة أن تجادل على
هذا النحو ،وهي امرأة شابة جميلة كما يقول لي ،وهذه
المناقشة العقلية الجادة على هذا النحو وهي امرأة شابة
جميلة كما يقول لي ،وهذه المناقشة العقلية الجادة تفسد
جمالها وأنوثتها. لكني رغم ذلك كنت أواصل النقاش ،
ومن أجل المعرفة الوصول إلى الحقيقة كنت مسعدة
للتضحية بشبابي وجمالي وأنوثتي وكل شيء بما فيه
الدعوة إلى تناول الغداء.

-إيه رأيك تأكلي معايا صينية البطاطس بدل المناقشة دي؟
-يا استاذ توفيق انا شايفة إن المشكلة ليس فقط الطعام
صحيح الطعام ضروري، لا يمكن أفكر أو أكتب
رواية على معدة فاضية، لكن ممكن أكل واملا
نفسي بالطعام وظيل عقلي خاوياً وتظلل عواطفني
خاوية، واطل أو من بالقيم الطبقية الأبوية التي تنظر
إلى كامرأة شابة جميلة بلا عقل أو ناقصة العقل!

-انا قلت كده؟ ابدأ والله ما قلت كده!

-انت يا استاذ توفيق تفصل بين العلم والعاطفة، أو بين
العقل والعاطفة وده مستحيل لان العاطفة جزء من
العقل، لأن الخيال جزء من العاطفة، ولا يمكن
فصل الخيال عن العقل عن العاطفة.

أنا عندي سؤال لك يا دكتورة؟ هل خيال الرجل مثل
خيال المرأة؟ هل عاطفة الأم مثل عاطفة الأب؟ الأمومة كلها
عواطف وإنسانية، لكن الرجل هو العقل.

-وعدم الإنسانية؟!

-أيوه المرأة أكثر إنسانية من الرجل وأكثر حناناً وعطفاً.

-علي الفقراء والجوعى؟

-أيوه.

-إذن المرأة أقدر من الرجل على عمل مشروع للقضاء
على الجوع، لأن العاطفة أو الخيال لازم يسبق
التفكير في المشروع زي ما انت بتقول يا أسد تاذ
توفيق؟

-أنا معاكي المرأة أقدر من الرجل إذا أصبح لها فرصة في
الحياة أو التحرر من القيود. لكن النساء عندنا عندهم
عشق للقيود، المرأة المصرية تفضل الرجل الحمش
اللي يخمشها مش كده؟

-لأ مش كدة، فيه نساء مصريات عندهم وعي وكرامة،
ويفضلوا الرجل الإنسان القادر على احترام المرأة
ومعاملتها كإنسان أو إنسانة كاملة العقل والجسم.

-يمكن الأقلية القليلة لكن الأغلبية

-أيوه الأغلبية خاضعة للقيم العبودية. لكن عدد النساء
المتحررات في تزايد مستمر، ولأزم نشجعهم لأن
المجتمع نصفه نساء، وأي مشروع للسلام أو للتنمية
لا يخاطب النساء ولا يتعرض لمشكلة القهر الأبوي
والجنسي مثل ما يتعرض لمشكلة الفقر أو الجوع أو

الفقر الطبقي أو الاقتصد مادي لا يمكن لمثل هؤلاء
المشروع أن يكون واقعياً ،سيظل مشرعاً خيالياً
وهمياً لأنه يتجاهل نصف المجتمع الحقيقي وهن
النساء.

- فيه مجتمعات نسائية ومشروعات كثيرة للمرأة
دكتورة.

-أغلبها مشروعات خيرية أو اجتماعية لا تدخل ضد من
القضايا السياسية الهامة مثل قضية الديمقراطية أو
قضية الفقر أو الجوع أو قضية السلام أو الاشتراكية.
-إنني ناصرية يا دكتور نوال؟
-لا.

إنتي ماركسية؟
لا.

- يا تري إيه خلافاك مع كارل ماركس؟
-كارل ماركس لم يشمل نصف المجتمع من النساء من
نظريته الماركسية.

-أنا معاك ، لكن فريدريك إنجلز كتب عن النساء في
كتابه " أصل العائلة" مش كدة؟

-أيوه، لكن إنجلز تصور أن خروج النسء للعمء ل ف ف ف
الصناعة سوف يحررهن ولم يدرك أن النسء ماء
الفلاحات يذ رجن للعمء ل ف ف ف الحق وق دون أن
يتحررن، وأن الرجال يعملون في الصناعة دون أن
يتحرروا، فالمسألة لسيت مجرد خروج المرأة للعمل
بأجر خارج البيت.

-أمال إيه؟ الأجر يعني الطعام، وإذا أطعمت المرأة نفسها
تحررت، مش كده؟

-أيوه، لكن الطعام لا يكفي للتحرر، المرأة إنسان لا يمكن
أن تعيش بالطعام وحده، بالطبع يجب إشباع المعدة.
لكن العقل أيضاً في حاجة إلى إشباع عن طريق
الوعي والمعرفة والفكر والثقافة.

-الأول نملأ المعدة ونملأ الأفواه الجائعة، ثم بعد ذلك نملأ
العقول، خطوة خطوة مش كده؟

-لأ مش كده يا أستاذ توفيق ، في رأيي أن نقدم الغذاء
للمعدة والعقل في آن واحد، هل هناك مانع أن نقدم
مع رغيف الخبز فكرة جديدة تدخل المخ؟

-برافو يا دكتورة، أنا معاك في عدم فصل الثقافة عن السياسة وده يمكن يكون خلافي مع رجال الثورة.

-لكن إنت تفصل أيضا في مشروعك لتحقيق السلام بين السياسة والثقافة والأخلاق والعواطف ، مش كده؟

-أنا مؤمن بإلغاء الجوع والخوف والحدود الدولية وكل شئ في حياتنا لازم يكون في وحدة كما لو كانت الأرض وحدة بلا فروق بين البشر على أساس الجنس أو الجنسية أو الطبقية أو الدين أو العرق أو أي شئ آخر موافقة يا دكتورة؟

-أيوة يا أستاذ توفيق. لكن دي فكرة أخري غير مشروعك للسلام.

كانت الساعة قد قارت على الثانية والنصف بعد الظهر ، وكان ثروت أباطة قد جاء ليأخذ توفيق الحكيم إلى بيته، وتذكر توفيق الحكيم صينية البطاطس فجأة.

-أنا داعي الدكتور نوال على صينية البطاطس.

واتسعت عينا ثروت أباطة قليلاً وقال:

-أول مرة في حياتي أسمع توفيق بيه يعزم حد ع الغدا!

ولمعت عينا توفيق الحكيم بالبريق الطفولي وقال ضاحكاً:

-أنا عزمتهأ لكن أنت حادئدفع!
-أنا مستعد ديا توفيق بيه وعندنا صينية البطاطس معتبرة!
-أيوه الصواني الأباطية والأماضية!
-خلاص يا توفيق بيه، الصواني دي كانت م ن عش رين
سنة قبل الثورة المباركة!
-أصله رأسمالي يا دكتورة.
وضحك توفيق الحكيم وهو يمشي مع ثروت أباظة، ال ذي
كان يسحبه من يده إلى البا،وقبل أن يخذ رج توفيق
الحكيم لوح لي بيده مودعاً قائلاً: أهو انتصر على
كي وأخذني منك.
كان ذلك آخر لقاء لي مع توفيق الحكيم، لوحته له بيدي
مودعة،وأقول له اليوم،"وداعاً" بعد أن تأخرت في وداعك
خمسة عشر عاماً.

القاهرة -٢٧ يوليو ٢٠٠٢

اختيار الصعب

تكشف الحوادث اليومية عن القيم الغائبة في الفكر المعاصر في بلاد العالم وفي بلادنا ينشغل أغلب الناس بالسهل السريع العائد، مثلاً في أمريكا ينشغل أغلب المثقفين بالحمي الانتخابية بين الحزبين المتنازعين على السدة لطة ،يتبادل المرشحون الاتهامات ، يحاول كل منهم خداع أكبر عدد من الناس بالوعود التي لا يمكن تحقيقها في ظل النظام الحاكم الذي ينطوي جميعهم تحته.

ضحكت وأنا أستمع إلى وعود جورش بوش(الابن) وآل جور (نائب كلينتون)، كلاهما سوف يقضي على الفقر والبطالة.

ألم نسمع المرشحين السابقين يقدمون هذه الوعود نفسها؟ هل قضي أحد منهم على الفقر في أمريكا؟ بل لقد زادت الهوة بين الفقراء والأغنياء!

بالمثل ضحكت وأنا أستمع إلى وعود المرشد حين في بلادنا يجولون في الحوارات الطافحة بالمجاري، يقدمون الوعود نفسها للفقراء، سوف نقضي على الفقر والبطالة إن

دخلنا البرلمان أو مجلس الشعب. يقولون ذلك في الصد باح، وفي المساء يجلسون إلى مائدة العشاء مع الوزراء والمسؤولين عن السياسة، لأسباب متعددة منها عدم الفهم لما يسمى الإصلاح الاقتصادي، أو التنمية التي تؤدي إلى توسيع الهوة بين الفقراء والأغنياء، ومنها الخوف من نقد أصحاب السلطة، أو تجاوز حدود النقد المرسومة، أو تجاوز الخطوط الحمراء، مما قد يعرضهم للخطر، وليس فقط السقوط في الانتخابات.

أغلب الناس في بلاد العالم (ومنها بلادنا) لا يذهبون إلى صناديق الانتخاب، لقد أدركوا اللعبة على مر السنين، منذ نشوء ما سمي البرلمان، وهل نجح البرلمان في القضاء على الفقر والأغنياء وبين النساء والرجال، تعاني النساء أكثر إلى حد شيوع الظاهرة التي عرفت باسم تأنيث الفقر؟ وهل نجح البرلمان في القضاء على الفروق بين الناس (بسبب الدين أو الجنس أو العرق أو اللون أو غيرها) أم أن هذه الفروق زادت وانتشرت الحروب والنزاعات الطائفية والعرقية والعنصرية؟

ثم لماذا تشجع الحكومات الناس على المشد ماركة في الانتخابات؟ أليس هذا دليلاً على أن هذه الانتخابات جزء من نظام الحكم القائم على إفقار الإغلبية من النساء والرجال وخداعهم؟ وجزء من القيم التي تتحكم العالم القائمة على القوة وليس الحق؟ ألسنا في حاجة إلى طرح أسئلة جديدة لنفهم لماذا يتراجع اصحاب الحق أمام أصحاب القوة المسلحة أو القوة الاقتصادية؟

أنظروا كيف أصبح القرار الأعلى في يد دولة عسكرية عنصرية مثل إسرائيل تقتل الأطفال ثم تخرج من الساحة بريئة، ويصبح الأطفال هم المدانون المعتدون؟ في ظل النظام البرلماني الديمقراطي في العالم يتحول الضحايا إلى جناة، ويطلق سراح القتلة، أسمعتهم ما قاله كوفي عنان المسئول الأول في الأمم المتحدة؟ لقد أدان الأطفال وطالبهم بإيقاف عدوانهم على إسرائيل المسكينة، شيء مضحك فعلاً، لكن لماذا نذهب بعيداً وهذا المنطق ذاته يحكم حياتنا اليومية هنا في عقر دارنا؟

منطق القوة فوق الحق!

اقرأوا معي هذا الخبر الذي نشد رثه الصدف دون أن
يعلق على ه احد:

قتل موظف ابنته عمرها ١٧ عاماً لأن أحد أقاربه عنده
٥٧ عاماً استدرجها داخل الحقول واعتدي على ها مسد تغلاً
صغر عمرها وضعف بنيانها. ماذا نتوقع من محكمة عادلة؟
لكن العدل يغيب أمام القوة. تقف المحكمة مع الأب القاتل
تتعاطف معه، تقول أنه فقد وعيه لحظة دفاعه عن شرفه!
هكذا ضاع حق البنت المقتولة ظلماً وغدراً.

لكن هذه المحكمة ذاتها تحكم بالاشغال الشاقة عشر
سنوات على أم صغيرة عمرها ١٨ عاماً قتلت مولودها.
الذي أنجبته من رجل أخذها عنوة. خدعها بالزواج ثم هرب،
وهي فتاة صغيرة فقيرة ليس لها أحد، من شدة حبها لمولودها
وخوفها على ه من قسوة المجتمع حوطته بذراعيها حي مات
في حضنها وهي تبكي. لم تتعاطف المحكمة مع الأم الصغيرة
الضحية كما تعاطفت مع الأب الكبير الأقوي، وقالت المحكمة
إن الأم التي تقتل طفلها امرأة تجردت من العواطف
الإنسانية، لماذا لم تقل المحكمة هذا الكلام عن الأب الذي قتل
ابنته؟ صورت المحكمة هذا الأب القاتل على أنه ضعيف

وفاقد الوعي في لحظة القتل! أما الأم الفتاة الصغيرة الضحية فهي ليست ضعيفة، ولا يجوز لها أن تفقد الوعي مثل الرجل الكبير! كأنما الرجل هو الجنس الضعيف اللطيف الذي يستحق الرحمة، وليس المرأة أو الفتاة الصغيرة، أي قلب الأوضاع!

لم ينطق أحد مدافعاً عن حق هذه الفتاة الصغيرة التي حكم على ها بالسجن مع الأشغال الشاقة عشر سنوات، ولم ينطق أحد دفاعاً عن الأبنة الصغيرة التي أهد دمها، وكم من حوادث من هذا النوع تهدر فيها دماء البنات الصغار ظمماً وغدراً دون أن يعترض أحد داخل البرلمان أو خارجه من المدافعين عن حقوق الإنسان.

أليس دم هؤلاء البنات الأطفال مقدساً وثمانياً مثل دم الأطفال في فلسطين؟

أليس دم البنت الطفلة المقتولة بيد أبيها مثل دم الطفل المقتول بيد إسرائيل؟ لقد غضبنا عن حق لمقتول الطفل الفلسطيني؟ فلماذا لم نغضب أيضاً لمقتل البنت المصرية؟ هل لأنها تعيش في قرية فقيرة مجهولة؟ هل لأن صورتها لم تظهر في الصحف أو على شاشة السي إن إن؟

في طفولتي سمعت أبي يقول: أحترمت نفسي حين
خيرتها بين السهل والصعب فاخترت الصعب. ربما لأنه ذا
السبب لا انظر بإعجاب أب كبير له هؤلاء الذين يركبون
الموجة، وإذا كان الجميع على رأسهم الحكومات قد بكوا
ولطموا الخدود حزناً على إهدار دم الطفل محمد الدرة،
فلماذا لم يذرف أحد دمعة واحدة على هذه الطفلة المقتولة
وغيرها من البنات الصغيرات المقتولات؟ بالطبع كان البكاء
الجماعي سهلاً وميسوراً لا يعاقب على هاحد، ومن السهل
البكاء في الصباح ثم السهر في الليل مع الوزراء وأصدحاب
السياسة التي أدت إلى إهدار دم الطفل الفلسطيني البريء.

نشهد هذا التناقض في حياتنا كل يوم، ينتابني الغثبان
وأنا أشهد الصراع الدامي حول السلطة تحت اسم النيابة عن
الشعب، أصبح البرلمان هو النكان، والانتخابات هي الوسيلة
ويكيل المرشحون الوعود للفقراء والمعدمين، يعبدون لهم
الوهم في الزجاجات، من أجل المقعد تحت القبة. ألا تتكرر
هذه الحمي في مواسم الانتخابات مثل مواسم الدودة والكوليرا
والحمي الصفراء؟ وهل تحقق وعد واحد من هذه الوعود؟

المسرحية تتكرر ربما يتغير الممثلون والممثلات. إلا أن المسرحية هي هي ، والوعود هي هي ، القضاء على الفقر والبطالة، ويظل الفقر بل يزداد ضراوة ، وبالطالة تزيد عاماً وراء عام، ألم تسمعوا عن الشباب المصري الذين يسافرون إلى إسرائيل بحثاً عن عمل؟ ألم تسمعوا عن أم قتلت طفلها لتحميه من الجوع أو الفضيحة فإذا بها تعاق بالسد جن مع الأشغال الشاقة؟

هل دافع عضو واحد أو عضوة واحدة في البرلمان عن هذا القطاع من الأمهات المقتولات ، أو البنات البريئات اللاتي يهدر دمهن وهن الضحايا؟ هل أدخلهن أحد المرشحين أو إحدى المرشحات ضمن برنامج الدفاع عن حقوق الشعب؟ ألا يدخل هذا القطاع المتزايد العدد على الدوام ضد من قطاعات الشعب؟

لا يمكن. فهذا هو الطريق الصعب الذي يدفع فيه الإنسان ثمناً باهظاً، وليس الطريق السهل الذي يمشي فيه الجميع، ليس الكورس الذي يشارك في المسرحية المعروضة بتصريح ، والذي ينتهي دوره بإنزال الستار والحصول على الأجر.

لاشك أن دماء الأطفال والنساء والشباب المهدرة على
أرض فلسطين تستوجب العمل الجاد والمقاومة الفعلية ،
وتجميع القوي العربية وغير العربية ضد الاعتداء الإسرائيلي
العسكري وغير العسكري ، أصبحت هذه المقاومة ضرورية
لحياتنا نحن وليس فقط من أجل فلسطين، إن الزحف
الإسرائيلي والأمريكي لن يترك بلداً واحداً مستقلاً، ولكن إن
فاقد الشيء لا يعطيه ، وإصلاح البيت من الداخل لا ينفصل
عن إصلاحه من الخارج، والدفاع عن الدم المهدر في
الداخل، فالدم هو الدم بصرف النظر عن المكان، والطفلة
الفقيرة في القرية المجهولة بالصعيد لها حقوق الإنسان مثل
ابنة الملك أو الرئيس في أي دولة من الدول الكبرى أو
الصغرى.

أصبحت أتابع صفحات الحوادث اليومية في الصحف
أكثر من أخبار النجوم والملوك والرؤساء، فهي تكشف عن
المآسي التي يعيشها المهمشون في الأرض ، عن قاع المجتمع
حيث تعاني البنات الفقيرات، اللائي يتعرضن للموت سرّاً
دون أن ينطق أحد، بسبب حساسية ما نسميه الشرف، وهو

ليس الشرف الحقيقي النابع من العدل والصدق، بل الازدواجية الأخلاقية على المستوى العائلي والمستوى الدولي في أن واحد ، الازدواجية التي تجعل القوة فوق الحق، القوة الغاشمة التي تقتل تحت اسم الدفاع عن أمر الله أو الأرض الوعودة، بمثل ما تقتل تحت اسم الشرف، أليس الشرف المزيف مثل الأرض الموعودة وشعارها الديني المزيف؟

قال أبي وأنا طفلة في السابعة من العمر: من السهل أن نركب موجة الغضب مع الجميع، لكن من الصعب أن نغضب ضد الظلم حين يصمت الجميع، إنه أمر صعب، لكنني احترمت نفسي حين خيرتها بين السهل والصعب فاختارت الصعب.

١

نوفمبر ٢٠٠٠

عن جورج بوش وتوني بلير

منذ أوائل سبتمبر ٢٠٠١ وأنا أعيش في "نيويورك"
وجارتها القريبة منها "نيو جيرسي" شاهدت أحداث ١١
سبتمبر ٢٠٠١ عن قرب شديد ، وسقوط مركز التجارة
العالمي في نيويورك ، وعشت مع الشعب الأمريكي الأكاذيب
التي تروجها وسائل الإعلام الأمريكية وتوابعها في الشرق
والغرب. ولا احد هنا يعرف الحقيقة، فهي غامضة شديدة
الغموض ، تكاد تشبه الاساطير الواردة في الكتب القديمة
وفي مجال " السياسة" كما في مجال " الدين" و " الجنس"
تتناقض التفسيرات، وتتضارب الأقاويل، شاهد أن كل
المحرمات الأخرى في العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.
والحياة في نيويورك متناقضة مثل الحياة في القاهرة أو
أي مدينة كبيرة في العالم، مظاهر الفقر والبطالة تزداد. تبدو
شوارع نيويورك في الأحياء الفقيرة شبيهة بشوارع بولاق
والسيدة زينب وشبرا. ولاشك أن البعد عن الوطن والأهل
يزيد من الشوق والحنين، ويطمس الشوق والحنين كل ما هو
غير جميل في الذاكرة الإرادية أو غير الإرادية. يبدو لي

نهر " النيل أكثر جمالاً وإشراقاً من نهر " هيدسون " الذي
يفصل نيويورك عن نيو جيرسي. يحمل نهر " هيدسون " اسم
المستعمر البريطاني الذي غزا أمريكا الشمالية وأباد سكانها
الأصليين الذين أطلق على هم اسم الهنود الحمر.

يغرق تاريخ أمريكا الشمالية بالدم كغيرها من بلاد العالم
منذ نشوء العبودية أو النظام الطبقي الأبوي، ينسي الكثيرون
هذه الحقيقة، ويفصلون بين الغرب والشرق، أو بين العالم
الأول والثاني والثالث، والحقيقة أننا نعيش في عالم واحد
يحكمه نظام واحد، وقيم طبقية أبوية واحدة رغم اختلافات
الثقافات والعقائد والأديان.

وفي نيويورك اتسعت الهوة بين الفقراء والإغنياء كما
يحدث في جميع بلاد العالم الرأسمالي وتوابعه في الشرق
والغرب، واتسعت الهوة بين ما يطلق على هم " أهل الخير
الذين يخشون الله على رأسهم جورج بوش وتوني بليزر،
وأهل الشر أتباع الشيطان على رأسهم أسامة بن لادن
وصدام حسين.

رأيت توني بليزر وجهاً لوجه في مصر حين عدت إلى
الوطن في عطلة رأس السنة الجديدة، خلال تجوله في معبد

سانت كاترينا في نهاية عام ٢٠٠١ وبداية عام ٢٠٠٢، كان ينحني امام سانت كاترينا ويقبل رأسها بعد أن يمسحها القسيس المصري بقطعة من القطن المبللة بالسبرتو الأبيض ، حتي لا تنتقل العدوي إلى فم توني بلير من الأفواه الأخرى التي تتنافس على تقبيل رأس سانت كاترينا قبل شروق شمس العام الجديد.

لقد استطعت اختراق الحاجز البوليسي من الجمهور العادي وبين توني بلير واسرته. كان المفروض أن تكون زوجته هي التي تليه مباشرة في تقبيل سانت كاترينا، إلا أنني اخترقت السياج البوليس واصحبت خلف توني بلير مباشرة، وتقدمت من بعده إلى سانت كاترينا وانحنيت على هام متظاهرة أنني أقبلها بعد أن مسح القسيس المصري رأسها بقطعة القطن المبللة بالكحول الأبيض المطهر للجراثيم، مع ذلك لم أقبلها وأنا ضد تقبيل الحجر الأسود والأوثان جميعاً بما فيها الحجر الأبيض والأحمر والأسود والأزرق وغيرها، لقد تخرج أبي من جامعة الأزهر وقال لي منذ الطفولة أن الإسلام جاء ليحرر الناس من عبادة الأحجار والأوثان.

القسيس المصري لم يفطن إلى أنني لم أقبل راس سانت
كاترينا، تصورني زوجة توني بلير لأنني أقف خلفه مباشرة
،أو ربما واحدة من أفراد أسرته الذين بلغ عددهم حوالى
عشرين رجلاً وامرأة وطفلاً بما فيهم طفل توني بلير الذي
حملته إحدى القريبات.

دس القسيس في يدي قطعة القطن المبللة بالمطهر،
والتي طوي داخها خاتماً مقدساً من الفضة الخالصة، هدية
تمنحها سانت كاترين بعد تقبيل رأسها للعظماء فقط من عائلة
توني بلير.

فطن إلى البوليس المصري، وأدرك أنني لست من عائلة
توني بلير ،وأنني ربما أكون إرهابية اندلست بين الأسرة
البريطانية المالكة أو الحاكمة لتطعن توني بلير من الخلف.

وحدثت مشادة بالصوت العالي بيني وبين البوليس
المصري. قلت بجرأة الكاتبة المصرية القديمة التي أكتشفت
الحروف الأبجدية قبل أن تكتشفها أوربا كيف تمنعوني من
السير فوق أرض مصرية وتسمحون لهذه العائلة الإنجليزية
التي استعمرت مصر ٧٢ عاماً، والتي تشن الحرب على
أفغانستان والعراق و..... ، اندهش البوليس المصري من

صوتي العالي ، تصوروا أنني مندوبة رئاسة الجمهورية إلى
سانت كاترينا ، وتركوني أتجول كما أشاء في المعبد ، وهكذا
تأملت وجه توني بلير طويلاً وهو يمشي بخطوات بطيئة من
خلفه قبيلته ، وزوجته التي كانت ترمقني بعيني الصقر ،
مدهشة من وجودي بالقرب من زوجها ، رغم أنها لم تر
وجهي من قبل أبداً ضمن أسرته.

ولم ينفرنى وجه توني بلير كثيراً كما ما ينفرنى وجه
جورج بوش الأب أو الابن. يبدو وجه توني بلير في الحقيقة
أفضل إنسانية من وجهه في الصحف والشاشة ، يبدو شاب
رياضي فقير داخل بلوفر رمادي باهت وذو ذكاء لاوتش
أبيض ، وابتسامة منكسرة ربما لأنه كان في حضرة سانت
كاترينا المقدسة ، ولابد من الانحناء امامها متظاهرة بالطهر
والبراءة.

أما جورج بوش (الاب أو الابن) ، فقد رأيت وجهه على
الشاشة فقط ، يشبه الابن أباه في الملامح بحيث لا
أفرق بينهما ، والصوت أيضا وطريقة الضغط على مخارج
الألفاظ لتأكيد ما يقوله عن الشيطان أو محور الشر والآيات

التي يلتوها من الكتاب المقدس ليعلن الحرب في الخلج أو
في أفغانستان.

رأيت وجه جورش بوش الابن قبل أن يعتلي الحكم،
حين كان يصارع للنجاح في انتخابات شبه مزورة. كنت في
مدينة "بوكا راتون" في فلوريدا، في الولاية ذاتها الذي كشفت
عن مهزلة الانتخابات الأمريكية. كان وجهه منكسراً يكد
يشبه وجه توني بليز وهو يقبل رأس سانت كاترينا. إلا إنه
بعد أن اعتلي العرش تغير وجهه. أصبح يشبه أباه. كيف
تغير السلطة الوجوه بهذه السرعة؟ كيف تظهر التجاعيد فوق
الوجه الذي كان شاباً وكان ناعماً أملس مستديراً يشبه وجوه
الأطفال، البذين يرضعون اللبن الصناعي المزود بالفيتامينات
الأمريكية.

أصبح وجه الابن بوش نسخة طبق الأصل من الأب،
تلعب السياسة والوراثة دورها في رسم ملامح الوجه، ونبرة
الصوت، وبربشة العينين الضيقتين مع انقباضة الفم الخالي
من الشفتين.

هذا الفم الرفيع والشفتان شديديتا المتلاشي يتين تشبهان
الشفرتين في موسي الحلاقة، هذا الفم يصلح تماماً للإعلان

الحرب على الأبرياء ، أو النطق بحكم الاعدام على النساء
البريئات تحت اسم الشرف أو القيم العائلية.

هذا الفم يشبه الآله المعدنية الحاده ، أتخيل هذا الفم وهو
يقبل زوجته ، هل يمكن لهذا الفم أن يقبل ام رأة؟! خيالي
يعجز عن تصويره يقبل شفتي امرأة دون أن يستأصلها من
جذورها مثل شفرتي الموس تماماً.

وقد أصبح جورش بوش بعد أحداث ١١ سبتمبر وبعده
انتصاره العسكري في أفغانستان كأنما هو بطل الحرب ضد
الأرهاب، كما كان أبوه بطل حرب الخليج ضد الشيطان
الخطرسة ذاتها والغرور وادعاء الصلة بالله، التكلم بلغة لا
تفصل بين السياسة والدين، وتشجيع التيارات المسيحية
واليهودية والإسلامية أيضاً ، بشرط إلا تكون الأخيرة تابعة
لما يسميه الإرهاب الإسلامي، بل تكون مسالمة وادعية
مطبعة للسياسة الأمريكية والديموقراطية وحقوق الإنسان.
(الإنسان هنا يعني الأمريكي).

فساد السياسة الرأسمالية الذكورية:

أثبتت لي الحياة في نيويورك وفي غيرها من مدنالعامل غربا وشرقا أن هذا النظام الرأسمالي الذكوري الذي يحكمنا دولياً ومحلياً وعائلياً لن يستمر ، لأنه ضد المنطق والع دل والحرية والجمال.

إنه نظام فاسد وقبيح يتكثف قبحه مع مرور الأيام، فهذه الفضائح السياسية والاقتصادية والاخلاقية تتكثف عن طريق التسرب إلى الصحف رغم أجهزة الرقابة.

وكم كشفت أحداث انهيار وإفلاس الشركة الرأس مالية الكبرى " إينرون" عن فساد الشركات العملاقة الأمريكية والمتعددة الجنسيات، وعن ارتباط هذه الشركات بتمويل الدعايات الانتخابية لمن يتولون الحكم في الولايات المتحدة ، عن ترابط مكاسب حكام الدول غرباً وشرقاً بهذه الشركات الرأسمالية العالية. كشفت الصحف الأمريكية عن تورط عدد من قيادات الحزب الجمهوري والديمقراطي معاً في فضيحة شركة إينرون على رأسهم الرئيس الأمريكي الراحل جورج بوش الابن.

يحاول منافسوا جورج بوش استغلال الموقف. وم نهم المرشح السابق "جون ماكين" ال ذي أعلن على شاشة التلفزيون أن انهيار شركة إينرون سوف يكشف عن كثير من الخفايا في السياسة الأمريكية الحالية. بالطبع يحلم "جون ماكين" في كرسي الحكم بعد زوال جورج بوش، كما حلم جورج بوش بكرسي الحكم بعد زوال بيل كلينتون، وتجري لعبة التنافس على السلطة بأدني الوسائل، أقلها الكذب والافتراء وتضليل الجماهير وشراء أجهزة الإعلام. أصبح "لاري كينج" أحد المذيعين على شاشة "السي إن إن" أهم من الرئيس الأمريكي، أما المذيعات الأمريكيات ذات الرموش الصناعية على شاشة "السي إن إن" ذاتها فوفقاً لصحبت أهم من أي رئيس دولة من دول العالم الثالث، يجلس أمامها ذلك الحاكم أو ذلك الملك الجبار في بلده يجلس أمامها مؤدباً رقيق الصوت مكتوف الذراعين والساقين مثل الفتاة العذراء.

يحاول أعوان جورج بوش كتمان أسرار شركة إينرون وإخفاء أسماء المتورطين فيها من الحزب الجمهوري، رغم

أن المنافسين لهم يقودون الرأي العام الأمريكي مطالبين
بكشف الأسرار وكشف الأسماء. وتدور اللعبة كما دارت في
الفضائح السابقة في عصر نيكسون وكلينت ووكارتر
وجونسون وروزفيلت وغيرهم وغيرهم. فلا يخلو عهد من
الفضائح في كل حكومات العالم. الفرق الوحيد بين الغرب
والشرق، أن الفضائح في الغرب تتكشف أثناء حياة الحاكم،
أما في بلادنا فهي لا تتكشف إلا بعد موته.

وكم يتعاون عمداء الجامعات في أمريكا مع الشركات
الرأسمالية الكبرى مثل "إينرون"، التي تشارك في تمويل
هذه الجامعات، وفي الضغط السياسي لتعيين هؤلاء العمداء
أو رؤساء الجامعات. وقد اتضح ذلك من تردد عميد كلية
الحقوق في جامعة تكساس في الإدلاء برأيه على الشاشة
حول شركة إينرون، مبرراً تردده بأنه ليس خبيراً في
القانون، وبدا كلامه متناقضاً مضحكاً لأنه عميد كلية القانون
في جامعة تكساس.

إن ولاية تكساس هي الولاية التي تسيطر على هائلة
بوش "الاب، والابن"، و"الروح القدس"، والتي لعبت دوراً
كبيراً في حرب البترول في الخليج العربي، وفي أفغانستان

وبحر قزوين، والحروب البترولية القادمة خلال عام ٢٠٠٢ الذي سماه جورج بوش "الابن" عام الحروب" للقضاء على "محور الشر" التي حدثت (العراق وإيران وكوريا الشمالية). كنت طفلة حين سمعت عن محور الشر "المانيا وايطاليا واليابان" منذ أكثر من ستين عاماً، واليوم يعيد جورج بوش اللغة القديمة، والثنائيات المزممة منذ نشوء العبودية، الخير / الشر، الله / الشيطان، الذكر / الأنثى، السيد / العبد، الأب / ابن / الأسو، الشرق / الغرب، الإسلام / المسيحية.... الخ إلخ. وفي جامعة نيويورك ونيو جيرسي يتضاحك الأسد مائدة والطلبة المتظاهرون ضد سياسة جورج بوش. يقولون إن هناك دولاً متعددة تعترض لأنها لم تدخل "محور الشر" الذي أعلن عنه بوش، ومنها سوريا وليبيا وكوبا وغيرها من البلاد التي غضبت على الولايات المتحدة زماماً ويلاتاً؟ كيف أفلتت هذه البلاد من غضب الإله الأمريكي الذي أصبح يحدد لنا من هو الشيطان أو الشياطين في هذا العالم؟

لاشك أن "شارون" ملاك طيب مدب للسلام، أما الشياطين في فلسطين، فهم هؤلاء الأطفال / الشر باب الذين

يواجهون الدبابات الإسرائيلية بصدورهم العارية أو بقطع من
الحصي والطوب، هؤلاء الشياطين الصغار هم سبب الإرهاب
وإراقة دماء الإسرائيليين الإبرياء!!!

ولماذا لم ترد " الصين " في محور الشر؟ هل لأن ع دد
الصينيين أصبح يزيد عن بليون و ٣٠٠ مليون نسمة، ويمكن
لهؤلاء أن يزحفوا كالنمل على أي دولة ومنه ما أمريكا ما
العظمي ويأكلوها كما يأكل النمل الزرع؟ أم لأن جورج بوش
يزور الصين هذه الايام ضمن لعبة السياسة ، وفساد الفلسفة
البراجماتية التي تقول: ح اول أن تأكل ل ع دوك قبل أن
يأكلك، وكل وسيلة مشروعة حتي القتل من أجل بلوغ الغاية
والهدف؟

تبتلع الصين مرارتها من السياسة الأمريكية ومحاولاتها
لخلق الأعداء على حدودها في تايوان والتبت، والفتن الدينية
المصنوعة بين الكاثوليك والبروتستانت في الجنوب.

يلعب النظام الأمريكي بورقة الدين لتقسيم الشعوب
وإخضاعها ، على غرار الاستعمار البريطاني القديم. الذي
فجر الفتن الدينية والطائفية من الهند إلى مصر خلال القرن
العشرين.

لكن الصين تشد أركانها في اللعبة، ولها ما أغراضها
ومصالحها من الحرب ضد الإرهاب في جنوب آسيا وشمال
كوريا، وفي الصراع بين الهند وباكستان، وفي كسب بعض
الأرباح الرأسمالية من التجارة العالمية المشتركة.

وأتابع قراءة الصحف في نيويورك ورك خلال فبراير
٢٠٠٢، بعد عودتي من بورتو أليغري في البرازيل
، فتصيني أكاذيب الصحف العالمية والعربية بالغضب، كيف
تتخلي الحكومات العربية على مسؤوليتها عن الدفاع عن
شعوبها بما فيها الشعب الفلسطيني تحت سيطرة العبارات
الرنانة الخادعة؟!

أكثر الناس تشدقاً بالقضية الفلسطينية في بلادنا أقلعهم
عملاً للدفاع عن حقوق هذا الشعب أو غيره من الشعوب
العربية، لتتسع الهوة بين القول والعمل.

الرومانتيكية والغموض في السياسة الفاسدة:

كنت أسمع أبي من طفولتي عن " المراوغة " التي يستخدمها الاستعمار البريطاني في مفاوضاته مع مصر لإنهاء الاحتلال العسكري لبلادنا. كان أبي يقول دائماً: لا أفهم شيئاً من كلام هؤلاء الانجليز لأنه غامض وغير محدد وغارق في الكلمات العامة المجردة ذات الرنين العاطفي المزيف! أتذكر كلمات أبي وأنا أقرأ عن المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين ، يلعب الإسرائيليون بالكلمات وبالألفاظ العامة الغامضة لمجرد كسب الوقت ولقتل أكبر عدد من الفلسطينيين.

في صحف نيويورك (٤ فبراير ٢٠٠٢) أرى صورة " شيمون بيريز " وهو يقدم عرضاً جديداً للسلام ، لا يحدد فيه شيئاً عن أي شيء يخص القضية الفلسطينية، حدود الدولة المقترحة مثلاً ، أو شيئاً عن عاصمة الدولة أو مدينة القدس ، أو مشكلة المستوطنات الإسرائيلية أو غير ذلك من المشاكل المزمنة المعلقة ، ويقول للصحف: أجل أيها السادة، إنني أعرض اقتراحاً جديداً غامضاً غارقاً في الرومانتيكية ، لكنه الغموض الإيجابي البناء الذي قال به كيسنجر ، حيث إن

قال: "إن عمليات السلام والحرب تتم دائماً في الضوء الخافت ،وليس في ضوء النهار الساطع، أجل كم كان كيسنجر محباً للرومانتيكية والأضواء الخافتة في رحلاته الموكية إلى بلادنا في عهد السادات ،وكم أدت عواطفه الغامضة إلى دمار الوحدة الموكية إلى بلادنا في عهد السادات ،كم أدت عواطفه الغامضة إلى دمار الوحدة العربية والهزائم المتكررة للعرب أمام إسرائيل.

وفي الصورة أري شيمون بيريز يبتسم ويبدو كالملاك المرسل من السماء لإنقاذ الشعب الفلسطيني من الهلاك. وفي أسفل الصفحة أري العساكر الإسرائيليين يسوقون الأطفال /الشباب الفلسطيني العرايا الصدور المغطاة عيونهم بالأربطة، والمقيدة أيديهم وراء ظهورهم بالسلاسل ، تظل على هم من فوق الصفحة ابتسامة شيمون بيريز الملائكية، تودعهم برقة وحنان إلى مثواهم الأخير.

وماذا يحدث في بلادنا العربية؟ هناك خبر يقول إنه مشغولة بأحداث أخرى أكثر أهمية وذلك أنها يحاولون تتبع مسار " القمر " في السماء بالعين المجردة لمعرفة متى يبدأ عيد

الأضحى المبارك. وكيف أن القمر الجديد سيولد من القمر
القديم ليلة الثلاثاء ٢١ فبراير ٢٠٠٢.

تعمدت صحف نيويورك في الشهور الأخيرة منذ أحداث
١١ سبتمبر ٢٠٠١ أن تضغط على المملكة العربية السعودية
على نحو رقيق خفيف، أو تنشر بعض الدعايات الخفيفة،
ذلك أن اعتماد الأمريكيين على البترول السعودي يجعل
اللهجة مؤدبة في التعامل السياسي والصحفي، بخلاف اللهجة
القاسية الموجهة لحكومات عربية أخرى غير بترولية.

وقد ارتفعت اصوات أمريكية تحرض ج. ورش ب. وش
على عقاب المملكة العربية السعودية كغيرها من الدول التي
تساند الإرهاب، أو ما تسميه أمريكا بالإرهاب الإسلامي
وكتب أحدهم في الصحف منذ أيام يقول "لماذا هذا التراخي
الأمريكي للسعودية، هل لأنها تمسك البترول الأرخص
والأنقى الذي نحتاج إليه نحن الأمريكيين؟

إلا إن الصحف اتهمت هذا الكاتب بالرومانتيكية أو
السذاجة السياسية، وقالت أن الفلسفة البراجماتية الأمريكية لا
تعترف بالعواطف الرومانتيكية والاحلام المستحيلة في الحب

والسياسة وانه طالما هناك بترول عربي أرخص وأنقى من
أي بترول في العالم فلن تكف الولايات المتحدة عن مغازلة
البلاد العربية الثرية بالبترول، بل إن الولايات المتحدة على
استعداد للتفاوض مع (السري أو العلني) مع أي دولة عربية
بترولية، وإن كانت في محور الشر سابقاً أو لاحقاً كالعراق
أو ليبيا أو غيرهما.

نيويورك - فبراير ٢٠٠٢

١- عيد الحب وعيد المسلمين على شاطئ نهر

هدسون

أتمشي على شاطئ نهر هدسون ما بين نيويورك ونيو
جيرسي، الشمس تظهر وتختفي تحت السحب، ندن في
شهر فبراير عام ٢٠٠٢ يقولون عنه الشتاء الدافئ. كانت
الشمس ساطعة معظم الوقت، وأنا أحب هذه الشمس الدافئة،
تلمس وجهي كأنامل أمي وتذكرني بالوطن والحب
والسجن، ربما تكون هناك علاقة بين الحب والسجن، أمي
الحرية نفقدها حين نعيش الحب؟ أو الوطن والحب معاً؟!
جاءني في الصباح صوت ابنتي من القاهرة. يشد به
تغريد عصفورة عند ظهور أول خيوط الفجر:

- كل سنة وانت طيبة يا أمي

- النهاردة إيه يا مني؟

- عيد الحب يا أمي.

إنها ابنتي الكاتبة الأدبية "مني حلمي" الوحيدة في أسرتي
التي تذكرني بالأعياد، ولا أحد يتذكر عيد ميلادي إلا هي،
ربما يذكرني أحياناً زوجي (الروائي شريف حتاتة) حينما لا

يكون مشغولاً بشئٍ أهم. أما أبني (عاطف حتاتة، المخ رج السينمائي) فهو ضعيف الذاكرة فيما يخص أعياد ميلاد امه وأبيه وأخته وغيرهم من أعضاء الاسرة البيولوجية، وكنت مثل ابني منذ أربعين عاما وانا في ريعان الشباب. لم أكن أتذكر عيد ميلاد أمي أو أبي ، أو عيد ميلادي ، كان بيتنا يشهد كل عام مولد طفل جديد، وأبي يزمر حين يطلب منه الاحتفال بعيد ميلاد طفل من أطفاله ، ويقول ساخراً:

يعني أعمل عيد ميلاد كل شهر ولا أيه؟!

أما أمي السيدة "زينب هانم شكري" حفيذة "طلعت باشا" في اسطنبول فكانت تري أن أبي أفضل من أبيها، وانها لم تتزوج أبي إلا لتهر بمن بيت أبيها شكر بك!

رغم كل ذلك كانت طفولتي سعيدة مليئة بالحب والدفء، أكثر سعادة من طفولة زميلاتي الأمريكيات هنا في نيويورك ونيو جيرسي. واحدة منهن تقول لي في عيد الحب (يسمونه هنا -"عيد الفنتين" وهي اس تاذة في جامعة متخصصة في الدين الاسلامي) نشأت منذ الطفولة يان وال في اسرة كاثوليكية وكان أبي قسيساً تمرد على الكنيسة

واعتق الإسلام، إلا انه كان محافظاً متزمتاً لا يعترف بشئ اسمه الحب).

وكان ابي نقيضا لابيها يؤمن بالحب، ربما كان يعوض بالحب والحنان ما يفتقده الفقراء من ماديّات الحياة، وقد أغرق أبي في الحب أمي و حتي أصبحت تلد طفلا كل عام ، ثم ماتت وهي في ريعان الشباب. ممسكة يدي في يدها، وعيناها تملؤهما دهشة طفولية.

-كل سنة وانت طيبة يا ماما.

إنه صوت ابنتي المغردة في الصباح الباكر، وقد أدبر عيد الحب منذ أسبوع وجاء عيد آخر هو " عيد الأضحي" ، (يوم ٢٢ فبراير ٢٠٠٢)، ضحكت مع ابنتي وسألتها ذبح تم خروف يا مني؟

لم يكن العيد في طفولتي عيداً دون ذبح الخروف ،الذي كان يرمقني وهو يذبح بعيني متسعتين تملؤهما دهشة طفولية ،وأتصوره طفلا مثلي يذبحه أبي في العيد، وسد وف يأتي الدور على حتما ليذبحني أبي طاعة لأمر الله، كما فعل سيدنا إبراهيم مع ابنه اسماعيل. كنت في الثامنة من عرمي لا اواظب على الصلاة، وفي أيام القيظ في رمضان اختلس

من وراء أبي رشفة ماء من قلة الفخار الباردة اللذيذة. إنه
إبليس يوسوس لي: "رشقة ماء يا نوال لن يلتف إليها ربنا الله
الرحيم الغفور لجميع الذنوب إلا أن يشرك به".

لكن أبي كان يؤكد لي أن الله يلتفت إلى كل صد غير
وكبيرة في هذا الكون، ولا شيء يفوته، وإن كان رشفة ماء أو
كلمة واحدة يهمس بها إبليس إلي.. وهكذا تحمل ضميري منذ
الطفولة عبء ذنوب كثيرة، وتصورت أنه سوف يأتي عيد
الأضحى في العالم المقبل (أو الذي بعده)، ويأمر الله أبي
بذبحي بدلا من خروف العيد.

وغضبت من زميلتي الاستاذة الأمريكية المتخصصة في
الدين الإسلامي، والتي كتبت مقالا تقول فيه إن مشكلة العالم
الإسلامي هو أن الإسلام لم يتحضر أو لم يتطور بالقدر
الكافي (كما حدث لليهودية والمسيحية)، وسألتها:

-ماذا تعنين بهذا التحضر يا سيدتي؟!

-قالت: "أعني الم وديرنيتي" أو modernity باللغة
الانجليزية.

وطال الحوار بيني وبينها عن معنى الم وديرنيتي أو
الحداثة باللغة العربية.

سألته ماذا تعني بالحادثة؟ وهل أثر هذه الحادثة على " اليهودية" ما يحدث في إسرائيل من ذبح للفلسطينيين الأطفال مثل خروف العيد؟ وهل أثر هذه الحادثة على "المسيحية" ما يحدث اليوم في أفغانستان من قتل المدنيين نساءً ورجالاً؟
-فقلت الاستاذة الأمريكية: "هناك فرق بين "اليهودية" ودولة إسرائيل وهناك فرق بين "المسيحية" وحكومة الولايات المتحدة الأمريكية".

-وقلت: "وبالمثل أيضاً يا سيدتي ، هناك فرق بين الإسلام وبين الدول الإسلامية والعربية".

إلا أن هـ . ذه الاسـ . تاذة المتخصصة .ة فـ . ي الـ . دين الاسلامي، والتي يدعونها إلى بلادنا العربية لتكـ ون ضـ يفة الشرف في الاحتفالات والمهرجانات النقابية والأعياد بما فيها اليوم العالمي للمرأة،(وهي متخصصة أيضاً في موضوع المرأة والإسلام) هذا الاستاذة لم تـ درس الإسلام ملام دراسة صحيحة، لان دراسة الدين الاسلامي في الولايات المتحدة (وفي جامعات أوروبا أيضاً) تقوم على دراسة القرآن والأحاديث وغيرهما مما يتعلق بالاسلام والتاريخ الإسلامى فحسب، ويتخرج الاساتذة (نساءً ورجالاً) ويصبحون خبراء

في الدين الإسلامي دون أي مقارنة بين الأديان السد ماورية
الثلاثة. لكن الدراسة المقارنة للأديان هي الوسيلة الوحيدة
لفهم هذه الأديان، خاصة الأديان السماوية الثلاثة ، والتي
يتزعمها شخص واحد هو " النبي إبراهيم " وتتشابه مبادئها
تشابهاً كبيراً.

٢ - سيل المقالات والكتب عن الإسلام والمسلمين

منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وضرب مركز التجارة العالمية في نيويورك (والنتاجون في واشنطن)، وهناك سيل من المقالات والكتب المنشورة في الولايات المتحدة حول الإسلام وعلاقته بالغرب، هناك مقالات وكتب تصور الإسلام (دون غيرها من الأديان السماوية وغير السماوية) كأنما هو دين "متعطش للدماء" يرحض على قتل المخالفين له باعتباره هم "الكفار" ويحرض على "الارهاب" تحت اسم "الجهاد في سبيل الله" ويقهر "النساء" ويفرض على هن الحجاب والختان، وتعدد الزوجات، وضرب الأزواج.. الخ الخ.

إلا أن الدراسة المقارنة للأديان تؤكد الجهل الذي يغرق فيه المتخصصون في الدين الاسلامي، ذلك أن الديانة اليهودية مثلا حسب الآيات في كتاب "التوراه" تحرض شعب الله المختار "على قتل أهل كنعان (فلسطين) الكفار، والاستيلاء على أرضهم تحت اسم "الأرض الموعودة من الله إلى آل إبراهيم" مقابل قطع الغرلة أو ختان الذكور، كما أن فكرة "حجاب المرأة" نشأت من آية في التلمود تؤكد أن "شعر المرأة العاري مثل جسدها العاري"، وأن "حواء" هي

سبب "الإثم" وخروج آدم من الجنة ،وقد عاقبها الله "بالاسدي والالم" (في ولادة الأطفال) "والخضوع"لزوجها.

رغم ذلك فإن الكتب والمقالات تنهمر كالسيل (منذ أحداث سبتمبر) تصور الإسلام والمسلمين كأنهم هم قوم من القتل والجهلة المتخلفين ،وأن علاجهم الوحيد هو "التحضر" أو الموردرنتي ،باللغة العربية "الحداثة".

حاولت الرد على بعض المقالات التي نشرت في النيويورك تايمز ،والتي لا تزال تنشر حتى اليوم، إلا أنهم لا ينشرون مقالاتي رغم تشدقهن بالديموقراطية "الوحيدة" في الشرق الأوسط.

ويضحك الطلاب والطالبات في "اللجنة ضرب الحرب التي تم تشكيلها في الجامعة التي احضر فيها في ولاية نيو جيرسي ،ويقولون: أجل أيها السيد ،هذه الديموقراطية الأمريكية والإسرائيلية تشبه ديموقراطية الحكومة العنصرية "الابارتايد" في جنوب إفريقيا التي صورت نفسها للعالم سنين طويلة على أنها الديموقراطية "الوحيدة" في قارة إفريقيا".

ولاشئ يواسيني على البعد عن الأهل والوطن إلا
هؤلاء الطلبة والطالبات. اشعر بالبهجة حين أدخل الفصل
وأري وجوههم الباسمة وعقولهم المتفتحة للإبداع ، قلت لهم
في أول حصة: "أنا أكره التدريس ، كما أن الإبداع لا يمكن
تدريسه، وكل ما سأفعله هنا في الفصل هو: أن اساعدكم
على نسيان ما لقنه لكم المدرسون منذ طفولتكم".

وفي احتفال الجامعة بقדومي من مصر في أول سبتمبر
٢٠٠١ وكانت الإدارة كلها حاضرة "صاحبة السلطة"، رددت
هذه العبارة السابقة، التي أدت إلى "عدم تجديد العقد" مرة
أخرى. إنهم يدفعون لي راتباً كبيراً لكي ألقن الطلاب
الأمريكيين دروساً تمكنهم من الإبداع، لكنني لا أؤمن
بالتلقين، وقد مارست الإبداع في حياتي دون تلقين من أحد ،
اللهم إلا جدتي الفلاجة في قرية كفر طحلة، التي كنت
أراها (وأنا في الخامسة من العمر) واقفة امام العمدة حافية
القدمين شامخة الرأس مكشوفة الوجه، تشوح بيديها الكبيرتين
المشققين المحروقتين بالشمس في وجهه هي تقول:

-أحنا مش عبيد يا عمدة، وربنا هو العدل عرفوه بالعقل!

٣- غياب الذكاء الفطري

لم تكن جدتي الفلاحة قد ذهبت إلي المدارس وتعلمت القراءة والكتابة ، لم تقرأ جدتي القرآن أو أحاديث الرسول (ص) لكنها أدركت بالذكاء الفطري أن الله هو العادل ، وأن العقل هو منبع الإيمان بهذه الفلسفة الرفيعة المستوى، والتي لا يفتن إليها إغلب الاساتذة من حاملي الدكتوراه ، والذين يفقدون الابداع أو الذكاء الفطري عن طريق التلقين في المدارس في الغرب والشرق.

ويدور حوار من خلال شاشة الإنترنت في جامعتنا حول أمور السياسة والفكر والإبداع وغيره ، أصدحت الشاشة الصغيرة في مكتبي أو بيتي تنقل إلى من كل أنحاء العالم مختلف الآراء والأفكار ، ادوس على " الزر " كل يوم ، وتضيء الشاشة أمامي واتابع كل ما يحدث في العالم ، وكل ما يصدر من كتب جديدة ، ومناقشات حولها أحدث هذه الكتب من تأليف استاذ امريكي (برنار لويس) وهو متخصص في الدراسات الإسلامية. الكتاب عنوانه: "ما هو الخطأ في علاقة الإسلام بالغرب؟" يغلف المؤلف أفكاره المبثورة غير

الموضوعية بكلمات عامة رنانة عن عشقه للشد رق والإسد ملام
،والحضارة الاسلامية التي ازدهرت في القرون الوسطى
حين غرقت أوروبا في الجهل والتعصب بماكم التفويض
والحروب الصليبية...الخ الخ، ثم يتساءل المؤلف: ما الذي
حدث لينقلب الوضع وتتفوق المسيحية والحضارة الغربية
على الاسلام والمسلمين؟! لماذا حدثت جميع الاكتشافات
العلمية في الغرب المسيحي وليس في الشرق الإسلامي؟!
إنها أسئلة واردة للعقل يمكن الرد على هـا بالذكاء
الفطري ، فالمشكلة ليست دينية أو الاختلافات في الأديان أو
الثقافة أو اللغة ، بل هي مشكلة سياسية واقتصادية أساساً ،
ذلك أن الاستعمار القديم والجديد قد تعاونا مع حكوماتنا
المحلية من أجل إضعاف ذلك الاستعمار القديم والجديد قد
تعاون مع حكوماتنا المحلية من أجل إضعاف قدراتنا
الابداعية في العلوم والفنون ، أصبح التعليم في بلادنا أحد
الأجهزة البوليسية لقمع الخلق والابداع وتدمير الذكاء الفطري
منذ الطفولة ، يكفي أن مفكر مبدع في بلادنا قد عرِف
زنزانة السجن مرة واحدة على الأقل في حياته.ينطبق ذلك
على النساء ولأرجال ، إنه المجال الوحيدة الذي تتساوي فيه

المرأة بالرجل ،ويكفي أن متوسطي الذكاء هم الذين يصعدون إلى مقاعد الحكم،وهم الحكم ،وهم الذين يحصدون على الجوائز النقدية. والحوافز والمناصب وكل شيء ، حتي الأضواء الإعلامية.

لكن السيد برنارد لويس (مثل غيره من فلاسفة ما بعد الحداثة) يتجاهل وجود شيء اسمه استعمار أو احتلال أجنبي ، ويفصل بينه وبين الحكومات المحلية ، كأنما هي فقط وحدها مسئولة عن المشكلة ، أو الشعوب ذاتها هي المسئولة ،وهو يضع كل المسلمين في العالم في سلة واحدة ثم يصدر احكامه المتورة ،واتهاماته للمسلمين ، بأنهم تخلفوا عن موكب الحضارة لأن العيب فيهم هم وليس في القوي الخارجية. ويقول في كتابه: "لقد انتهى الاستعمار منذ نصف قرن،وأصبح العالم الإسلامي يعيش في عصر ما بعد الاستعمار (Post-Colonial) لكن المسلمين لا يزالون يعلقون لامشكلة على شماعة الاستعمار ويتساءلون على الدوام (من فعل بنا هذا؟) كأنهم ضحايا طول الوقت للقوي الخارجية،والمفروض

أن يسألوا أنفسهم ما الخطأ فينا نحن، وما نفعل لنغير أنفسنا ،
أما أن يحملوا الخطأ علي غيرهم فهذا هو الخطأ.

وهناك بعض الحقائق التاريخية في كتاب برنارد لويس
، كما أنني أتفق معه في أن النقد الذاتي ضد روري ، لكنني
اختلف في فكرته أننا نعيش "عصر ما بعد الاستعمار" ه ذه
خدعة فكرية كبيرة، لاننا نعيش عصر " الاستعمار الجديد د"
(New-Colonial) وليس ما يسمونه (Post-Colonial).

في الجامعات الأمريكية يسود هذا التعبير الخاطيء ن
"عصر ما بعد الكولونالية" وتنقله الجامعات العربية والإفريقية
عن الجامعات الأمريكية دون تحليل أو نقد علمي.

وتكمن الخدعة أيضا في أن " برنارد لويس" يعتبر هذا
في أمريكا من أهم الخبراء في الإسلام وأكثر المدافعين ن
الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية في العصور الوسطى
،وهو يختلف هنا عن مفكرين آخرين (منهم هنتجتون
وفرانسيس فوكاياما) الذين يرون أن المشكلة في الإسلام
ذاته، وأنه دين يناقض الحضارة والتحضر ، وفي حاجة إلى
تغيير جذري حتي يتحضر .

ويدافع بعض النخب العربية والإسلامية عن برنارد
لويس (وأمثاله) لأنه لا يدين الإسلام ذاته، لكن منطق برنادر
لويس لا يقل خطورة عن منطق الآخرين ، لأنه يتجاهل أهم
الأسباب التي أدت إلى ضعف البلاد العربية والإسلامية في
مواجهة أوروبا وأمريكا ، على رأسها الاستعمار الأوروبي
والأمريكي (الاقتصادي والسياسي والعسكري والفكري)
والحكومات المحلية المتعاونة مع هذا الاستعمار والقاهرة
لشعوبها رجالاً ونساءً وأطفالاً.

٤- التجول في مسارح برودواي

علاقتي بمدينة نيويورك قديمة منذ صيف عام ١٩٦٥ ،
بالضبط أغسطس ١٩٦٥ ، فقد جئت لأحصل على درجة
الماجستير من جامعة كولومبيا، وقد عشت في نيويورك
أحداث حرب فيتنام ، وخرجت مع الطلبة والطالبات في
المظاهرات ضد هذه الحرب، التي انتهت بانتصار الشعب
الفيتنامي نساءً ورجالاً ، وكنت أرى الفتيات والفيتاميات
الصغيرات (مثل الأطفال الفلستينيين اليوم) يرشقون
الطائرات الحربية الأمريكية الضخمة، ويسقطونها إلى الأرض
ببنادق فيتنامية صغيرة لقد انتصرت إرادة الشعب نسائاً
ورجالاً على أقوى الاسلحة العسكرية في العالم ، فلم اذا لا
يتكرر هذا فيماليذا يصعب الفلستيني؟! سدوف
يتكرر! لا بد! وها هي دولة إسرائيل (وجيشها المدعم بأمريكا)
تقاوم الانتفاضة الفلسطينية محاولة القضاء على هذا دون
جدوي.

منذ جئت هذه المرة إلى نيويورك ونيوجيرسي في
أوائل شهر سبتمبر وأنا أبحث عن رواية جديدة أو مسرحية
تستحق الرؤية أو فيلم سينمائي جيد أو أي شيء من الأدب داع

الفني ، دون جدوي هناك جذب غريب يسود العالم غرباً وشرقاً، فيما يخص الأعمال الابداعية الجديدة، حتي الصحف في نيويورك والمجلات أصبحت خاوية حتي من الاخبار الصحفية،وكننت في عام ١٩٦٥ أجدها دسمة مليئة بالمقالات النقدية العميقة.

والسؤال يدور فر رأسي وأنا أتجول بين مسارح شارح برودواي: هل كنت في عام ١٩٦٥ فتاة غريبة تبهرها مسارح نيويورك وأنشطتها الثقافية رغم سطحياتها؟ أم أنذني اليوم في عام ٢٠٠٢ امرأة ناضجة العقل لا يبهرها شيء وإن كان عميقاً؟

هناك تنافس واضح بين مؤلفي الدراما الدينية والدراما الجنسية على مسارح برودواي ،والعناوين الضخمة تشد به الاعلانات التجارية عن بضائع الشركات المتعددة الجنسيات وقررت أخيراً مشاهدة مسرحية دينية واخري جنسية من أجل الترويح عن النفس وقد أدبت جميع الواجبات والمسؤوليات تجاه الله والوطن والعائلة وكل شيء ، لم أحصل في حياتي على إجازات من العمل خارج البيت أو داخله واليوم إجازة عيد الاضحى ، حين كنت طالبة في جامعة كولومبيا منذ

سبعة وثلاثين عاما لم تكن الجامعات في نيويورك تحت رم
إجازات المسلمين، وكان على نا أن نشتغل في أيام العيد
الكبير والصغير، ثم نأخذ إجازات العيد ماد المسد يحين
واليهود، يمكن القول أن نيويورك مدينة يهودية ومسد يحية،
نيويورك تغيرت بعد أحداث ١١ سد بتمبر وسد قوط برج ي
التجارة العالمية في مانهاتن، بدأت جامعات كثيرة تهتم
بدراسة الإسلام والمسلمين والعرب، بل ارتفعت اصوات
تطلب إدخال اللغة العربية ضمن المقررات في المدارس
الأمريكية على أساس: أعرف عدوك! راجت الكتب التي
تحمل عناوين من نوع الإسلام والغرب، والإسلام والم
رأة
والإسلام والعنف... إلخ إلخ.

وايضا بدأت بعض الجامعات تعطي إجازة في عيد
المسلمين للطلبة والأساتذة وربما هذه واحدة من إيجابيات ما
بعد سقوط البرجين في ١١ سد بتمبر فقد بدأ الأمريكيون
يحترمون المسلمين (وأعيادهم) باعتبار انهم أصبحوا قادرين
على توجيه ضربات إليهم تسقط أعلي أبراجهم الشامخة في
السماء.

درات المسرحية الدينية حول فتاة صغيرة اسمها " كاتي " ولدت من أم مسيحية وأب يهودي ،وأصبحت الفتاة حائرة بين الدين المسيحي واليهودي، ثم زادت حيرتها حين امرها أباؤها ذات يوم بألا تذكر اسم " المسيح " أمام جدتها. واندحشت الفتاة وسألت عن السبب، فقال أبوها: "لأن جدتك لا تحب المسيح" ، وتصورت الفتاة الصغيرة أن جدتها العجوز قد قابلت في شبابها المسيح ولم تحبه منذ ذلك الحين.

توحي المسرحية منذ البداية الدرامية بالعمق الفلسفي. إلا أنه للأسف تضيع الفلسفة ويضيع العمق (ربما بسبب الرقابة الخفية التي تمارسها إدارة جورج بوش)، إن جورج بوش الابن قد ورث عن أبيه النزعة الدينية، والإيمان بأن التيارات الأصولية في الخارج والداخل (في الداخل تتجسد في قوي الشرف في الحركات الطلابية المعارضة للحدرب والحركات النسائية المطالبة بتحرير النساء الأمريكيات من اليمين الأمريكي بزعامة الحزب الجمهوري).

تتهكم الفتاة الصغيرة على ما تقرأه في الكتب على أن الكاثوليك لا يستحمون! إما والدها اليهودي فقد تخلى عن دينه من أجل زوجته المسيحية، "لورا" وكانت لورا تخفي تاريخ

زوجها الماضي عن النساء كأنما هو " عورة " وتحاول كاتي الصغيرة أن تشرح للشباب الذي تحبه لماذا يذهب الكاثوليك إلى كرس الاعتراف أمام القسيس في الكنيسة. ويسألها صديقها: ولماذا يذهبون للاعتراف؟

وترد الفتاة الصغيرة: من أجل أن يقتربوا كل الآثام ثم يمسخونها بالاعتراف من حين إلى حين.

ويذكرن هذا المشهد بقصة كتبتها عام ١٩٤٤ وأنا تلميذة صغيرة ، عنموانها " مذكرات طفلة اسمها سعاد". كانت سعاد تعيش في أسرة شديدة الدين ، تلقت تعاليم الصلاة والصوم منذ السابعة من عمرها ، وأيضا تعلمت التوبة ، وكيف تتوب عن ذنوبها عن طريق الطقوس المتكررة، وهكذا تكرر آثامها وتكررت توبتها لتمسح بالذنوب من حين إلى حين. (نشرت القصة بالعنوان ذاته بعد ثلاثين عاما من كتابتها).

أما صديقها الفتى الصغير فيقول لها في برأه إن مشاكل اليهود تكمن في أن الغدد في أجسامهم تفرز

هرمونات أكثر من المسيحيين. ويضحك الجمهور الأمريكي على تلك الفتاة الصغيرة "كاتي" التي تحتفل بعيد ميلادها (حين تبلغ الرابعة عشر من عمرها) بعد أن تتوقع مع صديقها أن يفض بكارتها في أو لممارسة جنسية كما تفعل زميلاتها في المدرسة.

تحمل المسرحية عنوان "السلم الذهبي" ولم أشارك مع الجمهور في الضحك على هذه الفتاة الصغيرة الحائرة بين الأديان، والتي تحاول البحث عن هويتها الدينية.

لقد طغت فكرة تأكيد الهوية الدينية في أمريكا منذ أعطي جورج بوش العرش، وبدأ يستخدم اللغة الدينية في جميع الأمور السياسية والاقتصادية بما فيها الحرب ضد مدور الشر، والرقابة على الإعلام والفكر والرأي، مع إطلاق حريات الأديان والأموال في البورصة والشركات العابرة للقارات.

أما المسرحية الثانية فهي تحمل اسم "مونولوج المهبل" ويعتبرونها ناجحة بسبب الإقبال علىها وكلمة "المهبل" كلمة طبية تعني أحد أعضاء المرأة التناسلية/الجنسية، ومنذ نجاح هذه المسرحية (المؤلفة والممثلة أم رة اسمها إيف

إنسلر) بدأت مسرحيات أخرى ترحف إلى برودواي تحمل ل
أسماء الأعضاء الجنسية للرجال والنساء، وأيضاً الجهاز
البولي، هناك مسرحية اسمها "مدينة البول" (Urime
Town) ومسرحية أخرى تحمل اسم "ديالوج القضيبي"
وغيرها.

ويتساءل الناس في نيويورك ونيوجيرسي: أهو التدهور
الذي أصاب الفكر والثقافة بعد ضربة ١١ سبتمبر. أم أنه
الحضارة الرأسمالية تتهاوى مع تهواي رمزها التجاري؟
نيويورك ٢٠٠٢

قرن النساء أم قرن الإسلام؟

واجهاض ثورة الإجهاض

شوارع نيويورك تغطيها الثلوج رغم اننا اصبحنا في شهر الربيع، شهر مارس أصبح يحمل اسم "شهر المرأة" منذ أن اعلنت الأمم المتحدة أن ٨ مارس يوم الاحتفال بعيد المرأة العالمي. تأتيني الدعوات من القارات الخمس للمشاركة في احتفالات النساء، أو القاء المحاضرات، أو تلقي الجوائز تحت اسم الغيمنيسست الكبيرة والكاتبة والطبيبة التي ساهمت في تحرير النساء خلال نصف القرن الأخيرة، أمشي فوق الثلوج داخل معطف صوفي أسود من تحته بلوفر رمادي من صوف الغنم، من تحته بلوفر آخر من الصوف المصري لونه أبيض كالقطن، من تحته قميص من الفانلة السمكة القريبة من الصوف، من حول رأس طاقيّة من الصوف السميك، من حول عنقي كوفيه من فروة الثعلب أو النمر، خطواتي فوق الاسفلت قوية سريعة، تجاوزت السبعين عاماً في شهادة الميلاد فحسب، لكن جسدي كما كان في ريعان الشباب، شعري أبيض بلون الثلج، لكنه لا يزال

غزيراً كثيفاً متمرداً مثل الاسلاك الكهربائية ، الدقات تدت
ضلوعي قوية منتظمة مع دقات حذائي المتين فوق الأسفلت
عيناني لا أراهما إلا حين أتوقف أمام ممرأة في احد
المحلات ، يجذبني البريق الخاطف في هاتين العينين
السوداوين ، كأنهما هما عينا امرأة اخري لا أكاد اعرفها ،
أذناها تطريقان لسماع كلمات الغزل من الرجال والنساء قلبها
يخفق حين تقع في الحب، وكم وقعت في الحب، وكم من
الرجال وقعوا في حبها ، مع ذلك تبدو مثل فتاة عذراء لم
تعرف الحب بعد رغم بلوغها السبعين من العمر.

شوارع نيويورك في شهر مارس تغرقها الثلوج البيضاء
رغم أن الشمس ساطعة تنعكس أشعتها الذهبية على الثلج
الأبيض.. يمتزج اللون البرتقالي القريب من اللون الأحمر
بذلك البياض الناصع الشاهق ، تنعكس الأشعة فوق السطح
المتلج الصلب ، ثم ترتد عنه بعد أن تنعكس إلى ملامح
الذرات الملونة، يشتعل الكون من حولي بالألوان المضطربة
وأنا أمشي نحو شارع برودواي، إنه شارعي المفضل في
مدينة نيويورك، حيث الملاهي والمسارح ودور السينما ،
وأكشاك الصحف والمجلات ، ومطاعم البيتسا والهامبيرجر

والشاوَرمة والفلافل، تتصاعد رائحة الفلافل إلى انفي ومعها صوت فيروز تغني يا مدينة القدس. أتذكر مدينة بيروت وأنا أمشي في الحمرا أو الروشا ومدينة القاهرة ودمشق وبعْداد وتونس والجزائر والرباط والخرطوم والمنامة وغيرها من المدن في بلادنا. إلى جوارِي تمشي زميلتي الاسْد تاذة في الجامعة واسمها " الدكتورَة ماريَا " تدندن مع فيروز بالاغنية ، تقول إن صوت فيروز يشبه قطرات الألوان المتفجرة من شعاع الشمس حين ينعكس فوق سطح جوهرة من الفيروز أو قطعة من الثلج، تقوم الدكتورَة " ماريَا " بتدريس "فن الدراما" ، المسرح والسينما والأدب، وتضيف إليه ما فن التصدير والرسم والموسيقى وأيضا فن العلاقات الإنسانية على رأسها " الحب "، تربط زميلتي "ماريَا" بين نشوة الحب ونشوة الابداع، تصغرني بعشرين عاماً ، لم تتزوج ولم تتجرب أطفالا لكنها انجبت كثيرا من الكتب وكثيراً من الطلبة والطالبات الذين تحولوا إلى مبدعين ومبدعات على يديها. تتألق عيناها الخضروان وهي تتأمل العذراوين والإعلانات فوق دور السينما والمسرح ، تضحك بمرح الأطفال حين تري الإعلان عن مسرحية " مونولوج " المهبل " وتقول:

-لا لا يانوال ، لقد سئمت من المهبل والقضيب وكل ما
يتعلق بالجنس ، أريد أن أري فيلما أو مسرحية رومانتيكية!

العودة إلى الرومانتيكية:

الإغراق في الجنس أو في الحب العذري الرومانتيكي بدون جنس وجهان لعملة واحدة هي الرأسمالية الذكورية ، المتوارثة عن النظام العبودي ، منذ انفصل الجسد عن الروح والعقل، وانفصل الحب عن الجنس واصحبت المرأة ترمز إلى الجسد/ الإثم/ الشيطان، ويرمز الرجل إلى العقل/ الروح/ الإله.

هذه واحدة من أفكار الفكر النسائي الحديث وما بعده الحديث، والتي لعبت دوراً في مقاومة الفكر العبودي الرأسمالي خلال القرن العشرين، وترتكز القدرة الإبداعية على القدرة على الغاء الفصل بين الذكر والأنثى وبين الإله والشيطان وبين الجسد والروح والعقل.

كيف يتحول الذكر إلى إنسان؟ كان هذا السؤال يدور برأسي دائماً على مدي عمري من أول أصبا والشباب حتي اليوم ولم يكن لي أبداً أن اقع في حب رجل لا يري في إلا الأنثى.

ودار السؤال في راسي وأنا جالسة إلى جوار صديقتي "ماريا" نشهد معاً مسرحية بعنوان "الصبي الذهبي" في شارع برودواي. يتمشي البطل فوق خشبة المسرح بقامته الطويلة وعضلاته القوية الذكورية يزيد بها قوة وذكورة بالرياضة العنيفة، "المصارعة" يرتدي قفازه ويصارع الذكور الأشد متغلباً على هم، مصمماً على أن ينتصر على مدينته نيويورك الكبرى، أن يشق طريقه من الأزقة الفقيرة في مانهاتن السفلى إلى حيث الطبقة العليا ذات المال والمجد. إنه يؤمن بالفلسفة الأمريكية البراجماتية التي تقول: كن عملياً ولا تفكر في المبادئ، فالوسيلة تبرر الغاية.

هذه الفلسفة الرؤية غير الإنسانية هي الصالحة تماماً للمجتمع الرأسمالي الذكوري الفاسد، ويدرك "ألفونسو" بطل المسرحية أن الفساد لا يقهره إلا الفساد، إلا أنه يلتقي بأمرأة اسمها "لورنا" يقع في حبها. تتغلب في الحب طبيعته الإنسانية الأولى، فهو في الأصل إنسان رقيق الطبع حساس يمتلئ قلبه بالحنان والحب والعدل والجمال، لكن الحبيبة "لورنا" كانت على علاقة حب برجل آخر اسمه "توم"، وهي

تعشق شرب الخمر، وحين يتهمها "توم" بالإدمان تقول له: "في حلقي با حبيبي عصة أريد إزالتها بالخمر!".

وتتصاعد الموسيقى الغاضبة مع غضب الفتية المصارع ألفونسو حين يكتشف أن المرأة التي يحبها ما مش غولة بغيره، يرتدي قفازه ليبارز الذكور المنافسين له في مجال الحب أو المال أو الشهرة، تلعب الموسيقى في المسرحية دوراً رئيسياً للتعبير عن الغضب والغيرة والتمرد والثورة. تتنافس الآلات باختلاف أنواعها الحديثة والقديمة، مع الطبول وأناشيد الثورة الزنجية التحررية ضد السيد الأبيض، وألحان الكنائس المصاحبة لتراويل الإنجيل.

ويختف يوجه مؤلف المسرحية وملحنها موخرجها تحت وجه الممثل "الونسو ريبيرو" ذي الحضرة القوي الذي يخطف البصر، بقامته الطويلة المشوقة، وقوته الهائلة مع الرقة الشديدة والعذاب في الحب حتي الموت. ومنذ عام ١٩٨٣ اشتهر اسم ألفونسو في مسارح برودواي تحت اسم "الطفل النجم" إلا أنه اليوم أصبح رجلاً في الثلاثين من العمر، ممتلئ الصوت، يخترق صوته الرجولي قلوب النساء مثل السهم ينفذ به "المصارع" إلى عين غريمه "الثور".

تعبّر الموسيقى بدرجاتها واصواتها المتعددة عن صوت واحد هو هو صوت المقاومة العنيفة لأخر معاقل العبودية والعنصرية، ذلك أن البطل " ألفونسو " أسد مر البشارة من اصف فقير مثل غيره من السود في حي "هارلم" وهو ينافس الرجل الأبيض لامتلاك امرأة بيضاء.

تجتمع القوة الذكورية مع الرقة والحذمان، تمتزج الرومانتيكية مع المثالية والبراجماتية والثورية والإقدام والأحجام في تآلف موسيقي شفاف يهز القلب والجسد والروح والوجدان.

وتهتز إلى جوراي صديقتي " ماريا " وهي تغني مع البطل: "أريدك معي يا حبي" يسري اللحن في دماغه أيضا يدغدغها، وأتذكر أنني في مدينة نيويورك. والمدينة كلها نائمة في الليل إلا شارع برودواي، ويدب ألفونسو بقدميه فوق خشبة المسرح وهو يرقص، وصوته يردد من الإيقاع: " لا تسنو الشارع ١٢٧، احد شوارع هارلم".

وتظل الموسيقى في أذني حتي أعود إلى غرفة نومتي في بيتي على الضفة الأخرى من نهر هدسون، موسيقى

الفنان " شتراوس " مع صوت " الفونسو ربيرو " وألحان الجاز
الفرجية تنطلق من شوارع هارلم عام ١٩٦٥ حين كانت
طالبه شابة في جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك.

زيارة امرأة سوداء ترتدي الحجاب:

إحدى الدعوات النسائية في شهر مارس جاءته من جماعة من المسلمين يعيشون في نيويورك ونيوجيرسي ، يزيد عدد المسلمين فيهما عن مليون ونصف شخص، حملت الدعوة إلى بيتي شابة سوداء تلف رأسها بحجاب تقول عنه "الحجاب الإسلامي". وحين نظرت إلى شعري غي المغطي بحجاب قلت لها: اسمعي يا عزيزة (اسمها عزيزة أيضا) لقد تخرج المرحوم والدي من الأزهر ودار العلوم وكان له ستة من البنات لم يطلب من واحدة منهن ارتداء الحجاب، وارسلنا جميعاً إلى الجامعات حيث جلسنا إلى جوار الرجاء لننتقل إلى العلم والطب والفن والأدب.

هذه الشابة في الخامسة والعشرين من عمرها، طالبة بجامعة نيويورك تعد لنيل درجة الدكتوراه في الدين الإسلامي، ولدت في حي هارلم حيث هاجر جدوها السود من الجنوب طلباً للرزق ، اعتنقوا الإسلام حين انتشر الإسلام بين المهاجرين في هارلم وبروكلين وغيرهم مما من أحياء نيويورك الفقيرة ، شابة طويلة القامة نحيلة الجسد م

شاحبة اللون قليلاً. لكن عيناها السوداوان الواسعتان تشد عان
بضوء الحماس النابع من الإيمان بقوة في السماء.

جاءت عزيزة تدعوني لإلقاء كلمة في عيد المرأة
العالمي ٨ مارس ، وقالت لي إنها " فيمنيس ت مسد لمة " ،
تؤمن تحرير المرأة حسب الشريعة الإسلامية ، وطلبت منها
أن توضح علامة الإسلام بحجاب المرأة ، إلا أنها عجزت
عن ذلك تماماً، ثم قالت أنا أرتدي الحجاب لتأكيد الهوية أكثر
من تأكيد الدين، ودار الحوار بيننا عن معنى " الهوية " ،
وأخيراً سألتني عزيزة: "وما هي هويتك يا دكتور الساداوي؟" قلت
لها: هويتي ليست احادية، بل هي متعددة الجوانب ، إذ تجري
في عروقي دماء مصرية وإفريقية وآسيوية وتركية وقبطية
وحبشية وإسلامية وبوذية من أج دادي الهندود، إن دمائي
مختلطة يا ابنتي عزيزة ، وأنا لا أومن بالدماء النقية على
غرار الفلسفة النازية حيث آمن هتلر بنقاء الدم الألماني
،وهي فكرة عنصرية تسري على نقاء الدم بمثل ما تسري
على نقاء الحضارة، فلا توجد حضارة نقية لم تخطئ بها
حضارات أخرى من الشروق والغرب والشرق والجنوب

والسود والبيض والصففر والحر وكل الاشء كال والألوان والأديان. المفروض يا عزيزتي عزيزة ألا نبالغ من الفروق بين البشر على أساس الدين أو الجنس أو الجنسية أو العرق أو اللون تحت أي اسم أو شعار وإن كان " الهوية".

إلا أن الشابة الأمريكية المسلمة " عزيزة" لم تسد توقعي كلامي. كانت ترمقني باتساع الدهشة في عينيها وتهز رأسها في عجب. لقد نشأت " عزيزة" في أسرة أمريكية لا تعرف اللغة العربية ولا تفهم الإسلام كما فهمه أبي الأزهر ري الدرعمي (نسبة إلى دار العلوم) ،وهي تنتفض حماساً وهي تقول لي: "سوف يكون القرن الواحد والعشرون هو قرن الإسلام رغم أنف جورج بوش، الذي يصور الإسلام على أنه دين الإرهاب، ويحاول القضاء على ديننا الحنيف لتتصد ر المسيحية". قلت لها: لا يا ابنتي عزيزة ، إن جورج بوش (الابن) لا يحاول القضاء على الإسلام. بل إنه يدعم كثيراً الحكومات الإسلامية التي تقف معه في حربه ضد الإرهاب ،وهو يشجع النعرات المسد يحية والإسلامية واليهودية أيضاً، ويزيد من الأموال الممنوحة للمدارس الدينية في أمريكا. سواء كانت مسيحية أو إسلامية أو يهودية.

وملأت عينيها الدهشة اكثر وأكثر ،وقالت: كيف ه ذا؟
ولماذا يدعم جورج بوش الإسلام؟ من مصلحة جورج بوش
أن يقضي على الإسلام، إليس كذلك يا دكتور الساداوي؟ قلت
لها: لسي من مصلحة ج ورج ب وش أن يقضي على
الإسلام.أو حتي إضعافه ، أو التشكيك فيه،لأن التشكيك في
دين واحد يتبعه التشكيك في الأديان الأخري، خاصة
المسيحية التي يدعمها ج ورج ب وش، ويسد تخدمها ك أداة
للسيطرة على الشعب الأمريكي ،خاصة بعد أحداث ١١
سبتمبر وضرب مركز التجارة الدولية في نيويورك
والبنطاجون في واشنطن.

دار الحوار طويلاً ، ثم أخرجت عزيزة من حقيبتها
دعوة لي لأتحدث في ٨ مارس عن المرأة والإسلام. لكنني
كنت قد ارتبطت قبل بدعوة أخرى للتحدث في البرلمان
الأوروبي في بروكسل عن "مستقبل النساء في القرن الواحد
وعشرين"،وقد دعيت للحديث معي نساء من أفغانستان
وفلسطين وتونس وغيرها من البلاد. سررت لأن هؤلاء
النساء خاصة المرأة الفلسطينية ، استطعن الربط بين قضية
تحرير النساء وقضية تحرير الأرض من الاحتلال الأجنبي

، وهل يمكن أن يتحرر نصف المجتمع (من النساء والرجال) في بلد محتل بالجيوش الأجنبية الإسرائيلية أو الأمريكية أو غيرها؟

أما المرأة الأفغانية فقد كشفت عن الترابط بين الاحتلال الأمريكي لبلدها والاحتلال الثقافي والفكري والتعليمي ، لقد صرفت الولايات المتحدة (تحت اسم المكونة التعليمية لأفغانستان) ٥١ مليون دولار من عام ١٩٨٤ حتى عام ١٩٩٤ ، ووزعت أكثر من أربعة ملايين كتاب مدرسي على التلاميذ، وملايين من الكتب الأخرى المليئة بالآيات القرآنية والتفسيرات الخاطئة لهذه الآيات، من أجل تشجيع الأطفال والشباب الأفغاني على قتل الكفار (الاتحاد السوفيتي) وغيرهم من الشيوعيين المأحدين. لقد سعت الحكومة الأمريكية عن طريق هذه المعونات الثقافية لتشجيع القتل والتعصب على حساب الدين الإسلامي، واليوم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانتصار الجيش الأمريكي في أفغانستان على نظام الطالبان وخلايا القاعدة أو المجاهدين الإسلاميين بقيادة أسامة بن لادن، بدأت حكومة الولايات المتحدة نفسها تمسح

من الكتب ذاتها التي شحنتها إلى كابول، بدأت تمسح منها جميع الآيات أو التفسيرات التي تدحض على الدين والجهاد في سبيل الله، وتضع مكانها آيات تدحض على المحبة والسلام.

وفي جامعة نيويورك وجامعة نيو جيرسي وغيرهما من الجامعات الأمريكية ترتفع الأصوات الطلابية في المظاهرات ضد الحرب وسياسة جورج بوش (الابن): "إن الحكومة في واشنطن تبذل الأموال التي تجمعها من الضرائب، والتي ندفعها من عرقنا ودمنا في تشجيع الفتن الدينية، خلقت في أفغانستان خلال عشرة أعوام أجيالاً من الشباب المتعطشين للدماء تحت ستار الإسلام".

وتسهم الأمم المتحدة عن طريق منظماتها "اليونيسيف" في صرف هذه الكتب والمعونات التعليمية تحت اسم المساعدات الإنسانية للشعوب الفقيرة لتقوية الروح الدينية لدى الأطفال والتلاميذ.

وقد خصصت الحكومة الأمريكية ٢٦٩ مليون دولار معونة تعليمية لإرسال كتب أخرى جديدة ومسح الكتب

القديمة ،وأمام موظفي اليونسيف في أفغانستان نصف مليون كتاب يدرس العنف والإرهاب تحت اسم الجهاد الاسلامي ،وأمامها أيضا ميزانية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ دولار أمريكي لنسف هذه الكتب وتدميرها تماماً لتختفي من الوجود ومئات الموظفين من النساء والرجال في اليونسيف مشغولات اليوم بمسح الصور في الكتب التي تصور البنادق يحملها المجاهدون الأفغان ،والكلانشكوفات، تستبدلها بصور الزهور والبرتقال وحمامات السلام.

لي صديقة تعمل في مكتب اليونسيف في نيويورك عادت مؤخراً من أفغانستان وراحت تحكي ما يحدث اليوم في أفغانستان المحرر بأيدي الأمريكان والتحالف الشمالي، تطرق صديقتي برأسها وتقول: "اشعر بالخزي والعار يا نوال ،وسوف أنشر هذه الحقائق رغم أن النشر قد يحرمني من وظيفتي التي أعيش منها، إلا أن ضميري يعذبني".

وأمشي في شهر مارس في شوارع نيويورك فوق الثلج البيضاء أنشد رؤية شئ من الفن العميق يروح عندي آلام الغربة والبعد عن الأهل والوطن.

نيويورك/ مارس ٢٠٠٢

إبليس في ارض الخوف

١- قبل أن أري الفليم:

وأنا لست ممن يحكمون على الأعمال الإبداعية بالجوائز في المهرجانات أو تكريم الدول ، إن أعظم المبدعين والمبدعات في التاريخ البشري ماتوا دون أن يطرف جفن العالم ودون أن يمشي في جنازاتهم احد ، وبعضهم مات في السجون أو المنفي أو أقدم على الانتحار. مع ذلك قررت أن أري هذين الفيلمين ، فإننا أعيش حالة من البحث المرهق على عمل فني جيد أطرد به القبح والأعمال الهابطة. لقد سافرت غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً وفي كل بلد ابحت عن فيلم جيد دون جدوي ، ماذا حدث للعالم؟ كيف تطغي الأقلام الأمريكية على سطح الشاشة الكبيرة والصغيرة بهذا الاسهال المريض؟ حتي مدينة باريس التي كانت تزدهر باستقلالها الفني اصحبت افلامها الأمريكية ابطالها رعاة البقر ومدينة لندن الأكثر رصانة غرقت أسواقها بأفلام بطلاتها العاريات يمسكن المسدسات. ومدينة القاهرة

أصحبت كأنما هي مدينة أخري لا أكاد أعرفها ما تغطي
جدرانها الأفلام الأمريكية أو المصرية لا أكاد أعرف هذه
من تلك ، فالكل يدور حول قصص غارقة في الخيال ، أو
في دخان المخدرات ، وبطلات لا هم لهن إلا الرجال ورجال
لا هم لهن إلا النساء! أتكون هذه هي حياة الملايين من
الجرال أو النساء امثالي أنا؟

تذكرت أنني رايت فيلماً منذ سنوات أخرجه داود عبد
السيد وقد بررت المجازفة والذبح من بيتي إلى
الشارع، والسير على القدمين حتي السينما التي تعرض فيلم
أرض الخوف. لن اتحدث عن الشارع وما فيه وما أخرق
اذني من كلمات السباب ، تتطلق من أفواه الصبية الجالسين
على المقاهي، أو السائرين على الأرصفة ، كيف يعاكسون
البنات في الطريق ، السدافرات والمحجبات على قدم
المساواة ، الشابات والكهلات من مثيلاتي ، صفعت رجلاً
على وجهه حاول مغازلتني ، وشتت ولدا يركب دراجة
حاول أن يدهسني ، كدت أعود إلى البيت لكنني واصلت
السير إن التحدي يجري في دمائي منذ الطفولة، ولن أترجع
عن هدفي مهما صادفني من مشاق.

٢- خلال رؤية الفيلم:

دفعت خمسة وعشرين جنيهاً ثمن التذكرة، كدت أرددها وأسترد أموالها، كيف تتضاعف الأسعار بهذا الشكل؟ وهي في سينما عادية. المقاعد فيها عادية والباقي ثأيضاً عادية ولا جمهور عادي، أغلبه من الشباب والصبيان، إلي جوار فتاة ترتدي الحجاب يحوطها رجل بزراعته ويقبلها في الظلمة.

وظهر أحمد زكي. له وجه مصري صميم وذكورة واضحة تقليدية، الرجولة المتحفزة للدفاع عن نفسها في أي لحظة. التي تتصور أن ما امرأة في العالم إلا وتسقطي بين ذاعيه هياماً وعشقا. لكن المخرج داود عبد السيد استطاع أن يقلم قليلاً من أظافر هذه الرجولة، رأيت مشاهدته يرض بالحنان والرفقة حين يتعامل أحمد زكي مع النساء، حتي تلك المرأة التي عاشرها لمدة ليلة واحدة، بمقدام الصداقة ثم طلقها في اليوم التالي بمؤخر الصداق، والتي أحبته دون أن تعرفه، وبكت بالدموع لانه سيفارقها، كيف أحبته في ليلة واحدة؟ أهى الرجولة الفتاكة؟! وتلك المرأة الأخرى الفناضة

المستقلة التي تترك بابها مفتوحاً فيدخل أحمد زكي فإذا به لا
تقع صرعي الحب من أو لنظرة ،وتلك الأخرى والأخرى
،نماذج من النساء فوق الشاشة المصرية والأمريكية نسائية
يتلاشي استقلالهن في لحظة خاطفة أمام نظرة ذكورية
مقترحة من نوع نظرات أحمد زكي ، لم تظهر امرأة واحدة
في الفيلم بشخصية أخرى غير تقليدية. وهذا عيب عام في
الأفلام المصرية والأمريكية على حد سواء ، فالرجل تتغير
شخصيته مع تغير الصراع الذي يعيشه مع النظام الحاكم في
الدولة ، لكن المرأة هي المرأة ولا شيء يشغلها إلا الرجل
،أن كانت فنانة مبدعة مثل بطلة الفيلم.

يدور فيلم ارض الخوف حول موضوع هام وخطير
،وقد نجح دأو عبد السلام في تصويره من خلال قصة
تقليدية أحمد زكي ضابط بوليس يتلقى أمراً من رئيسه أن
يسعى لاكتشاف اوكار تجار المخدرات متكرراً في شخصية
أخرى مثلهم يؤدي أحمد زكي يمين الطاعة والولاء من أجل
خدمة وإنقاذ الشباب من برائن المخدرات ، لكنها مهمة شاقة
خطيرة يؤديها مدي الحياة ، فلا طريق للعودة ولا أمل في
الخلاص، لقد صدر الأمر الاعلي وانتهي الأمر، على ه أن

يؤدي دوراً شريراً شبه بدور إبليس ، وهو إنسان لا يدب الشر ، قلبه دافئ يحن إلى الحب والحياة الآمنة المستقرة لكن الدور الشيطاني قد فرض على ه بق رار اعطي كالمصير المحتوم يؤدي المهمة يحاول التمرد احياناً من شدة التعب إلا انه لا يملك حياته، فالقرار بيد سلطة كبرى لا يكاد يعرفها ولا يصل إليها مهما سعي، إنه مثل البطل في قصص فرانز كافكا، الإنسان المحكوم على ه دون أن يعرف من أصله في الحكم ، لكن الحكم ينفذ كيف يكون الإنسان قشة في مهب الريح، أداة في يد الجهاز السلطوي الأكبر ، جهاز غامض الوجوه والاسماء كل شيء فيه مجهول ،جو المخابرات العامة والمباحث ، الوجوه المتكره ذات الأقنعة تتحرك كالعرائس الممسوكة من أعلي المسرح بخيوط غير مرئية، لكنها خيوط قوية متينة ترطب الإنسان بمصيره الأبدي حتي الموت مقتولاً أو قاتلاً، أو مهاجراً متتكرراً ، مطارداً.

هذا هو حال احمد زكي في الفيلم ،وقد ادي الدور ببراعة واتقان اصبح تاجر مخدرات ناجحاً، ولكنه لم يفقد قلبه الدافئ والحنين إلى الحب الجميل والصديق والحريّة وكلها تبدو كالأحلام المستحيلة ، مثل أحلام إبليس حين أراد

أن يعلن التوبة لكن الإرادة الالهية الاعلى لم تقبل توبته،والا كيف يعيش الناس بدون شيطان؟!

لقد تجاوز داود عبد السلام في هذه الفيلم بعض الحدود على الفكر الإنساني- على الاقل في بلادنا - تذكرت وانا اشاهد الفيلم قصة قصيرة لتوفيق الحكيم، تدور القصة حول لمأساة إبليس حين قرر أن يتوب عن الشر، وذهب إلى الانبياء جميعاً، واحد وراء الآخر يطلب منهما التوسط بينه وبين الإله الأعلى من أجل أن يقبل توبته. تنتهي القصة كما انتهى فيلم أرض الخوف. أن إبليس يظل إبليس بالأمر ولا سبيل إلى الخلاص. إنه القضاء والقدر لا راد له.

لكنها في الفيلم إرادة على أخرى ليست دينية، إرادة الدولة وإرادة الجهاز الأكبر في الدولة الذي أصدر القرار المخبرات.

في نهاية الفيلم يدور الحوار بين أحمد زكي ورئيسه، يتمرد أحمد زكي (إبليس) على رئيسه ويصفعه ويركله يود أن يقتله، لكن ماذا يفيد ذلك، فهناك رئيس آخر فوقه ذا الرئيس، وهناك فوق ذلك رئيس آخر، ولا يمكن لأحد أن

يصل إلى قمة الهرم فهي تختفي وراء السحاب كما تختفي الآلهة.

يكشف الفيلم في مواقف متعددة عن كيف تتعاملون الشرطة مع تجار المخدرات وكيف يتعامل الرجل في المخدرات ، ثم يركع ويصلي لله يطلب التوبة، وكيف يستخدم تاجر المخدرات ورقة الدين ليبرر أعماله، كيف يتزوج المرأة ليلة واحدة فقط ثم يطلقها في اليوم التالي بعد أن يدفع لها المقدم والمؤخر ، أي تلاعب بورقة الدين وفكرة التوبة والصلاة وسمح الذنوب أولاً بأول.

الفكرة جيدة تكشف الكثير من الزيف في حياتنا السياسية والدينية ، أراد لها داود عبد السيد أن تصل إلى قلوب الناس وعقولهم فهل وصلت؟! ربما، وربما لا، لأنه كما نرى يمشي بحذر شديد فوق الألغام، ولم يشأ أن ينفجر فيه لغمل، وكما نرى الإخراج ناعماً رقيقاً بلا صدمات ولا دم كثير، ولا خدش أصاب أحمد زكي رغم حياته الخطرة لقد نال كل شيء في الحياة عن طريق الشر، نال المال والنساء. إلا أنه فقد السعادة وراحة البال. مثل إبليس الشقي الذي أصابته لعنة الله إلى الأبد.

أتوقع أن يفوز هذا الفيلم بجائزة في البدرين بسبب
الأخراج الناعم المتقن وجاذبية احمد زكي الشيطانية، ولم لا.
لقد تمتع إبليس بجاذبية كبيرة لافساد النساء والرجال، وإلا
فلماذا هو بالذات الذي صدر له الأمر الإلهي؟ ولماذا أصد بح
الابداع أو الفن يحمل اسم الشيطان؟! ألا نقول " شيطان الفن"
أو " شيطان الشعر؟!

هذه فيلم جيد في السينما المصرية يستحق الرؤية، وهو
فيلم طويل ربما يكون افضل لو تم اختصاره قليلاً وقد ذفت
بعض الاجزاء غير الضرورية والتي تجعل الفيلم مملاً
أحياناً، خاصة الاستعراض المصنوع لذكورة احمد زكي
وعلاقاته النسائية المتعددة وذلك المبالغة في اظهار بطولته
الخارقة وكأنه طرزان.

لولا هذه الاجزاء لأصبح هذا الفيلم حدثاً في تاريخ
السينما المصرية

القاهرة/ ١٩ مارس ٢٠٠٠

عن الحقوق المدنية والسياسية

حقوق الإنسان وأسطورة النظام العالمي الجديد

١- الملاحظة اولي

لاحظت أن عبارة الحقوق المدنية اصحبت تتردد في بعض بلادنا العربية ، وخاصة في مصر أو الجزائر أو تونس أو غيرها من البلاد التي تتمتع بشئ مما أطلق على ما الديموقراطية " أو مما تسد مح بوج ود بعض الاحزاب السياسية إلى جانب حزب الحكومة ، واصحبت افكر في هذه الظاهرة الجديدة التي فرضت نفسها في المؤتمرات والندوات، بل في الاحاديث العادية، إذ ما أن أقابل احداً من المثقفين في بلادنا أو تجمعني جلسة ببعضهم حتي أسمع كلمة الحقوق المدنية، والمجتمع المدني أو القوانين المدنية.

بل إنني ذات يوم وأنا اسير في الشارع المجور لمنزلي استوقفني احد الجيران، وهو يعمل بمديرية الأمن ، ربما مدير أو مدير عام لا أعرف بالضبط، وكان حين يقبلني لا يقرئني السلام إلا نادراً و قد يحرك رأسه الناحية الأخرى وكأنه لا

يعرفني، لكنه هذا الصباح ابتسم في وجهي واستوقفني وبداً
يشكو من المشاكل والأزمات التي تعانى منها الحكومة
والشعب نائم لا يفعل شيئاً. واختتم كلامه قائلاً: خذ ملاص يدك
دكتورة الشعب مات وموش عاوز يتحرك.

كنت عائدته لتيوي من مكتب البريد لأسجل
خطاباً، ورفض الموظف تسجيله، وحين سألته لماذا أشار إلي
قطعة من " السيلوتييب " ألصقت بها المظروف وقال: ه ذا
ممنوع وقلت بدهشة: ممنوع ليه؟ قال مش عارف والله. هي
دي التعليمات.

وكان عل يأن أطوف المكتبات في الجزيرة باحثاً عن
زجاجة صمغ الصق بها المظروف بدلاً من السيلوتييب". ولكن
الصمغ كان مثل املاء وقلت لنفسي حتي الصمغ مغشوش
،وأجهدت عقلي في البحث عن اسباب منع تسجيل خط اب
بالبريد لمجرد أنه مغلق بقطعة من " السيلوتييب " وليس
الصمغ العادي، ولم أصل إلى شيء وكلما أسأل واحد من
موظفي البريد يرد على قائلاً: مش عارف والله لكن هي دي
التعليمات.

كنت عائدة لتوي من مكتب البريد بعد أن ضد ما ع مذي
نصف الصباح في البحث عن زجاجة صمغ غير مغشوشة.
وفي تسجيل الخطاب ،وما أن سمعت مدير الأمن يقول أن
الشعب مات حتي قلت على الفور: طبيعي كان لازم يموت.
كنت أشعر في تلك اللحظة أن جميع حقوق المدنية
والإنسانية تنتهك كل يوم حين أحاول ممارسة الأعمال
الضرورية في الحياة مثل تسجيل خطاب أو تجديد رخصة
القيادة أو جواز السفر ، أو دفع فاتورة الكهرباء أو التليفون.
أو أي عمل آخر يتطلب على الدخول إلى مكتب من مكاتب
الحكومة ، أشعر كأنني عدة فجأة إلى عهد العبودية ، أو
انني مثل ذبابة سقطت في عش العنكبوت، وأن التعليمات
أوالوائح أو القوانين بلا عقل وبلا منطق إلا السيطرة العمياء
والرقابة الأكثر غباءاً بالمفروض أن السيلوتيب لا يمنع
الرقيب من فتح الخطابات بل إنه أسهل في الفتح ولا يترك
أثراً واضحاً ، كالصمغ العادي الذي لا يفتح عادة إلا بتمزيق
المظروف ، أو بواسطة بخار الماء وقد عرفت هذه الحقيقة
فيما بعد من مدير الأمن الذي ابتسم في وجهي الصباح وقال
إن الشعب قد مات.

٢- التجربة الذاتية والموضوعية:

سألت نفسي وأنا جالسة إلى المكتب أفكر في هذه الورقة المطلوبة مني عن الحقوق المدنية ، هل أكتب شيئاً عن تجربتي الذاتية ، أم أدخل في الموضوع مباشرة كما يفعل اساتذة الجامعة او البحوث الاكاديمية؟

لكن نزعتي الأدبية أو الروائية تغلب دائماً، وتؤكد لي أن الذات جزء من الموضوع.

وفي الثقافة العربية مبدأ يقول إبدأ بنفسك، وفاقداً الشيء لا يعطيه ، وإذا كنت أريد التحدث للآخرين عن حقوقهم المدنية فهل أنسي حقوقي أنا؟

وباختصار شديد يمكن أن أقول إن جميع حقوقي المدنية قد انتهكت تماماً منذ الولادة، وفي جميع مراحل العمر حتي اليوم.

حين ولدت واكتشفت الناس من حولي نوع الجنس الذي انتمي إليه تبددت الفرحة وعلا الوجوه الوجوم والهم. وقبل أن تنتهي مرحلة طفولتي كاد جدي لامي أن يزوجني الرجل يكبرني بثلاثين عاماً لأنه يملك ثلاثين فداناً. وفي الشارع أو الأوتوبس كانت عيون الرجال وايد ديهم تنتهك حقوقي

المدنية، وفي المدرسة والجامعة كان المدرس ون يفرض ون
على الحفظ دون الفهم أو الجدل والنقاش. وف يالزواج ك مان
على أن اخضع لسيطرة الزوج المطلقة أو الطلاق. وفي
عملي داخل الحكومة كان على أن أطيع المدير أو ال وزير
بلا نقاش وإلا الاضطهاد والطرء. وفي الكتابة والنشر ك مان
على الأامس المحظورات أو الموروثات منذ الآف السنين
وألا اقترب من قريب أو بعيد من قمة السلطة الهرمية، أو
فرعون الأكبر، وإلا فالعقاب معروف ومكتوب في القانون أو
غير مكتوب، مجرد إشارة تليفونية تحملني العربية المصممة
إلى السجن.

حين أعود بذاكرتي إلى الراء انهش كيف مررت بكل
هذه التجارب، وكيف انتهكت حقوقي المدنية دون أن انتمي
إلى حزب سياسية أو داخل حلبة الصراع على السلطة؟
ولمجرد رغبتى الطبيعية في الانتماء إلى الجنس البشري
وممارسة حقى الأول كإنسانة لها عقل تود التعبير عنه.

٣- نموذج من الحياة الواقعية الحالية:

حين جلست لأكتب هذه الورقة، وكان ذلك في أوائل شهر أكتوبر الماضي دون جرس التليفون وجاءني صوت أحد المحامين المتطوعين في القضية المرفوعة في مجلس الدولة ضد وزارة الشؤون الاجتماعية بسبب صدور قرار إداري في يونيو الماضي بحدل جمعية تضامن المرأة ومصادرة أموالها وتحويلها إلى جمعية أخرى اسمها نساء الاسلام.

وقال لي المحامي بصوته الواثق: سنكسب القضية يا دكتور في الجلسة الأولى ٣١ أكتوبر ١٩٩١ لأن قرار الحل صدر بلا اسباب وبلا تحقيق وبلا حكم قضائي. وهذا انتهاك لجميع الحقوق المدنية. وانتهاك للدستور التي تنص المادة رقم (٦٦) منه على أنه لا يجوز فرض عقوبة دون حكم قضائي.

وتفاعلت أخيراً وبدأت أكتب الورقة، لكن جرس التليفون دق مرة أخرى وجاءني صوت محامي آخر متطوع في القضية نفسها، وقال بصوته المخضرم العجوز: لن نكسب القضية في الجلسة الأولى، ولا الجلسة العاشرة، إن مثل هذه

القضايا في مجلس الدولة تستغرق الشهور والسنين وقد د
نخسر القضية في النهاية. لأن المادة رقم (٩٦) من قانون
الجمعيات رقم ٣٢ لعام ١٩٦٤ تم منح وزير الشؤون
الاجتماعية سلطة أكبر من سلطة رجال الضبطية القضائية
الذين لا يملكون حق مصادرة الأموال إلا بأمر من النيابة
العمومية ، أو في حالة التلبس بجريمة قتل أو جريمة
مخدرات.

وتساءلت بدهشة: فين الحقوق المدنية؟

وقال المحامي ساخراً: حقوق مدنية أيها كدة؟ إن
وزارة الشؤون الاجتماعية وهي الجهة الأساسية المعنية
بالحقوق المدنية للشعب تسلب هذه الحقوق من الشعب
بواسطة قانون الجمعيات. اقري المادة رقم ٩٧ من هذا
القانون، فهي تنص على الحبس مع الاشغال الشاقة لكل من
أنشأ أو نظم أو أدار جمعية تدعو إلى مناهضة نظام الحكم،
أو الحضر على كراهيته! حتي الكراهية يا كدة؟ غير
مطلوبة ،وعليك أن تفتحي قلبك لحب نظام الحكم!

وقلت لنفسي: إذا كان هذا هو حال الحقوق المدنية في مصر، فما بال تلك البلاد العربية التي لا تعرف شيئاً اسمه حقوق مدنية، ولا يسمح فيها للرجال بتكوين الجمعيات أو المؤسسات الشعبية لحل مشاكلهم، ولا يسمح فيها للنساء بالخروج من البيت للاشتراك في الجمعيات أو الأنشطة المدنية العامة أو حتي مجرد قيادة سيارة؟

٤- ما الفرق بين الحقوق المدنية والحقوق

السياسية؟

منذ ولدت وأنا اسمع كلمة الحقوق السياسية تردد من حولي، ثم عرفت حين كبرت قليلاً أنني محرومة من هذه الحقوق لأنني انتمي إلى جنس آخر، وأن النساء يطالبن بهذه الحقوق من خلال الجمعيات النسائية، وأن هذه الحقوق تتعلق بحق الترشيح والانتخابات في البرلمان وفي عام ١٩٥٦ حصلت النساء في مصر على هذه الحقوق. وحدث أيضاً في عدد من البلاد العربية فيما عدا بعض البلاد العربية في الخليج العربي. حيث لا تزال النساء محرومة من التصويت في البرلمان.

وفي بلادنا العربية نشأ مفهوم الحقوق السياسية بمعناها المعاصر المتعلق بدخول البرلمان أو الأديان السياسية والحكم نتيجة الصراع بين الحركات الوطنية والقوى الاستعمارية الخارجية وأعوانها من الحكومات الدكتاتورية المحلية.

وقد سيطر نخبة المثقفين من الرجال على الحركات الوطنية في بلادنا بحكم النظام الطبقي الأبوي الذي أبعد النساء والفلاحين والعمال والفقراء عن النشاط السياسي.

وتتنتمي هذه النخبة في معظم الأحيان إلى الطبقات أو الشرائح العليا أو الوسطى الرأسمالية بجذورها الإقطاعية أو القبيلة أو العائلية، وبالتالي كانت نظرتها إلى الحق والسياسة محدودة بحدود مصالحها التي تساعد على الوصول إلى الحكم بأسرع الطرق وأقصرها، وهو طريق الانتخابات للبرلمان التي تشبه في بعض الوجوه الليبرالية في البلاد الصناعية الرأسمالية في الغرب، ولم تهتم هذه الطبقة المثقفة بحقوق الطبقات والفئات الأخرى في المجتمع كالنساء والشباب والفقراء والأجواء في الريف والمدن. والتي كانت تمكنوا لو حصلوا علىها من المشاركة معهم في الحكم، وفي تسيير شؤون البلاد وشؤونهم الخاصة، وتغيير المجتمع، وبناء المؤسسات الشعبية التي تساعد على هذا التعبير، أي خلق الأدوات والمنظمات التي تسد محلهم

بالحصول على حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والإعلامية وغيرها.

لكم الحقوق السياسية ظلت مقصورة على الشريحة العليا الصغيرة في المجتمع واطلق على هذا اسم رجال السياسة أو الساسة أو القيادات ،وسقطت الاغلبية الساحقة من الرجال والنساء تحت اسم آخر مثل الناس العاديين او المدنيين أو القطاع المدني.

ومن هنا جاء اصطلاح الحقوق المدنية،وهي الحق وق السياسية التي حرمت منها الملايين أو اغلبية الرجال والنساء والشباب ، لأنها تنطبق على ذلك القطاع المدني أو القواعد المحرومة من المشاركة السياسية الحقيقية.

واصبحت الحقوق المدنية هي التي تعطي هذه الفئات والطبقات الشعبية قدراً من الحرية يساعدها على التغيير في بناء المجتمع وتطويره من داخل مؤسساتها. ثقافية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية ، والتي تخرج من نطاق الاد زاب السياسية والبرلمان ومؤسسات الحكم التشريعية والتنفيذية والقضائية.

٥- السلطة الرابعة:

هذه هي السلطة التقليدية الثلاث للحكم، وقد اضيف إليها في عصرنا الحديث سلطة رابعة هي الصحافة والاعلام. وتمثل هذه السلطة الرابعة تطويراً خطيراً في سيطرة المؤسسات الحكومية على عقول الناس، سواء في بلادنا أو في العالم اجمع.

لقد دخل " التليفزيون " إلى كل بيت في القري والمدن، وأصبح لأي سلطة مركزية محلياً وعالمياً أن تتحكم في عقول ونفوس الملايين من البشر. رجالاً ونساءً. شباباً وأطفالاً، ويمكن عن طريق احتكار وسائل الاعلام الالكترونية أن تغير العقول أو تغسلها تماماً تماماً، وتملؤها بالأكفار المزيفة والحقائق المعكوسة مما يخدم مصالح القلة الحاكمة محلياً وحلفاءهم في الخارج.

في بلادنا العربية لا يمكن للقطاع المدني أن تكون له قناة تلفزيون خاصة غير تلك التي تملكها الحكومة، ولا يمكن

أن تكون له محطة راديو غير تلك التي تملكها المؤسسات الحاكمة.

كذلك الصحف الكبرى والمجلات دور النشر الكبيرة لا تزال كلها مؤسسات حكومية، وتعمل وزارات الثقافة مثل وزارات الاعلام مثل وزارة الشؤون الاجتماعية والداخلية على الرقابة والتحكم في البشر أكثر مما تعمل على الثقافة الحقيقية، التي لا تتحقق إلا بتبادل الافكار وحرية الجدل والنقاش.

وقد حاولنا أن نصدر مجلة المرأة "نون" عن جمعية تضامن المرأة. لكن قانون الصحافة في مصر وقف لنا بالمرصاد، وجاءنا خطاب رسمي من المجلس الاعلى للصحافة بتاريخ ١٣ مارس ١٩٨٩ برفض الترخيص للمجلة لعدم توافر الشروط القانونية التي تستلزمها الفقرة الثانية من المادة ١٩ من القانون رقم ١٤٨ لسنة ١٩٨٠ بشأن سلطة الصحافة.

وهكذا يحرم القطاع المدني في مصر من وسائل تبادل الرأي أو الثقافة عن طريق عدم القدرة على إصدار المجلات إلا لمن يملكون السلطة والأموال.

أما الجدل في الأمور السياسية فهو ممنوع أيضاً من القطاع المدني في مصر، إذ ينص البند رقم ٣ من لائحة النظام الأساسي للجمعيات " أنه لا يجوز للهيئة أن تجادل في الأمور السياسية أو العقائد الدينية". وقد أرسلت إلينا وزارة الشؤون الاجتماعية خطاباً رسمياً في ٢٢ نوفمبر ١٩٩٠ يؤكد لنا هذا المعنى على شكل تحذير أو إنذار.

وكان قد راينا في جمعية تضامن المرأة على أن نربط بين قضايا المجتمع من النساء بالقضايا الأخرى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية وغيرها من مجالات الحياة غير المنفصلة في الواقع والحقيقة. وأدركنا أن هذا الربط " شرط ضروري" للوعي بحقوق النساء والرجال على حد سواء، خاصة ذلك القطاع الذي يطلق على هذه اسم القطاع المدني.

٦- أهمية الحقوق المدنية اليوم:

رغم خطأ الفصل بين الحقوق المدنية والحقوق السياسية إلا أنها ذات أهمية بالغة في المرحلة الحالية ، لأنها يمكن أن تتيح للمدنيين من الرجال والنساء فرض تنظيم أنفسهم داخل

الجمعيات والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ،كما
تمنحهم إمكانيات الحركة لأحداث تغييرات في حياتهم من
خارج البرلمان والأحزاب السياسية. لأنها يمكن أن تتغلغل
في كل نواحي الحياة الخاصة والعامة والاجتماعية
والاقتصادية والثقافية، ويمكنها - رغم القيود الحالية - أن
تلعب دورها السياسي وتقلل من احتكار السلطة بواسطة
رجال الحكم والأحزاب والساسة ورجال الصحافة والإعلام.
وربما تستطيع أيضا في بعض البلاد العربية المتقدمة
نسبيًا والتي تسمح بتعدد الأحزاب أن تغير طبيعتها هذه
الأحزاب ونظام الحكم والبرلمان، وبالتالي تحقيق
الديموقراطية عن طريق المشاركة الأوسع مع جميع فئات
الشعب من القاعدة إلى القمة.

٧- علاقة الثقافة العربية بالحقوق المدنية

والسياسية:

لا يمكن للإنسان أن يمارس حقوقه دون أن تكون له إرادة قوية واعية بهذه الحقوق والمسؤوليات وقد أدركت على تحقيقها من خلال حركته الفردية والجماعية داخل المؤسسات التي يعمل فيها أو ينظمها مع غيره من الناس.

لكن هذه البديهية غائبة تماماً أو مغيبة في المؤسسات الثقافية والتعليمية الرسمية. وفي الأحزاب السياسية أيضاً حتى المتقدمة منها الواعية بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للناس. فإن الثقافة ظلت بعيدة. منفصلة وهامشية.

وقد أدت الحقوق السياسية دون الحقوق المدنية والثقافية الحقيقية إلى ديمقراطية شكلية أبعدها أغلبية الرجال والنساء عن المشاركة الحقيقية في السياسة أو الحكم أو الثقافة أو غيرها.

وأبرزت هذه الديمقراطية الشكلية في بلادنا رجالاً أقل ثقافة وأقل ذكاء على الدوام، بسبب انشغالهم الدائم في الصراع حول السلطة ولعبة السياسة والانتخابات، وصدنع

القرار بسبب ق دراتهم الاقتص مادية ونف وذهب الاجتم ماعي
والسياسي الناتج عن سوء توزيع السلطة والثروة في البلاد.

وترتبط مشكلة الثقافة في بلادنا العربية بمشكلة السلطة
الحاكمة المستبدة غير المؤمنة بالحريّة أو الديموقراطية
الحقيقية والتي تعتبر الثقافة والإعلام من شد ثونها الخاصة
تفرض من خلالها أفكارها على الناس.

وهكذا تنتشر القيم الأبوية الطبقية ، الاقطاعية ، أو
القبلية ، أو الرأسمالية، أو الاشتراكية القائمة على الدكتورية
، أو التسلط البيروقراطي أو التستر تحت شعارات دينية
لفرض الطاعة لأول الأمر ، والولاء للملك أو الحاكم
، ووضع الحجاب على العقول والرؤوس واعتبار المعارض
للسلطة خارجاً على القانون أو مسيئاً للوطن، وفرض
سيطرة الرجل داخل الاسرة على النساء والأبناء والبنات.

٨- الحقوق المدنية ومشكلة التربية:

تتعاون السلطة المطلقة في الدولة مع السلطة المطلقة للرجل داخل العائلة على قتل أي مبادرة أو نشاط، أو حقوق للملايين من النساء والرجال والشباب.

ويعتبر النظام الطبقي الأبوي وما يفرزه من قيم وأفكار داخل الأسرة وخارجها معادياً للحقوق المدنية للنساء والشباب والأطفال ، لأنه يصادر حرياتهم ، ويخضعهم لسلطة الفرد الواحد أو الراي الواحد في الدولة ولسلطة الأب المطلقة في البيت أو الزوج ، ويغرس فيهم منذ الطفولة مفهوم مركزية القرار والطاعة والخوف من الجدل ، وبالتالي يقضي على بذور الحرية أو الديمقراطية ، ويقتل فكرة الحقوق المدنية في مهدها ، فلا يمكن لمن تربي على الطاعة والخوف أن يمارس الجدل والشجاعة بقرار إداري.

ولهذا تتحول الديمقراطية في بلادنا العربية والحقائق المدنية إلى مجرد حبر على ورق ، أو كلام في الخطب تحت قبة البرلمان.

٩- بعض خصائص الثقافة العربية:

تتميز الثقافة العربية الشعبية المتوارثة عبر الأجيال شفهيًا بأنها أكثر إنسانية وأكثر مرونة وحرية من الثقافة المكتوبة في سجلات المؤسسات الرسمية والمدرسة الحكومية.

وفي الثقافة الشعبية الشفهية مفهوم للدين الإسلامي أكثر حرية وإنسانية من المفهوم الرسمي الحكومي الذي يدرس الدين للتلاميذ على أنه نصوص تحفظ عن ظهر قلب وطاعة ولا تقبل الجدل.

وتتسم الثقافة الرسمية بالجمود والثبات، لكن الثقافة الشعبية الشفهية متغيرة لأنها غير ثابتة في الكتب. ولأن الشعب العادي يستطيع دائماً أن يطور تفكيره وفقاً لاحتياجات حياته العملية المتغيرة، ولهذا فهو أكثر مرونة من حكامه.

وكانت جدتي لأبي امرأة ريفية فقيرة لا تعرف القراءة لم تذهب إلى المدرسة، ولم تقرأ القرآن، وكنت أسمعها تقول: ربنا هو العدل، وليس نصوصاً تتنازع على تفسيرها

المؤسسات الدينية والتيارات السياسية المتصارعة على
الحكم.

وتساعد الثقافة الشعبية على أن يكون كل رجل وكل
امرأة - وإن كانت لا تعرف القراءة ولا الكتابة - مشاركة في
إنتاج الثقافة. فالثقافة هي تبادل الرأي والخبرة والمعرفة
بشئون الحياة. وفي هذا المجال تتفوق الثقافة الشعبية ، لكن
هذه الثقافة الشفهية غير المكتوبة تفرض على الدوام، وتحل
محلها الثقافة الرسمية المكتوبة، المفروضة من أعلي بلا
حوار ولا جدال ، والتي تحول الاغلبية الساحقة من الرجال
والنساء إلى مستمعين فحسب أو متفرجين ، أو مسد تهلكين
للثقافة لا يشاركون في إنتاجها ، ولا يملكون وسائل المشاركة
فيها.

إن الثقافة العربية السائدة في معظم بلادنا لا تسود من
موقع التبادل في الرأي أو الحرية أو القدرة على الإقناع ، بل
من موقع القهر السياسي و الإقتصادي، واحتكار جميع أجهزة
الأعلام والثقافة.

وفي التراث الثقافي الإسلامي مدرستان. واحدة رسمية تفرض القيود على العقل، والأخرى معارضة تقاوم القيود وتتبنى الأفكار المرنة المتحررة مثل "لا أكره في الدين"، "ممن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر". وإذا تعارض النص مع المصلحة غلبت المصلحة على النص لأن النص ثابت والمصلحة متغيرة وأن الناس سواسية كأسنان المشط، وخلقناكم من نفس واحدة ذكر وأنثى، وإن الله العدل والحق وداخل كل إنسان قبس من روح الله، وإن كان امرأة فقيرة أو رجلاً أجيراً، والشريعة من وضع البشر، ومصدر القوانين العقل والمصلحة ليس الدين والإمامية عقد يتم برضاء الناس وينسخ بإرادتهم، والشريعة وري ملزمة وليست معلمة فحسب، والإنسان سيد نفسه وله عقل يرشده. ومقارعة الحجة بالحجة وليس بالسيف، والتعددية في الآراء ضرورة إن تتم أعلم بشئون دنياكم"، وكان الشيخ محمد عبده في بداية هذه القرن ينادي بالمجتمع المدني والحق وق المدنية للنساء والرجال.

لكن هذه المدرسة الثقافية حورت على الدوام من جانب المؤسسات الحاكمة في بلادنا العربية وطغت المدرسة

الدينية الرسمية التي فرضت الموت على المرتدين والكفرة
وقدست النص المكتوب لذاته واختارت من النص وص م ما
يلائم مصالحها وجعلت الحاكم مذ ذوب الله على الأرض
،وحارت التعددية والمعارضة والمبادرات الجماهيرية
للمشاركة في الحكم، وحرمت التجديد والإبداع ،ومن أبداع
فيينا فليس منا وكل بدعه ضلالة ونشرت الأفكار التي تشجع
القدرية والسلبية وترك الأمور لأولي الأمر ، باعتبار أن
الخير يأتي من فوق على شكل هبة أو منحة من الحاكم أو
علاوة ، والأرزاق بيد الله. يعطي من يشاء بغير حساب
،وبالتالي لا دور للناس في تحسين أوضاعهم الاقتصادية أو
المشاركة في الحكم لاعادة توزيع السلطة والثروة. وتشجيع
فكرة إذا بليت فاستتروا ،واستخدامها في غير موضعها، من
أجل تشجيع أخفاء العيوب والانغلاق على النفس وعدم إباحة
المكاشفة أو الصراحة أو النقد للأخطاء وخاصة أحكام
الحكام.

١٠-الازدواجية وفصل السلطة عن المسؤولية:

تحرّم الثقافة العربية الرسمية الكشف عن اخطاء الحاكم او نقده في حياته وبعد موته أيضا اذكروا محاسن موتاكم، ولا داعي لنش القبور. وهكذا يعيش الحاكم ويموت دون أن يحاسبه الناس على اخطائه.

والمفروض أن المسؤولية تزداد بازدياد السلطة ، لكن العكس هو الصحيح في بلادنا العربية إذ تقل المسؤولية بازدياد السلطة حتي تتعدم المحاسبة تماماً عند القمة حيث يتربع الحاكم على العرش ، فلا يمكن لاحد أو هيئمة أن تحاسبه على الخطأ بل تخفي الاخطاء تحت وابل من التبريرات ، فإن فشلت وانكشف الخطأ تحت وطأة الأزمة الاقتصادية أو الهزيمة العسكرية يقدم كبش فداء يتلقى العقاب.

وقد روجت الثقافة الرسمية في بلادنا لكلمة " الفداء " وكنا في طفولتنا نغني كل صباح للملك المفدي ، واذ درجت في مدارسنا كلمة " الولاء " والطاعة " ضمن الفضائل، مع انها بعض الكلمات المتوارثة من انظم العبودية والاقطاعية حين كان العبد أو الاجير يذبح ويقدم قرباناً لصاحب الأرض ، أو فدية للملك ، وكلها موروثات العصور العبودية التي قلبت

القيم الإنسانية الطبيعية رأساً على عقب، واندرجت النساء مع
البقر مع العبيد في قائمة الأشياء وليس البشر ، واصلت
العبودية مرادفة لكلمة الولاء والاسد تكانة لا ذل فضيلة،
ومحاربة إصلاح الحكم رزيلة أو شذوذ أنواع من الجنون.
وأصبحت المعرفة إثماً يعاقب على ه الإنسان ان كما
عوقبت حواء في العصر العبودي الأول حين مدت يدها إلى
شجرة المعرفة.

١١- التيارات الدينية المتطرفة:

بالرغم من أن الثقافة الإسلامية في أصولها الأولى لا
تعرف شيئاً عن شجرة المعرفة فالقرآن لم يذكر في قصة آدم
إلا كلمة الشجرة فقط دون أن يسميها. وقد حاول بعض
المفسرين الأوائل تخمين نوع الشجرة، وقال بعضهم إنها
شجرة تين أو عنب أو فاكهة أخرى. لكن القرآن لم يذكر أنها
شجرة المعرفة كما جاء في التوراة. وبالتالي فإن تأثيم

المعرفة لم يعرف في التراث الاسلامي بمثل ما عرف في التراث المسيحي واليهودي.

لكن المشكلة ليست في الدين ، وإنما في الأنظمة السياسية والمؤسسات الحاكمة المستبدة التي تستخدم الدين وسيلة لتحريم المعرفة أو الوعي. وضرب القوى الشعبية المدنية أو السياسية الأخرى ، التي تحاول إعادة توزيع السلطة والثروة في البلاد بشكل أقل ظلماً وأجحافاً بالاعتمادية الساحقة من الناس.

لقد أدت المؤسسات الحاكمة المستبدة في بلادنا العربية بصفة عامة إلى هذه النتائج الستة:

- ١- مزيد من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
- ٢- ازدياد الهوة بين الاثرياء والفقراء.
- ٣- مزيد من التبعية للقوى الاستعمارية الغربية.
- ٤- مزيد من التيارات الدينية المتطرفة.
- ٥- مزيد من الشعارات عن الديمقراطية والحقوق السياسية والمدنية وحقوق الإنسان.

وهذه النتائج الست مترابطة كالحلقات في سلسلة واحدة. وقد يحدث التناقض بين الواحدية والأخرى، كالتناقض الذي يحدث أحياناً بين المؤسسات الحاكمة والتيارات الدينية المتطرفة أو المعتدلة نسبياً، تحاول كل منها ضرب الأخرى. إلا أنها قد رأت مؤقتة حين تتعاضد المصالح، وسرعان ما يعنود التعاون علناً أو سراً، ذلك أن العوامل التي تجمعها أكثر من العوالم التي تفرقها، وعلى رأسها الميل للاستبداد بالرأي ومركزية السلطة وقدسية الحاكم أو الأمير، وسيطرة فرد على الجماعة، وإخضاع النساء للذكور في الأسرة.

١٢- ملاحظة أخيرة:

في ختام هذه الورقة عادت إلى صورة مدير الأمن الذي ابتسم في وجهي على غير العادة ذات صباح، واخذ يشكو من سلبية الشعب، وعدم تحركه للتعاون مع الحركة في حل المشاكل والأزمات الاقتصادية والاجتماعية الملحة. ومنه ما مشكلة الفتنة الطائفية وانتشار التيارات الدينية المتطرفة وقال لي بالحرف الواحد: خلاص الشعب مات.

وأدركت أن المؤسسات الحاكمة في بلادنا تريد من الشعب أن يتحرك ويحل المشاكل التي عجزت عنه حلها. لكنها في الوقت نفسه تخشى إن تحرك الشعب ألا يكفي لحل المشاكل فحسب ، ولكنه يحاول القضاء على اسباب هذه المشاكل. وأولها هذه المؤسسات الحاكمة ذاتها.

ومن هنا ذلك التناقض بين الشعارات المرفوعة عن الديمقراطية والحقوق المدنية وتشجيع مادة الجماهيرية ، وتلك القيود المكتوبة وغير المكتوبة التي تفيد حركة الجماهير.

وتذكرت أن بعد أحداث الفتنة الطائفية في أبي قرقاص منذ عامين أن اجتمع في مقر تضامن المرأة ما يزيد عن المائة وخمسين من المثقفين في مصر ، رجلاً ونساءً مسلمين وأقباطاً وشرعنا في تكوين جمعية لمحاربة الفتنة الطائفية سمينها جميع الوحدة الوطنية.

لكن وزارة الشؤون الاجتماعية رفضت إشهار هذه الجمعية وتعرض بعض أعضائها الذين نشطوا لمطاردة رجال الأمن.

كنت أنوي إنهاء الورقة عند هذه النقطة. لولا أنني
تذكرت الابتسامة التي رأيتهَا ذلك الصباح على وجهه مديراً
الأمن. لقد أدركت بعد أن تأملتها أكثر أنها كانت ابتسامة
متناقضة، لم تشمل إلا بعض عضلات الفم، لكن ملامح
الوجه كانت جامدة. وصوته كان أشد جموداً وهو يقرئ
بغضب: خلاص الشعب مات!

وكانما الشعب هو المسئول عن موت نفسه، أو كأنما
أنا المسئولة عن موت الشعب وليس هو، أو المؤسسة
الحاكمة!

المرأة في الالفية الجديدة

١- وجهان لنظام عالمي واحد:

تتحكم القوة الدولية الرأسمالية الأبوية في حياتنا من خلال حكوماتنا المحلية التي تبطش بنا في أي وقت نمثل فيه خطورة على ها أو على استقرار النظام الحاكم. إننا نعيش في أمان نسبي أو في خطورة نسبية حسب قدرتنا على تغيير النظام الحاكم. ولا يمكن فصل النظام الدولي عن المحلي، ولا يمكن فصل ما سمي العالم الأول عما سمي العامل الثالث، فنحن نعيش في عالم واحد يتحكم فيه سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ٤٧ رجالاً يملكون أكثر مما يملكه نصف سكان العالم.

أصبحت قلة قليلة من الرجال يعيش معظمهم في الولايات المتحدة الأمريكية يملكون ويتحكمون في المال والسلاح والاعلام هذا الثلاث القادر على قتل البشر جسدياً وعقلياً ونفسياً. ويتضاعف نصيب النساء والفقراء من هذا

القتل الجماعي الذي نشهده كل يوم. خاصة في بلادنا الإفريقية والعربية.

أن القوة هي التي تحكم دولياً ومحلياً وليس العادل، وليس الله - إن كان مفهوم الله هو العدل - لكن الحكام في عصر العولمة الحديث أو ما بعد الحديث لا يمكن أن يستمروا في الحكم دون الاستعانة بالله أو الأديان، حتى تظل الأغلبية من النساء والرجال المقهورين أن هذا القهر. وهما ذا الفقر وهذا الموت إنما هو حكم الله أو إرادة الله وليس إرادة حفنة قليلة من الملياردارت الأمريكية والأوروبيين.

إن هذه الظاهرة التي يسمونها العولمة، والتي توصف بأنها جديدة ليست جديدة بل هي جزء من التاريخ البشري منذ نشوء الاستعمار، أو بلغة أصح "الاستعمار" وكلمة الاستعمار مضللة لأنها مشتقة من الفعل يستعمر، أو ما يؤدي إلى العمار أو العمران، وفي حين أن الكلمة الملائمة هي "الاستخراب" لأن الاستعمار الأوروبي والأمريكي القديم والجديد قد جلب الفقر والخراب لبلادنا الأفريقية والعربية وليس العمار.

لكنها اللغة المضللة التي يستخدمها الغزاة دائماً حتي لا يكشف أهل البلاد الخدعة ويتصورون أن هؤلاء الغزاة قد جاءوا لحمايتهم وليس لتدميرهم.

جاء الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ باسم "الحماية" وتضرب الصواخري الأمريكية وقد تم تدمير قوة الشعب العراقي مادياً ونفسياً منذ حرب الخليج عام ١٩٩١ ، وتم هذا التدمير تحت اسم تحرير الكويت ، في حين أنه لم يكن هدفه سوى اغتصاب البترول ، واحتلال بلاد الخليج عسكرياً واقتصادياً.

هل يتغير الاستعمار الجديد (الاستخرا ب الجديد) في القرن الواحد والعشرين عنه في القرن العشرين؟ ربما ما يكتسب مهارات خداعية أكبر وقدرات عسكرية وإعلامية أكبر مع التقدم المطرد في تكنولوجيا السلاح والإعلام. ربما يحتاج أكثر إلى الله والأديان والروحانيات حتي لا يدرك النساء والرجال ما يحدث لهم من كوارث اقتصادية وعسكرية.

لهذا لا أتوقع شيئاً إيجابياً من القوي الاستعمارية في العالم ومؤسساتها الاقتصادية مثل الشركات المتعددة

الجنسيات أو البنك الدولي أو صندوق النقد، أو تلك الاتفاقات الدولية التي تتم تحت أسماء خادعة مثل التنمية أو التعاون أو الإصلاح الاقتصادي أو الإصلاح الهيكلي ، بل أتوقع مزيداً من الكوارث والحروب الاقتصادية والعسكرية ومزيداً من الدمار الشامل والإبادة الجماعية للفقراء والضعفاء من النساء والأطفال والعجائز في بلادنا خاصة.

لكن ادرك أيضاً أن العنف يولد العنف ، وأن ليس من السهل قتل البشر دون أن يهبوا للدفاع عن انفسهم وقد أدرك الناس في بلادنا أن العدو أصبح عالمياً ومحلياً وان النضال لابد وان يكون عالمياً ومحلياً أيضاً.

لم يعد العالمي منفصلاً عن المحلي وهذه واحدة من الايجابيات ، اصبحنا نعيش في عالم واحد، بل في قرية واحدة بفضل التطور التكنولوجي الهائل لوسائل الاتصال.

ويمكن لسكان هذه القرية في الشمال والجنوب والشرق والغرب أن يتواصلوا ويتجمعوا وينظموا صفوفهم من أجل النضال ضد الظلم والجوع والموت.

ربما لهذا السبب أشعر بالتفاؤل رغم الردة التي نعيشها في كافة مجالات الحياة. رغم هذا الفقر الذي يصيب النساء

أكثر من الرجال، حتي أصبح اصطلاح "تأنيث الفقر" كأنه ما هو سمة عصر العولمة ما بعد الحديث.

مع ازدياد نسبة البطالة تطرد النساء من سوق العمل قبل الرجال، خاصة مجالات العمل ذات الأجور المرتفعة، والتي تتطلب مهارات خاصة، أما الأعمال الدنيا ذات الأجور المنخفضة، والتي لا تتوفر فيها أية ضمانات نقابية أو صحية أو قانونية فإن أعداد النساء تزداد فيها عن الرجال، كذلك الأعمال التي بلا أجر على الإطلاق مثل الأعمال المنزلية فتقوم بها النساء اللاتي يحملن لقب زوجة أو ربّة بيت أو أم، هذه الفئة من النساء يتعرضن لاضطهاد اقتصادي أكثر من خدم وخادمات البيوت الذين يتقاضون أجوراً على أعمالهم.

في مصر أصبحت أجور الخدم في البيوت اعطى من الأجور التي يحصل عليها خريجوا الجامعات والمعاهد العليا. لقد زادت البطالة بين حاملي الشهادات العليا.

وفقد التعليم الجامعي قيمته في ظل قيم السوق والتجارة والمكسب المالي السريع أو تراكم رأس المال، ولأن السوق هي عصب النظام الرأسمالي أو عصر العولمة فإن تشجيع

الاستهلاك مطلوب لتصريف البضائع ،ويلعب الأعلام دوره
التضليل لتصبح النساء أدوات استهلاكية لشراء منتجات لا
يحتجن إليها منها ادوات الزينة والتجميل والزخرفة ويتزايد
الفهم المفرط بين الطبقات الوسطي العليا في الأكل والملابس
والجنس والمكيفات والسدجائر والخمور والمخدرات
والمنبهات.

لحم ينتبه له علماء الاقتصاد ومنهم الماركسيون
والاشتراكيون إلى دور النساء في الأعمال خارج نطاق
العمل الرسمي مثل الفلاحين وربات البيوت، ولم يكن كافياً
إضافة هؤلاء النساء إلى قوة العمل المنتج، بل لابد من تغيير
مفهوم العمل، وإلغاء فكرة تقسيم العمل على أساس الجنس.
إن التقدم التكنولوجي قد ساعد على خلق أنواع جديدة
من العمل الإنتاجي الذي يتم داخل البيوت ، أصبحت المرأة
ربة البيت قادرة على كسب بعض المال من عملها الإنتاجي
دون أن تخرج من بيتها. وسوف يساعد هذا التغيير على
تسهيل الحياة نسبياً خاصة للأسر المهاجرة والطبقات الفقيرة.
إلا أن الهوة بين الطبقات تزداد ما تزداد التفرقة بين
الجنسين ،ومع ازدياد الفقر وازدياد تصاعد التيارات الدينية

المحافظة اصحبت المرأة ضد حية التمزق بين تيارين متضادين في الظاهر فقط لكنهما وجهان لنظام واحد، التيارات الدينية الذي يدفعها إلى التحجب والعزلة في البيوت والتيارات الاستهلاكية الانفتاحي الذي يدفعها إلى الشهوة والمتعة والجنس والتزين. بل والدعارة أيضاً.

إن انتشار الدعارة والتجارة بالجنس والنساء (خاصة الفتيات والشابات الصغيرات) قد أصبحت ظاهرة عالمية وعملية واضحة وسافرة أو مستترة تحت انواع جديدة من الزواج التي انتشرت في بلادنا في السنين الأخيرة، مثل الزواج العرفي وزواج المسيار وغيرهما.

ترتكز العولمة والسوق الدولية في مكاسد بها على التجارة في السلاح والدعارة والمخدرات وأدوات الزينة ووسائل الترفية والأعلام والأقلام القائمة على الجنس والجريمة. كما تركز على الأزواجية والكيل بمكيالين في كل شيء. سواء كان في السياسة الدولية أو في الحياة الجنسية الخاصة داخل الأسرة، لهذا السبب يحتاج نظام العولمة ما بعد الحديث إلى الأديان، إذ تركز الأديان على الأزواجية

نفسها التي تركز على ها العولمة ،فهناك مقاييس اخلاقية واجتماعية واقتصادية وقانونية خاصة بالرجال ومقاييس اخرى خاصة النساء وهناك تفرقة بين الناس على اساس الطبقة وتأكيد على أن الله خلق الناس درجات وطبقات بعضها فوق بعض ،وجعل الرجال قوامين على النساء.

تتغلغل القيم الطبقيّة الابوية في صلب الأديان وفي صلب النظام العالمي والمحلي، وليس هناك ما يدل على حدوث تغيير كبير في القرن القادم ، ما لم تنهض النساء للدفاع عن حقوقهم وتنظيم انفسهم محلياً ودولياً.

لقد خرجت حركات تحرير المرأة في بلادنا وفي معظم بلاد العالم بسبب ما حدث من ردة اقتصادية وثقافية وإعلامية. ولم تعد الاغلال والقيود مرئية ،بل أصبحت داخل عقل الإنسان المرأة أو الرجل بسبب عمليات تزييف الوعي المستمرة من خلال اجهزة التعليم والاعلام.

٢- مشكلة الاعلام والتعليم:

في مصر تمتلك الحكومة أجهزة الاعلام بالكاميرا ، خاصة الراديو والتلفزيون.

معظم الصحف الكبرى تملكها الحكومة أيضاً. هذا
بعض صحف معارضة إلا أنها معارضة في نطاق محدود
إن خرجت عنه فهي مهددة بالاعلاق. كما حدث لمجالتنا
"نون" التي كانت تصدر عن جمعيتنا التي أغلقتها الحكومة
عام ١٩٩١ بسبب معارضتنا لحرب الخليج، ولأننا انتهجنا
سياسة نسائية تحريرية تختلف عن سياسة الحكومة.

لقد سيطر الاعلام الأمريكي على كثير من بلاد العالم
،منها بلادنا العربية والافريقية. يلعب الاعلام الرسمي في
بلادنا الدور نفسه في تلهية الناس عن مشاكلهم الحقيقية.
وكم ينشغل الناس في بلادنا بالحكايات الجنسية التافهة
للرؤساء والأميرات والأمراء. لقد طغت أخبار الأميرة ديانا
والحكايات عن كلينتون ومونيكا على أخبار الشعوب التي
تقتل بالآلاف في بلادنا بسبب الحروب العسكرية والاقتصادية
المستمرة.

وقد أصبح الاعلام الرسمي في بلادنا يشجع الفكر
الديني المحافظ منذ السبعينيات وحتى اليوم. أصبح نجوم
التلفزيون من رجال الدين، والمشايخ الذين يروجون الدعوة
إلى تحجب النساء. رغم إغراق الناس بالاعلانات الجنسية

الفاضة لترويج البضائع الاجنبية أو المنتجة محلياً تحت سيطرة الشركات المتعددة الجنسيات.

ويلعب الإعلام الأمريكي والدولي دوره لمساندة الـ ردة الدينية والسياسية التي تخدم مصالح السوق والعولمة وتضرب بمصالح النساء والرجال من الشعوب خاصة في بلاد الجنوب أو بلادنا.

في جريدة لوس أنجلوس تـ ايمز (الصـ ادارة هـ ينـ اير ١٩٩٩) نشر موضوع يدعم المدارس الخاصة للبنات التي انشأتها الحكومة في بلادنا مؤخراً. أبـ رزت الجريدة رأي المسؤولين في وزارة التعليم. ومنهم من أعلن أن البنات في هذه المدارس الجديدة يتلقين دروساً مضيئة تتمشي مع دور المرأة في الحياة، ومنها تنظيم الأسرة والصحة والنظافة والحفاظ على البيئة ومنع ختان الإناث والخياطة والطبخ وحفظ الأطعمة.. الخ، وأن تدريس هذه المواد للتلميذات يعتبر خطوة متقدمة حسب قول الجريدة:

"it has helped to mould a good citizen who can be the mother of future generation of Egyptian"

هكذا تحدث الردة التعليمية وتكريس فكرة تقسيم العمل على أساس الجنس تحت اسم "الامومة".

رغم هذا التمجيد الخادع للأمومة فإن حقوق الأم أصبحت تتناقص حتي في وزارة التعليم ذاتها، وفي مايو ١٩٩٨ أصدرت هذه الوزارة قرارها رقم ٢٤٢ بحرمات الأمهات من حق عضوية الجمعية العمومية لأولياء أمور التلاميذ والتلميذات في المدارس القومية، وأصبح هذا الحق قاصراً فقط على الآباء بعد أن كان يشمل الآباء والأمهات معاً.

إلا أن الجريدة الأمريكية لم تذكر شيئاً عن هذا بل راحت تمجد فكرة تدريس مواد خاصة للبنات تحت اسم "الامومة" وتؤيد فكرة إنشاء مدارس خاصة للتلميذات بحجة أن الآباء يرفضون إرسال بناتهم إلى المدارس العادية خوفاً من الاختلاط.

لكن حسب الإحصاءات الرسمية في مصر فإن نسبة البنات في المدارس الحكومية المختلطة ٤٦ % من جملة عدد التلاميذ والتلميذات. ومن المعروف أن الاختلاط داخل المدارس لا يشكل خطورة على البنات بسبب الرقابة

المدرسية المستمرة. كما أن الاختلاط يحدث في الشوارع والمواصلات العامة والمجالات والأسواق وكل مكان.

إلا أن الأفكار المحافظة التي تشجع التفرقة بين الجنسية قد انتشرت منذ السبعينيات ، في ظل حكم السادات الذي شجع تصاعد القوة الدينية والسياسية والمحافظة لضرب القوي الناصرية والاشتراكية، وبدأت ظاهرة الحجاب تنتشر بين تلميذات المدارس والجامعات.

حين كنت تلميذة بالمدرسة الثانوية منذ نصف قرن (عام ١٩٤٨) لم يكن في مدرستي تلميذة واحدة ترتدي الحجاب أو تلف شعرها بإيشارب.

اليوم (في فبراير ١٩٩٩) إن تصادف مروري بمدرسة ثانوية للبنات أثناء خروج التلميذات فإني أرى مشهداً غريباً ، مئات أو آلاف التلميذات مرتديات الحجاب أو الإيشارب حول رؤوسهن.

تخدم العولمة والقوي الاستعمارية الجديدة هذه الاتجاهات المعادي لتحرير نصف المجتمع من النساء والمعادي أيضاً لتحرير النصف الآخر ، من الرجال إلا أن القيود على الرجال ليست مرئية مثل حجاب النساء، ذلك أن

"حجاب العقل " اشد خطورة ولا يري بالعين، كما أن تغيير السياسة الاقتصادية في البلاد وإخضاع الاقتصاد للمطامح لمصالح الاقتصاد العالمي وتعرض النساء له ذا الاسد تغلال أيضا مثل الرجال بالاضافة إلى الاستغلال الخاص الواقع إلى المرأة لمجرد أنها امرأة.

ضرب حركات النساء والفكر النسائي المتقدم:

لقد ضربت حركات النساء التحريرية في العالم ومنه ما الحركة النسائية الأمريكية خرجت اجيال جديدة من النساء يتكرن لحركة امهاتهن وجداتهن صدرت كتب باقلام نساء يمجدن الأمومة والعودة إلى دور المرأة الطبيعية لخدمة الأطفال والاسرة. وقد ترجمت بعض هذه الكتب إلى اللغة العربية في السنين الأخيرة ، رحب بها الرجال في بلادنا من العلماء وأطباء النفس، وما يطلق على هم المثقفون أشادوا بهؤلاء الكاتبات الأمريكيات الجديرات اللاتي عدن إلى الله والطبيعة الأنثوية بعد الانحراف عنها في الحركات النسوية المتطرفة الشاذة التي انتشرت خلال القرن العشرين.

وفي مصر فإن ٢٠% على الأقل من العائلات تعولها نساء. أي أن المرأة تقوم بالدورين معاً: الأمومة والأبوة، ولا احد يعترض على ذلك. بل تشجيع المرأة على الانفاق على الاسرة والعمل خارج البيت بأجر وبشرط ألا تقتصد رفاً في واجباتها المنزلية.

أكثر القوانين ظلماً للمرأة في بلادنا هو قانون الزواج، تتحول الزوجة في ظل هذا القانون إلى قاصر. يملك زوجها حق الولاية على ها حسب مبدأ الاحتباس ، أي للزوج الحق في حبس زوجته في المنزل. وعدم التصريح لها بالخروج إلى عملها أو السفر إلى خارج البلاد ، أو استخراج جواز سفر.

وقد أجاز القانون المصري للمرأة أن تعمل خارج البيت بإذن زوجها ، و برط ألا يؤدي عملها إلى تقصيرها في اداء واجباتها المنزلية ، ومنها رعاية شئون الزوج والبيت والأطفال.

علي هذا يمكن للمرأة المصرية أن تخرج للعمل بشرطين اثنين:

١- أن يسمح زوجها بذلك.

٢- أن تجمع بين عملها خارج البيت وعملها داخل البيت.

إلا أن الزوجة المصرية التي تعمل بأجر يمكنها أن تتحرر من قانون الاحتباس بالانفاق على نفسها وأطفالها والاستغناء عن نفقة الزوج ، لا ، القانون يعطي الرجال حق الاحتباس مقابل النفقة. كما يمكن للزوجة أن تطلق زوجها عن طريق مبدأ الخلع في القانون إن تنازلت عن حقها في النفقة ومؤخر الصداق. المشكلة التي يصعب حلها إذن تتعلق بالنساء اللاتي يعملن بدون أجر واللاتي يعشن حالة على أزواجهن وفي حاجة إلى نفقة. وبالتالي يشكل الطلاق بالنسبة لهن مشكلة اقتصادية واجتماعية. ولهذا تعيش معظم النساء الفقيرات. خاصة المسلمات منهن في خوف دائم من الطلاق. لا يزال الطلاق بالنسبة للزوج المسلم أمراً سهلاً، يكفي أن يقول لزوجته أنت طالق فإن طلاقه يقع. سواء جاءت عبارة الطلاق عبر أسلاك التليفون أو أرسها الزوج إلى زوجته في شريط كاسيت أو شريط فيديو، وبغض النظر عما إذا كان الزوج جاداً في إيقاع الطلاق أم هازلاً وذلك حسب

الحديث النبوي: " ثلاث جدهن جد وه زلهن جد النكاح والطلاق والعقاق".

نشرت هذه المعلومات في أكبر جريدة مصرية رسومية (الاهرام في ٢٠ نوفمبر ١٩٩٨) وبلسان المستشار مار ناء ب رئيس هئية قضايا الدولة.

إلا أن نضال النساء المصريات ضد هذه القوانين لا يزال مستمراً حتي اليوم - رغم العقبات التي توضع في طريقهن. وهناك مكاسب حققتها النساء عبر السنين وقد استطاعت قوة النساء الواعيات أن تخفف من وطأة الظلم الواقع على النساء خاصة الفقيرات منهن. اللاتي يتعرضن لمخاطر متعددة منها الاغتصاب الجنسي، وكانت الفتاة ضحية الاغتصاب هي التي تعاقب لأنها هي التي تفقد غشاء البكارة أو الشرف أما الرجل فهو لاي فقد شيئاً لان ليس له غشاء بكارة.

بعد نضال طويل ضد هذا المفهوم القاصر للشرف بدأت السلطة السياسية والدينية في مصر تغيير موقفهما لتحمي هؤلاء الضحايا من الفتيات، خاصة بعد أن تزايد عددهن في

السنين الاخيرة مع تزايد الفقر والبطالة وعدم قدرة اغلب الشباب على الزواج أو تأسيس أسرة وبيت.

لقد اصدر مفتي الديار المصرية مؤخراً بعض الفتاوى لصالح ضحايا الاغتصاب منها حق الفتاة الحامل منهن في الاجهاض (قبل أن يكمل الجنين ١٢٠ يوماً داخل الرحم) والغاء المادة ٢٩١ من قانون العقوبات التي كانت تطلق سراح المغتصب وتسقط عنه التهمة نهائياً إذا تزوج من الضحية.

ولا تزال الضغوط النسائية مستمرة لانتزاع الحق من المسلوبة منهن ومنها عدم حق الأم المصرية في اعطاء اسمها او جنسيتها لاطفالها وعدم احقية المرأة في تولي منصب القاضي، وولاية الزوج على زوجته وغير ذلك من الأمور.

إلا أن القوي السياسية والدينية المسيطرة تضع العقبات امام حركات تحرير المرأة في بلادنا وتوجه إليها الضربات الواضحة أو المستترة.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية أصابت الردة النسائية أيضاً بسبب تصاعد القوي المسيحية المحافظة.

ملخص لورقة عن المرأة في الالفية الجديدة ٢٠٠٢

١- الفتاة الفلسطينية التي تتحدى الحكومات

العربية

قرأت أسمها في الصحف الصادرة في نيويورك يوم ٣٠ مارس ٢٠٠٢ وصورتها التي ذكرتني بالملاح العريقة الجذابة والعينين السوداوين الخارقتين في قوتهم المعاقلة الكذب الدولي والعربي، ونفاد الحكومات في الغرب والشرق، اسمها كما قرأتها بالانجليزية آيات أو حياة الأخرس. عمرها ثمانية عشر عاماً. فجرت نفسها يوم قتلت معها اثنتين فقط من الجنود الاسرائيليين (أو ربما اثنتين من المدنيين في السوق في مدينة القدس، وجرح ثلاثون شخصاً كما قالت الصحف الأمريكية.

وكنت مثلما تماماً، رغم أنني أعيش هذه الأيام في نيويورك وليس فلسطين لكني أحلم كل ليلة أنني فجرت نفسي في معقل الجيش الاسرائيلي وقتلت معي الجيش كله ولايس اثنتين فقط.

ويعلم جورج بوش واعوانه أن هذا هو الاله اب الفلسطيني الذي يفسده مسيرة السلام وأي سيرة وأي سلام

أيها القتل في إسرائيل وأمريكا؟ أهو سلام الس يد ش مارون
القائم على الظلم واحتلال الأراضي وأقامة المس توطنات؟
أهو السلام المبني على اباداة الشعب الفلسطيني حتي يتحول
إلى حفنة من اللاجئين الخاضعين لمنطق القوة العسكرية
الباطشة؟

أليس الموت افضل من الأهانة المتكررة كل يوم كل
ساعة كل دقيقة؟ إلا يفعل ياسر عرفات وغيره من القيادات
العربية ما فعلته آيات أو حياة الاخ رس؟ أن يلف واحد
اجسادهم المفرقات ويموتون فداء الوطن بدلاً من إدلاء
الخطب والبيانات؟ بدلاً من ضد رب الش باب والش بابات
العربيات اللائي يرغبن في السفر إلى رام الله وتفجير أنفسهن
هناك في مواجهة الجيش الإسرائيلي!

لو أن الحكومات العربية بما فيها الحكومة المصرية
فتحت أبوابها ليخرج الشباب والشابات إلى فلسطين للدفاع
عنها ضد الدبابات الإسرائيلية؟

وقد تركت حياة الأخرس شريط تسجيل تقول فيه: أيتها
القيادات العربية أتواصلون الفرجة على نا ونح بن النساء
نقاوم العدوان الإسرائيلي؟ ألا تخجلون؟
حين تصل الثورة الشعبية إلى النساء والبيانات فلا بد أن
ينتصر العشب على اقوي قوة في العالم وإن كانت نووية!

٢- أوقفوا مسيرة القتل والموت

وتغلي الدماء في عروقي إلى حد الانفجار ، أكاد انفجر
أو أخف قنبلة طائرة والقي بها فوق رأس هؤلاء الذين يقبلون
الأوضاع ، الذين يتعاملون مع ن احليقة الواقعة الذين
يصرحون في الصحف الأمريكية أن مشكلة العنف والدماء
المراقبة كل يوم في الأرض المحتلة وقطاع غزة تقع على
عائق الفلسطينيين ، أما إسرائيل الدولة المحتلة التي تدل
البيوت وتقتل الشباب والنساء والأطفال بالدبابات فهي بريئة
لأنها تدافع عن نفسها في مواجهة الإرهاب الفلسطيني! ليس
هذا هو الكذب أو الجنون؟!

ويقعد الطلبة والطالبات اجتماعهم في اللجنة الثورية
ضد الحرب ، يصرخ أحدهم غضباً وهو شاب أمريكي اسمه "جون":

يا زملائي ما جدوي هذه الاجتماعات والخطب
الثورية ضد الحرب، جيش الاحتلال في إسرائيل يهدم
البيوت بالدبابات ويقتل النساء والأطفال والشباب وحكومتنا
الأمريكية برئاسة جورج بوش تلقي اللوح على الفلسطينيين
أنهم يلومون الضحية أيها الزملاء والزميلات ، لانهم خائفون

من " اللوبي اليهودي " هنا في نيويورك وفي جميع الولايات الأمريكية، إنهم حريصون على " أصوات اليه ود " في " الانتخابات " ولهذا يقبلون الحقائق ويكذبون، ونحن نشد أركانهم هذه الجريمة ، هذه المؤامرة لإبادة الشعب الفلسطيني صاحب الأرض وصاحب الحق في دولة مستقلة حرة مثل غيره من الشعوب ، ما جدوي هذه الاجتماعات والخطب والكلام؟ على نا أن نفعل شيئاً!

وصاح طالب من الصفوف الخلفية يرتدي الكوفية الفلسطينية:

-وماذا نفعل يا زميل؟ قل لنا ماذا نفعل ونحن نفعله الآن؟
-علينا أن نسافر إلى فلسطين.نسافر إلى رام الله أيها الزملاء ، كما سافر إليها ستمائة شاب من فرنسا من الفلاحين والعمال والطلبة ، ذهبوا إلى رام الله ليواجهوا الدبابات الإسرائيلية بأجسادهم، ويناضلون مع الاطفال الفلسطينيين ضد الاحتلال الاجنبي والاستعمار ، هيا أيها الش باب الأمريكي ،تحركوا إلى رام الله!

وصاح طالب آخر واسمه "جورج" وهو طالب عندهم في فصل الابداع والتمرد:

-ولماذا نسافر إلى رام الله يا زميل ،وليس معنا سد ملاح
ولا دبابات ولا قنابل ولا طائرات حربية ، الافضل أن نجمع
انفسنا بالآلاف ونحاصر البيت الابيض في وشنطن هنا في
بلدنا ، أن حكومتنا في وشنطن هي التي تدارب الشعب
الفلسطيني،وهي التي تشجع إسرائيل على إبادة هذا الشعب
الذي عاني الولايات منذ تأمر الاستعمار البريطاني والفرنسي
والامريكي على هذا الشعب الفلسطيني في بداية القرن
العشرين ،اقاموا دولة دينية عنصرية هي إسرائيل ،انا من
اصل يهودي ايا الزملاء والزميلات ،وقد هاجر جدي من
المانيا النازية بسبب العنصرية ،ولهذا ارفض أي دولة
عنصرية قائمة على الدين أو العرق أو أي عنصر آخر ،
علىنا أن نجمع ألف طالب وطالبة ، ونركب القطار إلى
وشنطن ونحاصر البيت الأبيض!

وبدأت لجنة الطلبة ضد الحرب توزع علىنا الإعلالان
عن المظاهرة الكبيرة في وشنطن يوم ٢٠ إبريل القادم،
ستبدأ المظاهرة الساعة العاشرة والنصف صباحاً في قاعة
مسرح سيلفان، على الجانب الجنوبي الغربي لتمثال وشنطن
التذكاري ، سيبدأ الاجتماع الساعة الحادية عشرة صباحاً ثم

تتحرك المظاهرة الساعة الواحدة بعد الظهر إلى الكابيتول
مركز الحكومة.

ينظم المظاهرة عدد من المنظمات الشبانية والعمالية
والنسائية في نيويورك وغيرها من المدن منها:

- الجبهة الطلابية من أجل السلام القائم على العدل.
- الجبهة العمالية ضد الحرب.
- جبهة النساء الاشتراكيات الراديكاليات.
- حزب الخضر في الولايات المتحدة الأمريكية.
- جماعة الشباب من أجل عدالة عالمية.
- رابطة الشباب الاشتراكي الديمقراطي.
- جمعية الطبقة العاملة في مدينة نيويورك المناهضة للحرب.
- جبهة الطلبة المسلمين.
- جبهة الشباب المناهضين لتلوث البيئة.
- الشبكة الدولية ضد الأسلحة النووية.
- جبهة نيويورك ونيوجيرسي من أجل عالم عادل ديمقراطي.
- الاتحاد الدولي ضد العولمة والمؤسسات الرأسمالية.
- الرابطة النسائية الدولية من أجل السلام والحرية والعدل.

ولا يتسع المجال لذكر الهيئات الأمريكية والدولية المشاركة في هذه المظاهرة في واشنطن (يوم ٢٠ إبريل ٢٠٠٢) لإيقاف الحرب داخل أمريكا وخارجها، في أفغانستان، وفلسطين، والعراق، والصومال، وكوريا، وغيرها وغيرها من الحروب في جميع أنحاء العالم، ومن أجل ماذا كل هذه الحروب؟ من أجل جشع حفنة من التجار في الشركات الرأسمالية ومنظمة التجارة العالمية التجارة العالمية والبنك الدولي؟!!

في مظاهرة واشنطن ٢٠ إبريل ٢٠٠٢ سنطالب الحكومة الأمريكية بالآتي:

- ١- إيقاف حرب "بوش" داخل أمريكا وخارجها.
- ٢- توجيه الأموال التي ندفعها من عرقنا (عطي شئ كل ضرائب) لإصلاح حال التعليم والصحة والسكن وتوفير فرص العمل للعاطلين وليس للحرب والسلاح.
- ٣- إيقاف صرف أموالنا الموجهة للتسليح والحروب والبحوث العسكرية.

٤- إيقاف الاضطهاد العنصري داخل امريكا وخارجها ما
تحت اسم الدين أو اللون أو العرق أو الجنسية أو
الجنس أو غيرها.

٥- الدفاع عن حقوق المهاجرين ومساواتهم بـ الآخرين
في الحقوق والواجبات ، وتعديل القوانين لتحقيق
العدالة بين المهاجرين والسكان الأصليين.

٦- المساواة بين المواطنين جميعاً. بصرف النظر عن
الجنس أو اللون أو العرق أو العقيدة أو الدين ،
وتحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية
والجنسية لجميع الأفراد دون أي تفرقة بينهم.

٧- إيقاف الأموال التي توجهها إدارة جورج بوش لتدعيم
الأديان باختلاف أشكالها في المدارس والكليات
والجوامع وفصل الدين عن الدولة في كل شيء.

٨- إلغاء التعليم الديني في المدارس العامة والخاصة،
بحيث ينشأ الأطفال بروح انسانية عالية خالية من
التعصب والعنصرية.

وينشط الطلبة والطالبات في توزيع هذا الاعلان من
المسيرة الكبيرة في واشنطن ،وتسألني أحدي طالباتي في

فصل الابداع الروائي واسمها " كاترين ": هل تشاركين معذرا
في مظاهرة وشنطن يا دكتور ساداوي؟ وقلت لها: نعم بالطبع
سأكون معكم في مسيتر وشنطن يوم ٢٠ إبريل القادم،
سأغادر بالقطار محطة نيو جيرسي ("نيويورك") للسكك
الحديدية) صباح يوم ١٧ إبريل ، لأشترك في المحكمة
الشعبية الدولية للديون التي تعقد في وشنطن يوم ١٨ إبريل
٢٠٠٢ وهي الجلسة النهائية لهذه المحكمة التي قررنا عقدها
في ختام اجتماعاتنا في "بورت أليجري" بالبرازيل يوم ٢
فبراير ٢٠٠٢ ، بعد أن اخطرنا المتهمين (البنك الدولي
ومنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي والحكومات
المساندة لهم) بقرار هيئة المحلفين ضد سياساتهم الاقتصادية
التي تسبب الديون الخارجية للبلاد الفقيرة في آسيا وأفريقيا
 وأمريكا اللاتينية ، كما تسبب الحروب العسكرية أيضا من
أجل الاستغلال الاقتصادي ونزف موارد الشعوب الطبيعية
وقالت كاترين: هل يمكنني أن أشهد هذه الجلسة؟

قلت لها: بالطبع، يمكنك الحضور

وسألتني: وما دورك في هذه المحكمة؟

قلت: أنا واحدة من القضاة الستة الذين تم اختيارهم من شعوب العالم للحكم بشأن مشكلة الديون الخارجية التي تتراكم على كاهل البلاد الفقيرة فيما يسمى على "الاسباب" التي تؤدي إلى وجود هذه الديون ،وعلي راسها النظام التجاري العالمي القائم على القوة العسكرية ، تحدث اسم حرية التجارة، أو حرية السوق ، أنه ما حرية الأقوياء بطش بالاضعف ،وليست الحرية القائمة على العدالة بين الدول أو الأفراد والجماعات.

٣-قاعة برخت الثورية

وفي قاعة " بريخت " يتجمع النساء والرجال من احياء
نيويورك الفقيرة من بروكلين،وهم مارلم،وكوونبير، و
البرونكس،ومن مانهاتن السفلي حيث حكام مركز التجارة
الدولية وما يسمى اليوم " الأرض زيزو" ومن مانهاتن العليا
أيضا حيث انتشر الفقر بين سكان المدينة كلها في الاجزاء
العليا والسفلي من نيويورك. لقد هرب الاثرياء بأموالهم من
مدينة نيويورك إلى الضواحي الهادئة الخالية من تلوث الهواء
فيما وراء نهر هدسون والنهر الشرقي بعيدا عن مظاهرات
الشباب والسود والنساء والصفراء والحر وغيرهم وغيرهم،
تضاعف اعداد الفقراء والفقيرات في نيويورك وتناقص عدد
الاثرياء فالاموال الرأسمالية تتركز أكثر وأكثر في ايدي
الأقل فالأقل من الأفراد والشركات.

وفي قاعة بريخت في الدور العاشر من الشارع رقم
٢٧ في مانهاتن السفلي جلست استمع إلى الفتاة الأمريكية
وهي تعز الجيتار وتغني ضد الحرب وضد الفقر والبطالة
والعنصرية اسمها " شارلين ليهي (Sharleen Leahey)

فتاة بيضاء شابة طويلة القامة نحيفة الجسم تحتضن الجيتار
كالأم تحتضن طفلها الحبيب وتغني من كلماتها والحانها اغنية
اسمها " اختاروا السلام القائم على العدل " ومن بعض ابياتها
الاتي:

- تشجعوا يا رفاقي لمقاومة الحرب والعدوان.
- لمقاومة قتل الابرياء والاطفال من فلسطين إلى العراق
والارجنتين والبرازيل.
- من شوارع نيويورك إلى شوارع واشنطن.دي.سي.
- نحن الطلاب والطالبات ، والمدارسون وعمال المطافئ
والراهبات في الكنائس.والخدومات والعملات في
المصانع والمطاعم.
- نحن نمشي في الشوارع نحمل اللافتات والاحلام.
- نحن نحلم بعالم آخر يبني على العدل وليس الجشع.
- ونحن نقول لهؤلاء في مركزه القوة والمال والسلاح!
- اطفئوا اجهزة الراديو والتفزيون والاعلام!
- استمعوا إلى الاصوات الأخرى غير اصواتكم.
- الصمت هو الموت.
- الآن لابد للحق أن ينطق.

- في شوارع نيويورك يموت الآلاف.
- بسبب الفقر والبطالة والمخدرات والحزن.
- ونحن نقول لكم يا من لا تكونون عن الجشع.
- اطفئوا شاشات التلفزيون واخلعوا عن عقول الناس حجج باب

الكذب

- اوقفوا سيرة القتل والموت.
- استمعوا إلى اصواتنا نغني من أجل الحياة.
- كان مارتن لوثر كينج انسانا شجاعاً.
- وقف وتكلم عن العدل والحرية.
- عارض الحرب في فيتنام وقال ماذا تفعلون يا حكامنا؟
- اتحاولون السيطرة على العالم؟
- المجرد أنكم تملكون اكبر القنابل؟!
- اتركوا الاطفال يعيشون!
- اتركوا الاحلام تنمو!
- والظهور تزدهر!
- اكسروا حاجز الصمت يا رفاق!
- يا كل المقهورون في العالم والمقهورات ،
- بسبب اللون أو الجنس أو الدين.

- دعوا اليأس والحزن.

- وهيا معنا على طريق العدل والحرية والسلام.

٤- إجهاض الثورة في الأفلام الأمريكية

وقد اخترقت الرصاصات صدر مارتن لوثر كينج وهو يخطب في جماهير نيويورك عام ١٩٦٨، كما قتل من قبله بثلاث سنوات مالكون إكس في عام ١٩٦٥، حين كنت طالبة في جامعة كولومبيا في نيويورك، ايقظتني زميلتي الأمريكية ماريون فورر وهي تصيح: قتلوه يا نوال؟

قلت: من هو؟

قالت: مالكوم إكس.

كان شابا من السود المهرجين اليائسين، إلا أن الثورة جذبتة فأصبح أحد قياداتها ضد قهر الزنوج، ومات مقتولا مثل "بياتريس لومومبا" في الكونجو، وقد رأيت الفيلم عن "مالكوم إكس" وعن "لومومبا" إلا أن السينما عجزت عن تصوير الدراما الحقيقية لحياة أي منهما، فالواقع أكثر تأثيراً من الخيال، أو ربما لأن السينما الأمريكية لا تزال خاضعة لتأثير هوليوود والإثارة السطحية على حساب الفن الرفيع.

لقد بحثت عن مسرحية أو فيلم يسد تحقق الرؤية في نيويورك في شارع برودواي أو الشوارع الأخرى المزدحمة خارج برودواي، لم يعد شارع برودواي اليوم هو المكان

حيث المسارح والأفلام الجيدة ، أصبحت شوارع أذري كثيرة تنافس برودواي ، حول دي جرينتشي ووش نطن سكوير بالقرب من جامعة نيويورك ، وحول ميدان التايمز وشارع ٤٢ وغير ذلك من الأماكن الجديدة والقديمة المجددة. وكم قرأت من الدعايات حول الفيلم بعنوان "عقل جميل" (A beautiful mind) لقد حصل هذا الفيلم على جائزة الأوسكار كأحسن فيلم لعام ٢٠٠١ وقد ررت أن أراه، تصورت أنني سأري فيلماً عظيماً ، إلا أنني جلست أكثر من ساعتين أشهد فيلماً طويلاً مملاً رغم أن القصة جيدة جداً موضوعاً هاماً هو:

- كيف يمرض العقل الذكي الجميل بانفصام الشخصية أو الشيزوفرينيا في مجتمع امريكي مبني على المال والسلاح والمخابرات؟ بطل الفيلم استاذ في جامعة كبيرة في نيو جيرسي (برينستون) يتعرض للهلاوس بسبب الخوف من مطاردة المخابرات الأمريكية له وهو لا يريد أن يبيع عقله الذكي الجميل في سوق المال والسلاح والقهر والجشع الرأسمالي وكم ضاعت هذه الفكرة الجميلة وضاع العقل

الجميل في فيلم امريكي قائم على الاثارة الس طحية التي
تسيطر على ها هوليوود.

نيويورك/ مارس ٢٠٠٢

٥- سلاح البترول والمقاطعة

ولماذا لا تستخدم الحكومات العربية سلاح البترول كما استخدم في حرب ١٩٧٣ وكاد يقلب ميزان الحرب لصالح فلسطين والبلاد العربية؟ وفي القمة العربية الماضية (في بيروت) كان يمكن استخدام سلاح البترول ، فماذا لم يحدث ذلك؟ ومن هي الحكومات أو القوي العربية الحاكمة التي وقفت ضد استخدام سلاح البترول؟

من هي الحكومات العربية التي وقفت ضد مصدح شعوبها، وخضعت لمصالح الولايات المتحدة وإسرائيل؟! لكن الشعوب في النهاية قد قادرة على المقاومة والانتصار، وأمام الشعوب العربية اليوم اختبار كبير لمدي وعيها وقوة إرادتها على الاستمرار وعدم التراجع أمام الغاز المسيل للدموع أو الرصاص المسيل للدماء.

ويمكن للشعوب العربية أن تضرب المصالح الأمريكية الإسرائيلية في بلادنا بالاتحاد والتضامن لمقاطعة جميع البضائع الأمريكية الإسرائيلية في بلادنا وهذا سلاح في أيدي الناس جميعاً . نساءً ورجالاً شباباً وشيوخاً. أن يمتنع الناس

عن شراء البضائع الأمريكية والاسرائيلية، هذه المقاطعة
الاقتصادية الجماعية ربما تكون أقوى الاسلحة للقضاء على
الهيمنة الاستعمارية الأمريكية، وبالتالي الهيمنة العسكرية
والاسرائيلية.

مونت كلير ٧ إبريل ٢٠٠٢

رسالة إلى وزير الصحة

مسئولية وزارة الصحة:

لأنك على رأس الوزارة المسئولة عن صحة الناس في بلادنا اكتب هذه الرسالة إليك بصفتك المسد ثول الأول عم ا يحدث للأطفال منآلام وجروح تحت اسم الدين أو النظافة أو منع الأمراض. ومنذ أربعين عاماً حين طالبت بمنع ختان الإناث بصفتي طبيبة أدرك مخاطر هذه العمليات الجراحية عارضني زملائي في نقابة الأطباء ووزارة الصحة، وتعرضت للهجوم والأذى الكثير من رجال الدين ووزراء الصحة حينئذ، وكان لابد من مرور أربعين عاماً حتي تتضح الحقيقة ويصدر القرار بمنع ختان الإناث منذ عامين.

واليوم تتكرر المأساة إذ اثبتت الحقائق الطبية أن ختان الذكور عملية ضارة لا علاقة لها بالدين أو النظافة أو منع الأمراض، وقد كتبت في هذا الشأن منذ عامين وصدرت الكتب العلمية التي تنشر هذه الحقائق باللغات الاجنبية والعربية ، إلا أن الشعب المصري لا يزال يغذي بالمعلومات

الخاطئة عن طريق أجهزة الاعلام والصحافة المصرية التي
تتقل عن الصحف الأخرى دون دراسة، كما أن وزارة الصحة
لم تتكلم في هذا الموضوع، ولم ترشد الناس إلى مخاطر هذه
العمليات - رغم أن بها إدارة كبيرة مهمتها الثقافة الصحية
،كما أن نقابة الأطباء لم تلعب دورها المطلوب في مثل هذه
القضايا الهامة التي تتعلق بصحة الملايين من الذكور
والإناث في بلادنا.

بل إن بعض الأطباء راحوا يرددون المعلومات القديمة
والإشاعات الجديدة التي تنشرها الصحف عن أن ختان
الذكور يمنع مرض الإيدز، وهذه فكرة مغلوطة تروج لها
بعض الدوائر السياسية الإسرائيلية الأمريكية. وقد وقعت
بعض الصحف المصرية مؤخراً في هذا الخطأ، وراحت تنشر
هذه الأكاذيب، وتعيد نشر الأنباء الواردة إليها من الخارج
والإسرائيليات القديمة والجديدة دون تفكير أو دراسة.

وفي الوقت الذي تتكرر فيه إسرائيل علاقة الدين اليهودي
بهذه العمليات الجراحية الضارة فإنها تحاول أن تلتصق ختان
الذكور بالدين الإسلامي، كما يحاولون أيضاً ادعاء أن هذه
العمليات نبتت من مصر القديمة، أو أنها نبتت من إفريقيا.

وهذه كلها ادعاءات لا علاقة لها بالتاريخ الصحيح لعمليات ختان الذكور أو الإناث.

فلماذا لا تتصدي وزارة الصحة لهذا الموضوع إنقاذاً لصحة الملايين من الأطفال الذكور. كما تصدت لإنقاذ صحة الملايين من الأطفال الإناث، أم أننا ننتظر أربعين عاماً أخرى حتي تدرك وزارة الصحة هذا الخطر؟

وقد نشرت جريدة الأهرام، في ٤ يوليو ٢٠٠٠، وهي أكبر جريدة في مصر مقالاً في صفحة ٣١، توقيع محمد والقنواطي، تحت عنوان : أبحاث علمية تؤكد ختان الذكور يمنع الإصابة بالإيدز، ونشرت أعلى المقال صدرة تقول فيها: هذه نقوش على الحجارة تؤكد أن قداماء المصريين مارسوا ختان الذكور ، أكثر من ذلك ، لم تذكر الجريدة شيئاً عن علاقة الدين اليهودي بختان الذكور . رغم أن هناك نص واضح في التوراة يؤكد عي ختان الذكور مقابل أرض كنعان أو فلسطين، بل نسبت الجريدة ختان الذكور إلى الدين الإسلامي فقط، وأنه دعا إلى ختان الذكور منذ أكثر من ١٤٠٠ عام، رغم أنه لا توجد أية ولا نص واحد في القرآن يدعو إلى ختان الذكور.

بل هناك آيات تؤكد أن الله لا يخلق إلا الكامل، (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم). (التي - ٩) وأعظم علماء الإسلام عارضوا ختان الذكور، وقالوا إنه عادة يهودية وردت في التوراة ولا علاقة لها بالإسلام.

وقد نشرت جريدة " القاهرة " في ١٣ يونيو ٢٠٠٠ مقالاً في الصفحة الأولى تحت عنوان: أحدث مفاجأة علمية: الختان يحمي من الإصابة بالإيدز، ونشرت صحف مصرية أخرى طوال السنين الماضية مثل هذه الأنباء الخاطئة، مثلاً نشرت صحيفة عقيدتي في ١٩٩٥/٩/٥ تحت عنوان: وشهد شاهد من أهلها: الختان يمنع الإصابة بالإيدز بقلم د. أحمد د شفيق، وفيه يؤكد أن الدوائر الطبية في أوروبا أدت به أن الختان يمنع الإصابة بالإيدز، وهو ذا أبلغ رد على من يعارضون الختان، وغرضهم الهجوم على الإسلام الذي يؤكد عملية الختان (للإناث).

ونشرت صحيفة الأمة في ١٩٩٧/٩/٩ مقالاً تحت عنوان: الختان يحمي الأنثى من الإيدز، يقول فيه: الدوائر الطبية الغربية توصلت إلى أن الختان يحمي من الإيدز وسرطان العضو الذكر.

هكذا تنشر الصحف المصرية عن الدوائر الغربية ه ذه
الإشاعات تحت اسم الأبحاث العلمية الجديدة، فلم اذا لا
تتصدي وزارة الصحة وترد على ه ذه الاكاذيب ب العلم
الصحيح لصحة الناس وصحة عقولهم أيضاً؟

المعلومات الجديدة الصحيحة:

لم ياذن الاتحاد لاول وزارة الصحة حول على المعلومات الطبية والعلمية الجديدة التي تؤكد على مضار عمليات الختان للذكور والإناث ،وتتشرها على الناس في بلادنا من أجل نشر الوعي الصحي السليم!؟

وقد صدرت العديد من النشرات الطبية والكتب بالعربية والإنجليزية التي تناولت هذا الموضوع ،وهناك أيضاً في شبكة الإنترنت مواقع طبية وصحية جديدة تتشرف هذه المعلومات ،ومنها الآتي :

[http:// www.nohrmm.org](http://www.nohrmm.org)

[http:// www.nocric.org](http://www.nocric.org)

[http:// www.norm.org](http://www.norm.org)

وهناك علماء عرب يعيشون في أوروبا ،ويكتبون باللغة العربية والإنجليزية في هذا الموضوع ، وعلي سبيل المثال فإن الأستاذ الدكتور سامي الديب هو مسئّل القسم العربي بالمعهد السويسري في جنيف ، و أصدر عدداً من المؤلفات حول مضار ختان الذكور (والإناث) آخرها الكتاب الذي صدر باللغة العربية عام ١٩٩٩ ، هو كتاب من ثلاثة أجزاء كاملة في هذا الموضوع الهام.

والمطلوب الآن من وزارة الصحة (ونقابة الاطباء) في مصر أن تشكل لجنة من لأطباء والعلماء لدراسة هذه الكتب وتوصيلها إلى الناس والصحف وأجهزة الأعلام.

يقوم الدكتور سامي الديب في كتابه (ص ١٦٤) الآتي:

"بعد إلقائي محاضرة في مؤتمر عن الختان عام ١٩٩٤ في الولايات المتحدة فوجئت باستلام عدة رسائل من يهود لم يسبق لي التعرف على هم، وتبين لي أن إحدى المشاركات في ذلك المؤتمر قامت بتوزيع محاضرتي على هم دون إذني وبين مراسلي كان رئيس التعليم الطبي في جامعة بن غوريون الإسرائيلية، واسمه "شيمون جليك" وهو من المؤيدين لختان الذكور، وقد تبادلت معه عدة رسائل حول ختان الذكور، وأحدي تلك الرسائل تضمن مقالا يدعي أن الختان يقي من مرض الإيدز، شبكها مع ورقة كتب على ها بالانجليزية عبارة تقول: "إذا أمر الله عمل شيء فلا يمكن لهذا العمل أن يكون مضرًا"

ويوماً أرسل لي "برنارد لافري" نشيط يهودي في جنيف
رئيس اللجنة ضد معادة السامية، قصاصاً من جريدة
(Nouveau Quotidien) السويسرية بتاريخ ١٩٩٥/٨/٢٣
تشير إلى أن ختان الذكور يحمي من مرض الإيدز وهو ذا
الخبر منقول عن "هيئة الأخبار الفرنسية" التي نقلته عن
يومية الطبيب "الفرنسية"، وهذه الأخيرة نقلته عن خبر صادر
عن هيئة أخبار أمريكية بتاريخ ١٩٩٥/٨/٢٣، وقد أبلغت
هذا الخبر إلى السيدة "مارلين مايلوس" رئيسة منظمة
Nocirc والسيد "تيم هاموند" رئيس منظمة "Noharmm"
وهما منظمات أمريكيتان معاديتان لختان الذكور، وقد ردت
السيدة "مارلين مايلوس" بتاريخ ١٩٩٥/٩/١ ما يلي:

"إن مرض الإيدز ليس سببه الغلبة بل الجراثيم التي
تنتقل من خلال علاقة جنسية غير سليمة، وقطع الغلبة لم
تثبت فائدتها في الوقاية من الإيدز في الولايات المتحدة حيث
أكثر ضحايا هذا الداء هم من المختونين.

إن الحجج الطبية التي استعملت لتبرير واستمرار بت
الأعضاء الجنسية في الغرب كانت دائماً تتماشى مع
الأمراض المرعبة في الوقت الذي استعملت فيه تلك

الحجج، وهكذا استعمل الخوف في العادة السرية في اواسد ط القرن التاسع عشر ، ثم استعملت حجة النظافة في بداية القرن العشرين عندما وضعت نظرية الجراثيم، وفي اواسد ط القرن العشرين أصبحت الحجة الخوف من سرطان القضيب والرحم، واما اليوم فهم يستخدمون حجة مرض الإيدز كوسيلة لتبرير عادة وحشية ونحن الذين نعتبر تعدد الأطفال التشويه الجراحي لأعضائهم دون موافقتهم ، يمكننا أن نفهم المقصود من تلك الحجج، فالعار كل العار لم نستخدم مثل هذه الحجج.

وقد رد تيم هاموند بتاريخ ٣٠/٨/١٩٩٥ مايلي:

إن الختان لا يحمي من مرض الإيدز ، والإيحاء بأن ه يحمي من الإيدز يعتبر رسالة خطيرة للمختونين، تعني أنه في إمكانهم ممارسة الجنس دون اتخاذ الوسائل الكفيلة بحمايتهم من هذا المرض. وأضاف في رسالته بأنه إذا كان صحيحاً أن الختان يحمي من الإيدز ، فيجب في هذه الحالة ختان كل من الذكور والإناث البالغين.

يقول د. سامي الديب في كتابه إن ما سبق يوضح ح أن مؤيدي الختان بين اليهود ومن يساندهم قد وجدوا في الإيدز ضالتهم للدفاع عن ختان الذكور، فحولوا الخوف من الإيدز إلى سلاح للتأثير على الرأي العام، وقد سارعت الصحافة المصرية (والعربية) ونقلت هذه الأنباء . كما نقلت في الماضي كثيرًا من الإسرائيليات دون أي تحقيق واعتقدوا أن ختان الذكور والإناث من صحيح الإسلام، وهذا غير صحيح.

إن القرآن المرجع الأساسي للمسلمين ليس فيه أية واحدة تشير إلى ختان الذكور.

الكتاب الوحيد الذي ينص على ختان الذكور هو كتاب التوراة في الإصحاح السابع عشر (تكوين) يعقد الإله مع النبي إبراهيم عهداً ، يقول له " اقيم عهد بيني وبين نسلك من بعدك عهداً أبدياً .. أعطي لك ولنسلكك من بعدك أرض غربتك لك أرض كنعان ملكاً أبدياً.. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم ، فيكون عهدي في لحمكم أبدياً.. وأما الذكر الإلف الذي لا يختن في لحم غرلتكم فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه قد نكث عهدي".

هذه هي الكلمات التي جاءت في التوراة، تؤكد لنا أن
إله اليهود رفع شعار "الأرض مقابل الختان" وهو شعار
غريب ، فما علاقة الاستيلاء على أرض الغدير بالقوة
المسلحة وختان الذكور؟!

وفي محاضرة لي بجامعة نيويورك العام الماضي سألت
هذا السؤال فانسحبت بعض النساء اليهوديات اعتراضاً على
تساؤلي ، وغضبت أخريات ، لكن بعض اليهوديات اتين
كلامي وقالت إحداهن: نعم هذا سؤال وارد تماماً، وأعتقد أن
بعض المؤيدين للصهيونية والاستيلاء على أرض فلسطين ،
الأرض الموعودة يؤيدون أيضاً ختان الذكور رغم أنهم لا
يبتنون أطفالهم، لكن يخافون من الاعتراض على ختان
الذكور، وبالتالي يسقط حق اليهود في أرض فلسطين، بسبب
ترابط الوعد الإلهي بالأرض بختان الذكور.

من هنا ندرك كيف توجه كثير من القوي الإسرائيلية
(والأمريكية) بعض البحوث الطبية لإثبات أن ختان الذكور
يحمي من السرطان والإيدز تعزيزاً للآية في التوراة وتعزيزاً
للاستيلاء على أرض فلسطين.

الجدل الطبي السليم ضد الختان:

لماذا لا يتابع الاطباء في بلادنا ما يدور في العالم من أبحاث علمية سليمة تؤكد مضار الختان للذكور والإناث؟! ولماذا تسكت وزارة الصحة ونقابة الأطباء كأنهم لا يعرفون؟! وأرجو من وزي الصحة أن يطبع كتاب الأستاذ الدكتور سامي الديب. ويوزعه على الاطباء حتي يعرفوا أن ختان الذكور مادة ضارة بالجسم والد نفس والمجتمع، وأن ملايين الرجال ليسوا مختنين وليسوا مصابين بالإيدز أو السرطان، وأن نظرية الوقاية من الأمراض بقطع الأعضاء في الطفولة نظرية مناقضة للعقل والصحة والد دين الصحيح، لأن الله كامل لا يخلق إلا الكامل، وخلقناكم في أقوم تقويم.

يفند الأستاذ الدكتور سامي الديب. نظرية الوقاية من مرض الإيدز عن طريق الختان بالأدلة العلمية (ص ١٦٨) كالآتي:

في نهاية الثمانينيات ادعت بعض الدراسات الافريقية الصغيرة أن هناك علاقة بين فيروس نقص المناعة والد ذكر الغير مختون. وقد اغتتم مؤيدو الختان هذه الطريقة فاموا

بحملة دعائية بدأت برسالة بعثها طبيب يهودي اسمه (اروف

Fink: A possible ١٩٨٦ إلى مجلة طبية ع ام ١٩٨٦ explanation for heterosexual male infection with release ،AIDS United Press International

٢٩ date:October ١٩٨٦ إلا أن هذا الطبيب أوض ح

لصحفي بأنه لا يمكنه إثبات هذا الأمر ،وهذا الطبيب هو من

كبار الداعيين لإجراء الختان على جميع الأطفال. وقد سبق

وحاول الضغط على جمعية الطب في كاليفورنيا لك تتبني

مثل هذا البرنامج. وقد فشلت محاولته ع ام ١٩٨٧ ،ولكن

نجح في إمرارها عام ١٩٨٨ بصوت واحد من قبل ممثلي

هذه الجمعية دون الرجوع إلى الهيئة العلمية . ولم تكن

حجة الإيدز هي الحجة الوحيدة التي حاول إمرارها أمام تلك

الجمعية لممارسة ختان الذكور بصورة روتينية ، فمثلاً لم

يتمكن من إمرار قرار بالختان الروتيني كوقاية من مرضين

هم ١ B streptococcal disease و sand balanitis

وقد دعم فكرة الختان الروتيني للأطفال بحجة الوقاية من

مرض الإيدز عدد من الأطباء أكثرهم، إن لم يكن كلهم، من

اليهود Hodges: A short history ،P.٣٥ ذكر م نهم:

Francis A.

، Stephen Moss،Plummer. J.Nekl Simonsen

Joan K.Kreiss،Allan R.Ronald

وقد أعتمد أصحاب هذه النظرية على ملاحظة التوزيع الجغرافي للختان ومرض الإيدز ، واسد تنتجوا أن المذ اطق التي تمارس الختان أقل عرضة للإصابة بهذا المرض وقد ارتكزوا على معطيات من نهاية الخمسينيات، وكأن تلك المعطيات أكيدة ولم تتغير . إلا أنهم أهملوا عوامل طبية، مثل وجود أمراض جنسية . كما أهملوا عوامل اجتماعية مثل العمر الذي تتم فيه العلاقة الجنسية الألوي، ووجود ختان للإناث، ونظام تعدد الزوجات. وهذه العوامل قد تلعب دوراً في انتشار . . . مرض الإيدز . . . Van Howe: Neonatal circumcision and HIV infection pp. ٩٩- ١٠٠

كما أن بعضهم قام بمراقبة مجموعة معينة مثل سد ائقي الشاحنات. إلا أنهم لم يتأكدوا من أن هؤلاء كانوا مختونين أم لا. معتمدين في فرضياتهم على النسبة الوطنية . كما أنهم لم يأخذوا بالحسبان عوامل أخرى. بعضهم راقب المت رددين على عيادات الأمراض الجنسية مستنتجين أن من كان له غلفة كان أكثر عرضة للامراض الجنسية متجاهلين أن

الإصابة بقرحة جنسية تلعب دوراً أكبر في انتشار الإيدز مع وجود الغلفة أو عدمه. وأحدى تلك الدراسات اعتمدت على مراقبة أشخاص غير مختونين يمارسون الجنس مع مومسات في دولة (كينيا) بأفريقيا. وقد رأت هذه الدراسات أن غير المختونين أكثر عرضة للإصابة بمرض الإيدز من المختونين . ولكن دراسة أخرى بينت أن نسبة ارتفاع الإصابة في هذه الحالة هو أن غير المختونين يجدون صعوبة في الزواج بسبب نظرة المجتمع السلبية ضدهم فيقومون بالحبث عن علاقة جنسية مع المؤسسات مما يجعلهم أكثر عرضة لمرض الإيدز.

ويؤخذ على هذه الدراسات انها فضلت الاعتماد على معطيات إفريقية بدلا من المعطيات في الولايات المتحدة التي تمارس الختان بشكل واسع. والدراسة الوحيدة التي تمت في هذا البلد حول هذا الموضوع هي تلك التي نشرها " كرايس " Kreiss: Hopkins The association between circumcision and HIV infection ١٩٩٢ م. ع. بين العوامل الأخرى مما يبين التحيز للختان بين الباحثين وناشري المجلات العلمية. وقد د

نشوا أن ارتفاع نسبة الاصابات بمرض الإيدز عند د غير المختونين هنا قد يكون بسبب تدني الثقافة والحالة الاجتماعية بينهم. فمن المعروف أن الطبقة المتدنية لم يكن في إمكانهم ختان أولادهم، ولم يكن من السهل لهم اللجوء إلى العناية الصحية الروتينية. وهناك ارتفاع عال لمرض الإيدز بين الطبقات المتدنية. وهذه الدراسة التي تريد ربط الختان بالوقاية من مرض الإيدز تفشل في القول أن أنتشاره إذا المرض إنما هو بسبب التصرف غير السليم في العلاقات الجنسية وتدني مستوى النظافة وليس في شيء كل القضيب . pp. ٣٩٣-٣٩٦، Fleiss: An analysis of bias

وبعض الأبحاث حاولت إعطاء صد بغة علمية لاستنتاجاتها. فقد كتب (جان ماركس) في مجلة Science أن وجود غلفة سليمة يخلق محيطاً حامياً ورطباً يساعد في بقاء الفيروس حياً ويساعد على دخوله. فالفيروس قصد ير الحياة في محيط جاف حسب قول باحث في ورس الإيدز (سيمونسون). وهذا البحث يبين أن بالختان تصبح الحشفة أكثر قسوة، وهذا يحميها من التجردات الصغرة خلال العلاقة الجنسية مما يساعد دخول فيروس الإيدز، كما أن

الغلفة في حال بقائها عرضة للصددمات خلال العلاقة الجنسية. Mark: Circumcision may protect against the AIDs virus.

وهذه الفكرة مرتبطة بكفارة أخرى وهي أن الجلد يحتوي على خلايا المناعة تدعى Langerhans cells . باسم مكتشفها. وقد ادعت دراسة قام بها الدكتور " وايس " بأن بطانة الغلفة تحتوي على قدر قليل من تلك الخلايا مما يؤدي لضعف استجابتها للمضادات الحيوية. وقد اقترح إجراء الختان في الصغر كوسيلة وقائية واعتبر إجراء الختان لهذا السبب حق من حقوق الإنسان Weiss: the distribution and density of langerhans parative in (حسين) و (لينير) في نفس الاتجاهات Hussain vestigation .Lehner:com

ويؤخذ على هاتين الدراستين أنهما تمتا على غلاف دون موافقة أصحابها دوناستشارة اللجنة الأخلاقية في المستشفى الذي تمت فيه لعمل المراقبة الضرورية حول خلوها من المحابة. وهاتان الدراستان تمتا على نسيج جلدي ميت. بينما كان أحري بهما أن تتم على نسيج حي . وحجم

العينات صغير لا يسمح في استنتاج سليم. وهي في حقيقته ا محاولة لتأكيد موقف مسبق مؤيد للختان (كما هو واضح من الانتماء اليه ودي والإس لامى لمؤلفيه ا) وليس دراسة موضوعية . ويضيف الناقد أن بقطع الغلفة يتم إزالة عدد كبير من خلايا المناعة. أما تأثير الختان على الشحنة وخلايا المناعة فلم يتم دراستها بعد وتتطلب بحثا اضافيا . والمنطق السليم يستنتج أن قطع جزء من جلد الذكر ، بالإضافة إلى مضارة الجنسية ، يؤدي إلى انتقاص الوقاية ، كما في الجلد في أي جزء من الإنسان، هو عضو ذو مناعة . انظر
تفصيلاً حول هذه النقطة في: Cells:

Williams: the significance and function of preputial langerhans Cold & Taylor: the prepuce pp- ٤١

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات في هذا المجال تقوم على إحصائيات وحسابات معقدة تخلق انطباعاً بصدامتها ولكنها لا تخلو من النقد. وقد يؤدي التحقيق منها إلى نتائج عكسية. ولا مجال هنا إلى الدخول في متاهات هذه الحسابات. ويقول الدكتور (فأن ه و) بعد استعراض ٣٦ دراسة من المجالات المحكمة حول علاقة الإيدز بالغلفة،

بأن النتائج غير متلائمة. فهناك دراسات أجريت في العيادات التي تداوي الأمراض المنتقلة جنسياً والتي يلجأ إليها عادة الطبقات الدنيا من الشعب) وتبين أن الغفلة قد تزيد خطر الإصابة بالعدوى الجنسية بالأيديز أما الدراسات الأخرى التي تجري على عينات من الناس وهي أكثر صدقاً فإنها تبين أن الرجال المختونين أكثر عرضة لمرض الإيدز. وبعض الدراسات لم تتمكن من إيجاد أدلة بارزة بين المختونين وغير المختونين. ولكن يجب معرفة أن الولايات المتحدة تملك أعلى معدل من المختونين. وفي نفس الوقت أعلى معدل من المصابين بمرض الإيدز بين لدول المتقدمة. وهذا يبين أنه من غير الممكن الربط بين الغفلة وبين مرض الإيدز. Van Howe: Does circumcision influence HIV infection? pp. 100-120

الأرقام اثبتت عكس ذلك:

أعلى دولة غربية في نسبة ختان الذكور هي الولايات المتحدة. وفي هذا البلد غالبية الرجال في سن النشاط الجنسي

مختونين. ولو كنت النظرية السابقة صحيحة فكان يجب أن تكون بين الدول الأقل انتشاراً لمرض الإيدز . ولكن الأرقام تبين أن الولايات المتحدة هي سادس أكبر دولة لانتشار الإيدز في العالم . وأعلى دولة بين الدول المتقدمة ، ومؤيدو نظرية الإيدز ببطء الحال يتجاهلون هذه الحقيقة . ونحن نعطي هنا عدد المصابين بين ١٠٠,٠٠٠ كما بينتها منظمة الصحة العالمية عام ١٩٩٥ .

٩٦,٧	زيمبابوي
٥٨,٤	كونجو
٤٩,٢	مالاوي
٢٤,٨	كينيا
٢٠,٢	تشاد
١٦,٠	الولايات المتحدة
٨,٩	إيطاليا
٦,٥	سويسرا
٤,٤	الدانمارك
٣,٥	فرنسا
٢,٧	هولندا

ألمانيا	٢,٢
النمسا	٢,٠
السويد	٢,٠
فنلندا	٠,٩
بولندا	٠,٢
المجر	٠,٢

ويشير معارضو الختان بأن الدول الأوروبية المتقدمة التي فيها نسبة الإيدز عالية هي تلك الدول التي تعرب نسب هجرة مسلمة عالية وعمال من الخارج.

مما سبق يتضح أن الولايات المتحدة تعرف أعلى نسبة للختان ، وفي نفس الوقت أعلى نسبة بالاصابة بمرض الإيدز بين الدول النامية . وقد قدرت منظمة الصحة العالمية أن بين ١٨,٥ مليون مصاب بهذه الجرثومة في العالم ، هناك ١,١ مليون شمال أمريكي وبينما أوروبا الغربية لا تعد إلا ٦٠٠,٠٠٠ مصاب . وقد بينت دراسة أمريكية أنه بين كل ٢٠ شخص هناك مصاب بهذا المرض عام ١٩٩٤ . وقرابة

كل المصابين بهذا المرض في الولايات المتحدة هم من المختونين.

Fleiss:An analysis of bias، pp .٣٩٣- ٣٩٤

ويذكر طبيب أمريكي بأن الولايات المتحدة ٥% من سكان العالم، ولكنها تحتوي على ٦٥% من حالات الإصابة بمرض الإيدز في العالم . Ritter:say no to circumci- sion، p . ٣٣-٢

الختان قد يكون عامل انتشار للإيدز:

وفي غياب دراسة جدية تثبت أن الختان عنصر وقاية من الإيدز. يجب على نا أن نرجع إلى البديهيّات البسيطة التي يمكن أن يتقبلها العقل، دون الدوخان في أرقام وحسابات معقدة لا نهاية لها. وهذه البديهيّات هي :

-الختان يجعل جلد الذكر أكثر انشداداً وخشونة وأقل رطوبة، ويرتك فيه ندبا وبالتالي فإن المختون يكون أكثر عرضة للتجرح ودخول فيروس الإيدز في الجسم.

-المختونون أكثر ميلاً لممارسة الجنس من خلال الشرج والفم، كما أنهم أكثر ميلاً للعلاقات الجنسية الشاذة،

كما رأينا سابقاً. وهذا عامل يزيد في إمكانية التجرح ودخول الفيروس

-المختونون أكثر ميلاً إلى البحث عن عدد أكبر من شريكة العلاقة الجنسية وتعرض أكبر للفيروس.

-المختونون أقل ميلاً لاستعمال العازل. واحد الأسباب التي تقدم لذلك هو انه يضعف من الحساسية بسبب تغليف القضيب. والمختون يكون عامة قد فقد جزءاً من تلك الحساسية ببسب الختان وسنين احتكاك الحشفة بالملابس وتحرق ونشفتان في القضيب، فإضافة طبقة أخرى على القضيب يزيد في إضعاف الحساسية. كما أن الختان يقلل من مدة المداعبة قبل الولوج، وهذا يؤدي إلى تجريح أكبر في الأنسجة

Rit-ter:Sa no to circumcision،p.٣٥-١،Van

Howe:Does circumcision influence،p.٥٩

-حتي وغن قبلنا بأن الختان قد يحمي من مرض الإيدز فإنه يجب عمل ٢٣١٤٨ ختانياً في الولايات المتحدة بتكلفة ٩,٦ مليون دولار لكي يقي من إصابة واحدة بمرض الإيدز. وهذا يعني اننا سوف نعرض عدداً كبيراً لمخاطر الختان الأخرى ومن بينها الوفاة لوقاية فرد واحد. وفي دول العالم

الثالث مخاطر الختان أعلي مما هي على ه في الدول المتقدمة . والدراسات تبين أن وجود غلفة ليس عاملاً مهماً في مدي انتشار الفيروس. وإن كان عاملاً فالمخاطر الناتجة أكبر من الفوائد المرجوة: Van howe Neonatal circumcision and HIV infection pp. ١٠٠-١٢٠

القول بأن الختان يقي من الإيدز قد يفهمه البعض بأنه يعطيهم مناعة ضد هذا المرض فلا يأخذون حرجاً منهم منذ ويمارسون الجنس بكل حرية مع أشخاص مصابين بهذا المرض.

مما سبق يتضح أن الختان ، ختان الذكور والإناث ليس للوقاية من الإيدز لابل قد يكون عاملاً لانتشاره. والوقاية من مرض الإيدز تكمن في حماية الفرد من التعرض للجراثيم الناقلة لهذا المرض. وتثقيف الناس على العلاقة الجنسية السليمة وليس بقطع أجزاء سليمة من جسم الإنسان p. ٣٣-٢، Ritter: Say no to circumcision

أود أن أسأل وزير الصحة هذا السؤال :

لماذا لا تلعب وزارة الصحة دورها في نشر هذه المعلومات الهامة على الاطباء وعلى الناس ،وقد رأيت أن من المهم أن أرسل هذه الرسالة إليك وفيها أجزاء من كتاب علمي قام بنشره استاذ عربي وليس أجنبي ،وعنده نسخة واحدة من هذا الكتاب الهام.

أبحاث علمية غير سليمة:

كيف يدافع المختونون من الرجال أنفسهم وكيف تدافع النساء المختونات عن أنفسهن؟ من المعروف في الطب النفسي أن الإنسان الذي يتعرض للقهر الجسدي من أي نوع ،مثل قطع جزء من جسمه في الطفولة يشعر بالحزن العميق يحاول أن ينكر ما حدث له،كانماهو المسئول عنه ،قد يتحول هذا الإحساس بالنقص إلى زهو أو مبعث فخر،أو على الأقل أنهذه العملية الجراحية لم تضره في شيء بل أفادته صحيا أو منعت عنه الأمراض، أو أكسبته هوية الأصدية أو خصوصيته الثقافية أو قيمه الأخلاقية أو الحضارية.

وكم تتفاخر كثير من النساء بالحجاب رغم أنه أحد وسائل القهر المفروضة على بعض النساء تحت اسم الدين أو الاخلاق.

ويلعب التعليم والاعلام دوراً في التجهيل بمضار هذه العمليات التي تشوه الأجسام والعقول، ويستخدم وسيلة للتجهيل أيضاً تحت اسم البحوث والدراسات التي تجري أحياناً لأهداف سياسية وليس من أجل البحث عن الحقيقة.

مثلاً لعب الاعلام الدولي والعربي دوراً في ترويج حبوب الفياجرا. استطاعت الشركات العالمية للأدوية التي تنتج هذه الحبوب أن تمول أبحاثاً علمية تثبت فعالية هذه الحبوب وقدرتها على تنشيط القوة الجنسية للرجل، واستخدمت رجالاً مشهورين في عالم السياسة أو الفن دفعت لهم الملايين من أجل أن يتحدثوا في التلفزيون عن فوائد حبوب الفياجرا، ويحكون تجاربهم الخاصة، ربما تكون هناك بعض الحقيقة فيما يقولون، وفي بعض الابحاث العلمية، إلا أنها حقيقة جزئية، وقد تلعب الحقيقة الجزئية دوراً في تشويه الحقيقة أكثر من أي شيء آخر، لأنها تبدو للناس حقيقة علمية ومقنعة، ولأن الناس يفتقدون المعرفة أو النظرة الكلية

للأشياء فإن هذه الحقائق الجزئية تدعهم كثيرًا دون أن يدركوا ذلك.

منذ خمسة وثلاثين عامًا حين كتبت ضد عمليات ختان البنات في مصر هاج زملائي الأطباء غضبًا وقالوا إن ختان البنت ضروري وصحية من أجل النظافة ومنع الأمراض، قلت لهم كيف نقطع عضوا من الجسم من أجل النظافة؟ ألا ليس الأفضل أن نغسله بالماء والصابون بدل من بتره بالمشرط أو الموس؟!؟

وكم من أبحاث طبية خرجت تثبت أن ختان البنات مفيد صحياً، وأنه يمنع أمراض السد رطان وأمراض الزهري والسيلان، وأن المومسات المختونات أقل تعرضاً للأمراض من المومسات غير المختونات. لا تتفصل القوي المسد يطرة على العلم على القوي المسد يطرة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وإعلامياً، كما أن شركات الأدوية في العالم لها سطوتها وقوتها ويمكن أن توجه الأبحاث الطبية لخدمة أرباحها وترويج منتجاتها.

وكم من بحوث عن فوائد حبوب الفياجرا لتقوية الفحولة الجنسية عند الرجال، وقد اتضح مؤخراً مضار هذه الحبوب

على القلب، وقد تعرض بعض الرجال للموت بعد تعاطيها أو لآزمات قلبية.

وكم من بحوث عن فوائد ختان الذكور، وأنه ما تحمي الرجال من الإصابة من السرطان، وأخيراً الحماية من مرض الإيدز، وأنه في أحدث دراسة علمية قام بها باحثون في استراليا أكدوا فيها أن الرجل غير المختون يكون أكثر عرضة بمرض الإيدز، وأن عملية ختان الذكر أفضل وقاية من هذا المرض ومن أمراض أخرى تنتقل عن طريق الجنس مثل السيلان والسفلس (الزهري) ويؤكد د ريس البحث البروفسير روجر شورت أن الختان هو أفضل وسيلة للحماية من هذه الأمراض الآن، بينما البديل الوحيد المتاح للرجال غير المختونين هو وسائل الحماية الكيميائية.

وإذا كانت هناك وسائل كيميائية أي أدوية وكيمائيات للوقاية من الإيدز والأمراض الجنسية فلماذا نبتز أجزاء من أجساد الذكور بالموس أو المشروط وهذا ليس بالخياري أفضل مثل الادوية والكيمائيات.

مثلا هي نقطع أذن إنسان حتي لا تصاب الأذن بمرض
من الأمراض أم نستخدم الأدوية والكيماويات إذا أصيب
الأذن بالمرض!؟

كما أن أغلب هذه البحوث العلمية لا تأخذ في اعتبارها
العوامل المتعددة التي تلعب دوراً في إصابة الرجل
بالأمراض الجنسية أو مرض الإيدز مثلاً . ربما تقل نسبة
الأمراض الجنسية في الرجال المختونين لأنهم ينتمون إلى
ثقافة أو دين معين يمنعهم من ممارسة الجنس مع المومسات
مثلاً، إذن هناك عامل غير الختان قد يحمي الرجل من
الإصابة بالإيدز أو الأمراض الجنسية ، مثلاً لوحظ أن النساء
المختونات أقل إصابة بالأمراض الجنسية أو الإيدز من
النساء غير المختونات. ويرجع ذلك إلى القيود الثقافية أو
الاجتماعية التي تفرضها ثقافة معينة أو دين معين على
حرية النساء الجنسية.

إن غياب عضواً أو جزء من الجسم لا يمكن أن يكون
له فوائد وقائية من أي مرض ، بل العكس هو الصحيح، إن
اكتمال الأعضاء أو اكتمال الجسم عنصر هام في اكتمال

الصحة الجسدية والنفسية والجنسية لأي إنسان رجلاً أو امرأة. وكل عضو في الجسم وإن كان صغيراً له وظيفة وفوائد - حتي الزائدة الدودية لها فائدة - يلعب دوراً في تعرضه للأمراض، مثلاً إذا عاشت امرأة داخل أربعة جدران لا تمارس الجنس إلا مع رجل واحد هو زوجها تكون أقل تعرضاً للأمراض الجنسية من غيرها التي تتمتع بحرية جنسية أكبر، وكذلك الرجل المتعدد العلاقات أكثر عرضة من الرجل الذي يسيطر نزواته.

إن التعددية الجنسية أو الإباحية الجنسية دون ضوابط هي التي تعرض الرجال والنساء للأمراض الجنسية، ولأن هذه الإباحية أو الحرية الجنسية منتشرة بين الرجال غير المختونين فإن إصابتهم باللايدز أو الأمراض الجنسية أكثر من الرجال المختونين. كذلك تعرض النساء غير المختونات لللايدز أكثر من غيرهن.

هذه من أهم مشاكل البحوث الطبية في العالم، لأن البحوث الطبية تبحث في أمور الجسد فقط، أو الأمور البيولوجية والفيزيائية. لكنها لا تبحث في أمور السلوك والعادات الثقافية والأخلاقية. هناك فصل دائم في علوم الطب

بين الجسم والمحيط الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه هذا الجسم ،ومن هنا انفصال الأمراض الجسمية عن البيئة والثقافة والدين والأخلاق. لم نتعلم في كلية الطب أن نربط بين الجسم والعقل والنفس والمجتمع والسياسة والاقتصاد والفلسفة والدين والتاريخ والجنس وغيرها من العوامل الهامة التي تؤثر في سلوك الرجال والنساء وبالتالي تؤثر على صحتهم وسلامتهم.

وتتشر الصحف والأعلام أخباراً مضللة عن هذه الأبحاث الطبية ،والتي تروج لها القوي السياسية الإسرائيلية الأمريكية وشركات الأدوية الكبرى في العالم ،أو القوي السياسية التي تجني الأرباح من قبل هذه البحوث المضللة.

لاشك أن عمليات الختان سواء للذكور أو الإناث من العادات الضارة الموروثة منذ العبودية ،ولها في عصرنا الحديث من يستفيدون منها ويكسبون الأموال ، أنها واحدة من المافيات في العالم ،مثل مافيا التجارة بالجنس ، وما فيها تروريج حبوب الفياجرا وأخيراً مافيا التجارة في حبوب الصويا التي نشر عنها مؤخراً أنها مثل حبوب الفياجرا تزيد

من قوة الرجل الجنسية، وتمنع ما يسمى الوصول إلى سد ن
الياس عند الرجال.

القاهرة / ١٠ يوليو ٢٠٠٠

رسالة إلى وزيرة البيئة

لأن صورتك الباسمة الرقيقة الناعمة تطالعني من ذلك
مكان فقد اصحبت كأنما اعرفك، وأراك في الذوم وأحد ملام
اليقظة حين أتمد فوق الكنبه في الشرفة، وأطل على شارعنا
القصير الذي يحمل اسم "معهد ناصر" في حي شبرا القديم.
وكان شارعنا هذا القصير نظيفاً إلى حد كبير قبل أن تتشأ
وزارة البيئة ذلك أنه يحمل اسم ناصر ويجاور المستشفى في
الابيض الفاخر الذي يحمل اسم معهد ناصر أيضاً.

وكان جدك مكرم عبيد يتراءى لي أيضاً في النون وأنا
طفلة، استمتع إلى احاديث جدي وأبي عن الكتاب الأسدود
والعهد الملكي الأكثر سوداً : كانت الصحف واقلام الادباء
الكبار تكيل المدح والثناء للملك فاروق الأول ، ملك مصر
المعظم، أدامه الله ذخراً للبلاد ، حيث يرفل الشعب المصيري
الكريم في النعيم أو الخير ،الذي ينعمه الملك على عباده
الله . وأسمع أبي ينفث بالغضب ويقول إننا نسير من فقر إلى
فقر رغم انه موظف في الحكومة فما بال الفقراء ، وأسدمعه
يهتف في البيت يسقط الملك يسقط الإنجليز و ثم يمضي إلى
عمله يائساً صامتاً ثقيل القلب مكبوت الغضب. كنت تلميذة

بالمدرسة وسألت أبي يوماً: لماذا لا تتورط يا أبي إلا في البيت؟ لماذا لا تهتف في الشارع يسقط الملك يسقط الإنجليز! كان أبي يضحك ويقول: سيقول الناس عني مجنون.

وهذا هو ما حدث لي بالضبط بعد نصف قرن، وبعد أن مات أبي منذ أربعين عاماً. وجدتني أمشي في شارعنا الصغير وأهتف بأعلى صوتي يسقط الملك يسقط الانجليز! وتجمع الناس حولي وقالوا: مجنونة! كان اليوم هو ٤ مايو عام ٢٠٠٠، وكانت الاعلام مرفوعة في الاح تقلات بعيد الربيع واعیاد قومية اخري والزبالون والكناسون غسولوا شارع النيل وميدان التحرير وشارع الحرية والديموقراطية ومعهد ناصر ومدينة السادات وأكاديمية مبارك وغيرها من المعالم الوطنية، إلا أن شارعنا الصغير الذي يحمل اسم معهد ناصر لم يكن له نصيب في هذه الاعیاد. وجدتني ذلك اليوم الربيعي أتعثر وأنا أمشي في أكوام من الصناديق الفارغة والقمامة وأكياس النايلون وعلب الصفيح تفوح منها رائحة بوليبيف عفنه.

عرفت أن هذه الاكوام الجديدة من الزبالاة مصدرها السوبر ماركت الجديد الذي فتح منذ فترة قصيرة في العمارة

المجاورة لنا، والذي يحمل اسم " سنيسبري " وقد احتل الدور الأرضي من العمارة، له واجهة عريضة مزينة باللون البرتقالي الزاهي ومدخل من البلاط المصقول اللامع ، يغسله كل يوم في الصباح الباكر شبابا يرتدون بدل البرتقالية الأنيقة، فوق صدورهم شارة باللون البرتقالي تحمل الاسم الانجليزي العريق " سينسبري"، يروحون ويحيئون داخل المحل وخارجه بنشاط غير عادي، خط وتهم فوق الأرض سريعة يدبون فوق البلاط المغسول بكعوب مثل العسل ماكر الانجليز أيما لاملك و يرمقونني باحتقار لأنني امشي في الشارع فوق قدمي داخل حذاء كاوتش لويس داخل سياراة طويلة أمريكية أو بريطانية ،أو لأنني لا أدخل إلى السوبر ماركت العظيم ،واذهب إلى البقال الفقير في المحل الصد غير المجاور.

لكنني ذلك اليوم ٤ مايو دخلت إلى السوبر ماركت لأول مرة، رايت الوس تتحني لي باحترام وتقودني عبر الممرات بنعومة شديدة ، توجهني إلى المشتريات المنظمة في صفوف فوق الرفوف ، لكنني لم أدخل للشراء، بل توجهت إلى مكتب المدير الذي تصورته إنجليزياً ، لكنه مصري يتكلم العربية

بلكنة أجنبية ، وقف احتراماً خالياً من الأدب كعادة الأجانب مع أهل البلاد. وقلت له بغضب أن السوبر ماركت قد جعل في شارعنا ملقف قمامته ، وأنه لا يفعل ذلك في لندن لأنه يحترم الإنجليز ، أما نحن سكان حي شبرا القديم! فاطعني المدير معتذراً متأسفاً معلناً أن العرب التي تحمل القمامة تعطلت هذا اليوم، وأنه في الغد سوف يكون شارعنا نظيفاً كما كان.

إلا أن الغد جاء وقمامة الانجليزي سينسبري لا تختفي من شارعنا، بل يتضاعف حجمها يوماً بعد يوم، حتي جاءني بعض الجيران، وقالوا: هذه القمامة زادت عن الحد وندون فقرء في حالنا وليس لنا واسطة في وزارة البيئة ، ألا تعرفين أحد في الحكومة أو في احزاب المعارضة؟ لاحظت انها لا يفرقون بين هؤلاء وهؤلاء وقد رأوا صورة السيدة وزيرة البيئة تتوسط احتفالات الاحزاب المعارضة بمثابة احتفالات الحكومة وقلت لهم أنني لا أعرف أحداً، ولكنني سأحاول أن أكتب شيئاً.

وتذكرت أنني منذ أيام قليلة قرأت شيئاً عن أن وزارة البيئة أو وزارة الصحة قد جعلت قضية الحفاظ على البيئة

قضية تهم كل مواطن مصري ،وذلك عن طريق الشريط الجديد لاتمام إجراءات أي ترخيص لفتح أي محل تجاري أو عيادة طبية وإن كانت عيادة نفسية، هذا الشريط الجديد يقتضي الحصول على ترخيص من صحة البيئة يسد مي ترخيص تداول النفايات" ولا يمكن لاحد أن يفتح محلاً أو حتي عيادة نفسية دون الحصول على هذا الترخيص يثبت به صاحب المحل أو صاحب العيادة الطبية (بعد أن يدفع مائة جنيه رسوم) أنه تعاقد مع محرقة لحرق النفايات والقمامة الناتجة عن المحل أو العيادة، وأنه يدفع اشتراكاً شهرياً لهذه المحرقة مما يؤكد عد وجود نفايات خارج المحل أو داخله.

كان المقال الذي قرأته عن هذا الموضوع قد نشر في جريدة الأهرام يوم ٢ مايو ٢٠٠٠ ، تحت عنوان "محرقة النفايات النفسية" بقلم سلامة أحمد سلامة ، بعد أن أرسل إليه طبيب نفسي يشكو صعوبة الحصول على هذا الترخيص، والتعاقد مع محرقة ودفع اشتراك شهري يترتب على عدم دفعه ولو لم توجد نفايات (مثل عيادة نفسية) الغاء التعاقد وسحب الترخيص.

وإذا اختتم رسالتي الودية إلى وزيرة البيئة الرقيقة، أود
أن أسأل هذا السؤال البسيط: هل يا تري أن " سينسبري " قد
حصل على هذا الترخيص؟ وإن كان كذلك فلم ماذا تت راكم
النفایات في شارعنا القصير أما السوبر ماركت؟! ألم يتعاقد
مع محرقة لحرق النفایات ؟ ام أن المحرقة تعطلت كما
تعطلت اشیاء أخرى كثيرة في حياتنا دون أن ينطق احد.

القاهرة ١١ مايو ٢٠٠٠

نشؤ الفيروسات والحرب البيولوجية الخفية

من المهم لنا أن نعيش خارج الوطن بعد ض الوقت ،
لندرك بعض الحقائق التي لا تصد ل إلينا إلا بعد د ف و ات
الأوان، ولنقرأ بعض الكتب الجديدة التي تصدر بلغات أجنبية
، والتي لا تترجم إلى اللغة العربية إلا بعد عدة سنوات، حين
تضيع على نا فرصة معرفة الحقيقة في وقتها، ونصبح ضحايا
لأشياء لا نعرفها.

وقد أصبح نصف سكان القارة الإفريقية تقريباً ض حايا
وباء مرض الإيدز دونان يعرفوا شيئاً عن ه ذا الفيروس
الخطير، وهل جاء عن طريق قرود الغابة الإفريقية، أم ع ن
طريق الغابة البشرية الأمريكية.

وقد بدأ عدد من الأطباء الأمريكيين (من ذوي الضمير
الإنساني الحي) أن يكشفو أخيراً عن الحقائق التي تم إخفائها
على مدي الثلاثين عاما الماضية ، وأن يقدموا دلائل علمية
جديدة عن أن فيروس الإيدز قد تم خلقه بالمعامل وأن آثاره
الخطيرة على صحة البشر كانت معروفة ، وتم التنبؤ بها قبل
اندلاع الوباء في إفريقيا، وتم التكتم على الأمر.

من أهم الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب بعنوان "الفيروسات الناشئة" (Emerging viruses) وهو وبحث علمي هام قام به طبيب أمريكي اسمه الدكتور "ليونارد هورowitz"، (Leonard Horowitz) صدر الكتاب عام ١٩٩٧ باللغة الأجنبية ومن المهم ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، حتي تصل بعض هذه الحقائق العلمية إلى الناس في بلادنا.

ولا أعرف هل تتابع وزارة الصحة ما يحدث في الخارج من معلومات عن نشوء مرض الإيدز في إفريقيا؟ وهل هناك خطة صحية ما لمنع تسرب هذا الوباء إلى مصر؟! خاصة وأن أهم علاج لهذا المرض هو الوقاية منه.

منذ عام ١٩٨٦ أعلن أحد العلماء الأمريكيين ،وهو الدكتور "ناتانييل ليهرمان" (Nathanied Lehrman) عن وجود علاقة بين بعض فاكسينات التطعيم ومرض الإيدز، وأن شركات الأدوية الأمريكية أخفت هذه العلاقة حرصاً على أرباحها المالية.

كما أعلن في الوقت نفسه الدكتور "وليم كامبل دوجلاس" (William Campell Douglas).

يوضح الدكتور ليونارد هورويذر في كتابه أن وزارة الصحة الأمريكية ومنظمة الصحة العالمية ، وشركات الأدوية ، والبنّاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) شملت وتعاونت في إجراء أبحاث هدفها " تخفيض المناعة عند الإنسان " كجزء من الأبحاث الخاصة بالحرب البيولوجية ، تحت اسم حماية الجنود الأمريكيين ضد أي حرب بيولوجية قد يتعرضون لها.

ومن المعروف طبياً أنه يكفي أن تتخفض المناعة في جسم الإنسان حتي تشتعل أوبئة ناتجة عن الميكروبات الموجودة بشكل طبيعي في البيئة المحيطة بنا.

أثناء هذه التجارب ظهر فيروس الإيدز في المعامل التي كانت تجري فيها هذه الأبحاث ، ويؤكد الدكتور ليونارد هورويذر (بالبراهين والأدلة العلمية الدقيقة) أن فيروس الإيدز وصل إلى سكان إفريقيا بسبب هذه الأبحاث ، وعن طريق الفاكسينات التي وزعتها شركات الأدوية على الأفارقة ، لاختبارها (كأنما الأفارقة خنازير تجارب) وتحت اسم مشروعات تطعيم (مجهولة الأثر) رغم إدراك هذه الشركات لخطورة هذه الفاكسينات.

بعض معامل منظمة الصحة العالمية التي شاركت في توزيع هذه الفاكسينات قد شاركت في قتل سكان إفريقيا بوباء الإيدز ،كما أعلن بعض الأطباء عن ذلك.

منذ منتصف الثمانيات كانت الصراعات داخل الولايات المتحدة الأمريكية على أشدها حول مخاطر الفاكسينات التي تعطي للأطفال ضد بعض الأمراض ومنها شلل الأطفال ، وبدأ الأهالي ينظمون أنفسهم داخل قوة سياسية لحماية أطفالهم من شركات الأدوية المنتجة لهذه الفاكسينات، ومنها شركة ميرك (Merck).

وتكونت منظمة اسمها " مؤسسة الاهالي المتذمرين " (Dissatisfied parents) الذين طالبوا بمنع التطعيم تماما لحماية الأطفال.

وفي عام ١٩٨٦ وقع الرئيس الأمريكي (رونالد ريجان) ما سمي بـ . . (The National Childhood Vaccine Injury Act) وكان الأهالي الأمريكيون قد أثاروا الموضوع في الكونجرس. إلا أن شركات الأدوية الأمريكية بما لها من قوة سياسية واقتصادية (وعسكرية) وإعلامية. استطاعت أن تنتصر على منظمة الأهالي . عن طريق التمويه الإعلامي

،ودفع بعض تعويضات مالية لإغراء الأهالي بالتنازل عن القضايا التي رفعوها ضد هذه الشركات في المحاكم.

ربما كان التمويه الإعلامي الأكبر هو الموجه إلى البلاد الأفريقية أو ما يسمى بلاد العالم الثالث، وتم تغيير اللغة المستخدمة لتسويق ما يسمى المعونات الأمريكية لفقراء العالم، ومنها امصال التطعيمات للأطفال ووسائل منع الحمل للنساء، واختفت من الكمبيوتر بعض الكلمات المثيرة لغضب الشعوب، من نوع " التحكم في السد كان" (Population Control) إلى كلمات بريئة أو جميلة، من نوع " مشروعات صحة الأم والطفل" (Maternal and Child Health).

تحت هذه العناوين الإنسانية الصحية يتم توزيع عقاقير ضارة بصحة النساء والأطفال والشعوب الإفريقية، ومنها عقاقير ممنوعة بحكم القانون من التوزيع داخل أمريكا اليوم، بعد اكتشاف ضررها، وشكوي الأهالي منها.

تتهزم في غابة الجشع الرأسمالي قيم العدالة والإنسانية في مواجهة القوة الاقتصادية للشركات التجارية والتي تدعمها القوة العسكرية مع الحروب البيولوجية. ويتم التضحية بحقوق الفقراء والنساء والأطفال لصالح الاثرياء الأقوياء،

كما يتم التوعية بالشعوب المنزوعة السبلح المسد لوبه الموارد مثل الشعوب الافريقية ،وبلاد العالم الثالث حدين يكون الوعي منخفضاً ،والقوانين غائبة أو عاجزة عن حماية الشعب، و وزارات الصحة بلا إمكانيات للوقاية أو الوعي بأساليب الوقاية الجديدة،وحيث تتعمد شركات الأدوية إخفاء الحقائق على الناس والمسؤولين عن الصحة في تلك البلاد ،أو تقدم لهم الاغراءات أو الرشاوي للتغاضي عن تطبيق القوانين الصحية أو الاجراءات الضرورية قبل الموافقة على استيراد أي شحنة من أمصال التطعيم أو وسائل منع الحمل أو غيرها من العقاقير .

وفي مجلة المصور ، الصادرة بالقاهرة ، دار الهلال ٨ نوفمبر ١٩٨٥ ،نشرت موضوعاً مفصلاً تحت عنوان "الخطر الغامض، حقائق جديدة حول حقن منع الحمل" ومنه ما حقنة" الدييو بروفيرا" التي ثبتت ضررها على صحة النساء،ومنعت السلطات الأمريكية استخدامها داخل الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن شركة"إيجون" توزع هذا العقار في بلاد عديدة في إفريقيا ومنها مصر، حتياليوم ونحن في شهر اكتوبر ٢٠٠٢ وقد وجدت هذه الحقن في قريتي كفر طحلة ،

محافظة القليوبية، داخل مايسد مي مركز ز ص حة الأم
والطفل .حيث تحقن النساء الفلاحات بهذه الحقن الضارة منعاً
للحمل.

وفي عام ١٩٨٥ عرضت الامر على وزير الصحة في
مصر (كان هو الدكتور حلمي الحديدي) وتوقع ت أن ي تم
إخراج هذه العقاقير الضارة من قائمة وسائل منع الحمل التي
توزع في بلادنا، إلا أن النتيجة كانت إخراج وزر ص حة
من قائمة الوزراء في تلك الحكومة في منتصف الثمانينات.

وفي جريدة الأهرام ٩ أكتوبر ٢٠٠٢ (ص ١٠) ت د ت
عنوان من قريب ، كتب الأستاذ سلامة احمد سد لامة ع ن
مشكلة الأستاذ بكلية الصيدلة بأحدي الجامع ات المص د رية
والذي حصل على منحة بحثية من جامعة يوتا الأمريكية ،
ممولة من المعهد القومي للصحة (NIH) للعمل في مشروع
بحثي لتشييد مضادات للإيدز باستخدام تكنولوجيا ما الع م لاج
الجيني المتقدمة.

ثم جاء الأستاذ المصري في اجازة عائلية سريعة إلا انه
عجز عن العودة إلى أمريكا بسبب ع دم حص وله ع لى
تأشيرة دخول من القنصلية الأمريكية بالقاهرة ، رغم استيفائه

جميع الأوراق المطلوبة، ورغم تدخل الأسد تاذ الأمريكي
المستول عن البحث والذي طلب سد رعة إء راءات سد فر
الأستاذ المصري "منعاً للضرر الذي لء ق ب ه وبمش روع
البحث ، رغم ذلك مضي أكثر من أربعة شهور ولم يحصل
الأستاذ المصري على التأشيرة حتى اليوم.

ومن المعروف أنه منذ نشر كتاب نشوء الفيروسات عام
١٩٩٧ للطبيب الأمريكي ليونارد هورويدز، وهناك محاولة
للتمويه على الحقائق وإخفاء أسباب نشوء وباء الإيدز في
إفريقيا، وكذلك إحاطة جميع البحوث المتعلقة بالاي دز في
الولايات المتحدة الأمريكية بالسرية الشديدة وعدم تسريها إلى
الاطباء أو الباحثين في بلاد أخرى وعلى الاخص ال بلاد
الافريقية.

ألهذا السبب تحاول السلطات الأمريكية وضع العقبات
أمام هذا الأستاذ المصري للسفر مرة أخرى إلى الولايات
المتحدة، وإكمال بحوثه في مجال تشييد مضادات الإيدز ؟!
أهو الخوف من انكشاف المستور؟ أم محاولة السيطرة على
المعلومات بما فيها تلك الخاصة بعلاج الإيدز والتي تحتكرها
الشركات الأمريكية وتبيعها للبلاد الأفريقية بأضعاف الثمن؟!

القاهرة ١١ أكتوبر ٢٠٠٢

تخة فلسفة إنسانية لإحياء الضمير

الورقة المقدمة في افتتاح المؤتمر الدولي السادس

لجمعية تضامن المرأة العربية

(القاهرة ٣-٥ يناير (٢٠٠٢)

"لا أوصي ابنتي التي سلتني العرش من بعدي أن تكون
إلهة لشعبها لتستمد سلطتها من قداسة الألوهية . بل أوصيها
أن تكون حاكمة رحيمة عادلة".

من نوت إلهة السماء لابنتها إيزيس (مصدر القديم
٩٨٨ ق.م)

١- تحت اسم المقدس أو القداسة:

هذه الوصية من نوت لابنتها إيزيس تعبر عن الفلسفة
السابقة لنشوء النظام العبودي في مصر القديمة منذ خمسة
آلاف عام قبل ظهور الديانة اليهودية والمسيحية.

كان الحكم يقوم على العدل والرحمة ، وليس على القوة أو السلطة السياسية والاقتصاد ادية والعسكرية التي استمدت قوتها من السلطة الدينية أو قداسة الألوهية.

إلا أن هذه الفلسفة الإنسانية قد اندثرت (إلا قليلاً) في مصر القديمة والحديثة تحت ضربات القوي الطبقية الأبوية الصاعدة الرافعة شعار " قداسة الألوهية " وقد تخفي الحاكم الفرعوني تحت زي الإله ، ، أصبح مقدساً لا يجوز نقده أو محاسبته ، مما أدى إلى صعود القوة الحاكمة فوق الحق والمنطق ، حتي يومنا .

إن الدكتاتورية أو السلطة المطلقة ليست سمة الحكومات في بلادنا العربية أو مايسمونه اليوم الشرق الأوسط (الأوسط بين من ومن) بل هي سمة الحكومات جميعاً غرباً وشرقاً ، تختلف درجة الدكتاتورية من بلد إلى بلد . حسب ظروف كل بلد وقد تحظى بعض الشعوب في أوروبا وأمريكا بحريات شخصية أو فردية تحت أسم الديمقراطية ، لكنها ديموقراطية هشة سطحية لا تشمل الحياة السياسية والاقتصادية العامة أو الخاصة وقد تقتصر أحياناً على الممارسات الجنسية ، مما يؤدي إلى هيمنة الديمقراطية

المشوهة أو التناقضات الصادرة التي تعيشها النساء
والرجال في بعض البلاد.

نحن نعيش في عصر الازدحام الجديد Neo-
colonial وليس في عصر ما بعد الازدحام (post -
colonial) كما هو شائع في الجامعات الأمريكية والأوروبية
، ورغم أنها مجرد كلمة إلا أن اللغة تكشف عن القوى
الحاكمة في العالم ، وهي تحكم من خلال المؤسسات السياسية
والاقتصادية . بالإضافة إلى المؤسسات الإعلامية والتعليمية
ومنها الجامعات.

منذ طفولتي في الثلاثينات من القرن الماضي ، وحتى
اليوم في بداية القرن الواحد والعشرين وأنا أشهد عمليات
القتل الفردية والجماعية تحت اسم الله أو الوطن أو الملك أو
الملكية التي تغير اسمها فقط إلى جمهورية أو جماهيرية أو
شعبية أو ليبرالية ديمقراطية أو غيرها من الكلمات التي
تصف بها الحكومات نفسها في الغرب والشرق على
السواء.

تلعب اللغة دورها في إخفاء الحقيقة التي نعيشها ، فإذا
بالدكتاتورية تتخفي تحت اسم الديمقراطية ، والاستعمار القديم

والجديد يتخفي تحت اسم الحماية أو المعونة أو التنمية أو التحديث، والازدواجية أو الفساد أو الكذب يتخفي تحت الشرف والاخلاق والصدق.

حين نطق الإنسان (المرأة والرجل) في بداية التاريخ غير المكتوب كانت اللغة تهدف إلى الايضاح والتعبير عن الرغبات الطبيعية على رأسها الحب والتعاون وحل المشكلات التي تعترض الحياة في الواقع المعاش. كيف تحولت اللغة من أداة للوضوح والفهم والمعرفة إلى أداة للإخفاء والتمويه والتعمية؟

اللغة هي رموز تهدف إلى التعبير عن الواقع، واختزال الأشياء الضخمة الحجم إلى رسومات أو أرقام أو حروف يمكن قراءتها على الحجر أو الورق أو الشاشة أو ديسك الكمبيوتر.

وهنا تكمن خطورة اللغة أو غيرها من الرموز التي تشكل الفكر والدِّين والفلسفة والتاريخ والأدب والطب والهندسة وغيرها من الفنون أو العلوم الإنسانية والطبيعية.

لقد انفصل الواقع المعاش أو الحقيقة الحية التي يعيشها النساء والرجال عن اللغة والدين والفلسفة والتاريخ والأدب والطب وغيرها واستطاعت الأنظمة الحاكمة في الشرق والغرب منذ نشوء العبودية (حتى يومنا هذا) أن تستغل هذا الانفصال بين الرمز والحقيقة من أجل طمس الحقيقة وتعمية عقول النساء والرجال عن الواقع المعاش، مما يمكن أن نسميه "حجاب العق" وهو أخطر من حجاب الوجه لأنه غير مرئي بالعين وغير ملموس باليد، وبالتالي يبدو كأنه غير موجود.

حين تختفي أداة القمع أو القتل يصبح من الصعب التصدي لها ومقاومتها، ومن هنا خطورة حجاب العقل الذي فرض على النساء والرجال تحت اسم الفكر أو الفلسفة أو الأخلاق أو السياسة أو الثقافة أو غيرها.

منذ بداية التاريخ المكتوب دخلت القيم العبودية أو الطبقية الأبوية داخل علم الفلسفة والأخلاق والقانون العام في الدولة والقانون الخاص في الأسرة، أصبحت ازدواجية والتناقضات العبودية هي أساس التفكير الفلسفي أو ما سمي بالعقل.

هكذا تختف تحت اسم العقل فلسفة غير عقلانية ،
وبالتالي غير إنسانية فرضتها الإنظمة الحاكمة وأتباعها من
الفلاسفة والمفكرين منذ حكومة الإله آمون في مصر القديمة
حتى حكومة جورج بوش الأب والأب بن في الحكومات
الأمريكية الحديثة. وفي اليونان القديمة سيطرت الفلسفة
العبودية على عقول الفلاسفة من أمثال أفلاطون وأرسطو
الذين عاشوا في حماية السلطة الحاكمة، أما الفلاسفة
الآخرون الذين قاوموا هذه الفلسفة غير الإنسانية فقد انتحروا
في السجون أو قتلوا تحت تهمة المساس بالذات العليا المقدسة
الملك أو الامبرطور الذي تخفي تحت زي الإله في السماوات
أو الملكوت الاعلي.

وهنا كانت الخطوة ولا تزال حتى اليوم ، تحت اسم
المقدس، ثم اندثار الفلسفات الأكثر إنسانية والأكثر عقلانية
التي قاومت الفكر العبودي بأشكاله المختلفة التي تطورت
عبر القرون لتصوغ الفلسفة الرأس مالية التطبيقية العبودية
الحديثة وما بعد الحديثة هذه الفلسفة التي تعتبر فيلسوف
العبودية في اليونان القديم مثلها الاعلي، وهو أرسطو

(٣٨٤-٣٢٢ ق.م) الذي تصور أن العبودية أمر عادل تتطلبه طبيعة العبد وطبيعة المرأة.

أصبحت العبودية هي العدل، وهي الطبيعة، وهي العقل أو الفلسفة أو المنطق ودخل الظلم في التاريخ تحت اسم العدل، ودخل اللا منطق تحت اسم المنطق أو العقل، وكان لابد من تشويه الطبيعة وتطويعها لتواكب هذه الفلسفة غير الإنسانية غير المنطقية.

لقد أدي حجاب العقل إلى تشويه العقل والجسد والروح في تلاحمها الطبيعي داخل الإنسان (المرأة والرجل) واندتشت في التاريخ (من النساء والرجال) الذين قاوموا العبودية منذ نشوئها حتى اليوم، منذ نوت وإيزيس وإخذاتون وتي ونفرتيتي وهيباثيا الذين تم القضاء على هم وتحطيم فلسفاتهم الأكثر إنسانية في مصر إلى ديموقريطس في اليونان وأبن رشد في شمال إفريقيا، حتى المفكرين في يومنا هذا ممن النساء والرجال الذين يقاومون الفكر الراسد مالي الطبقي الأبوي الذي يتخفي تحت اسم براق جديد هو الفلسفة ما بعد الحديثة، تلمع فيها أسماء من أمثال صمويل هانتجتون

،وتلعب تكنولوجيا الاتصالات والأقمار الصناعية في نشر أفكارهم شرقاً وغرباً.

هكذا يصبح حجاب العقل مشكلة عالمية وليس فقط مشكلة عربية أو إفريقية أو إسلامية كما يتصور بعض الناس، أو كما يحاولون تصوير التخلف الحضاري كأنما هو مرتبط بالاسلام، أو كأنما الاسلام هو وراء الفكر الفلسفي العاجز عن مواكبة الحداثة أو ما بعد الحداثة، وأعتبرنا هـ و عصر الارهاب الاسلامي أو الصراع بين الاسلام والغرب. وتكمن خطورة هذا الفكر المفروض على العالم بالآلة الاعلامية الرأسمالية الأبوية إنه يحجب عن عقولنا الاسباب الحقيقية للصراع الدموي الذي يسود العالم، ويسد وق أسد باباً سطحية ومزيفة تزيد من كثافة حجاب العقل، إلى الحد الذي أصبحت فيه اللغة المكتوبة في الصحف السائدة غير مفهومة حتي لمن يكتبونها. سألت احد الكتاب المصريين المعروفين جداً (ينشر مقالا أسبوعياً طويلاً في جريدة كبرى مع صورة كبيرة) عن معني ما يكتبه عن العولمة فإذا به لا يفهم ما يكتبه واحمر وجهه بالغضب مني لأنني أوجه إليه الأسد ثلة

،وهو فوق السناؤل أو المحاسبة مثل الآلهة والملوك ورؤساء الدول.

٢- ولن نحمل الزكائب إلى الابد؟

إن المشكلة الاسياسية التي تواجهنا هي كيف نرفع هـ ذا الحجاب الكثيف عن عقل المفكرين الكبار قبل غيـ رهم مـ ن عامة الشعب؟ أو كيف نصوغ فلسفة إنسانية لأحياء الضمير الذي أصابه الضمور أو الموت؟ لا أحد يمكن أن ينكر أن العدل غائب في عالمنا الراهن دولياً ومحلياً ،وان الحرية غائبة أو الديموقراطية الحقيقية، وأن الم ذابح البشرى لا تكف،والعنف أو الارهاب يتسع ليشمل البلاد شرقاً وغرباً ، ومع ذلك فإن أغلب المفكرين لا يزالون يلوكون مبادئ الفلسفة الطبقية الأبوية الرأسمالية في الغرب والشـ رق،وقد عشت في نيويورك ونيوجيرسي خلال الشهر الأربعة الماضية وشهدت أحداث ١١ سبتمبر عن قرب شديد ،وعشت مخاوف الشعب الأمريكي مما أطلق على هـ اسم " الارهاب الاسلامي"، وعدت إلى الوطن منذ اسـ ابيع قليلة،وعشت مخاوف الشعب المصري والشعوب العربية مما أطلق على هـ

" الارهاب الأمريكي والاسرائيلي"،وهذا كمن يسد مونه " الحرب الصليبية المسيحية واليهودية". يغذي هذا الصراع الذي يتخذ شكل الصراع الحضاري بين الغرب والشرق، أو الصراع الديني بين الإسلام والمسيحية واليهودية أغلبية المفكرين في بلادنا العربية الذين يعيشون داخل الغرب المغلقة غارقين في المجردات ، أو ناقلين عن مفكري الغرب دون فهم ، أو دون تحليل عميق للأحداث الجارية في الواقع المعاش.

وقد سألت المفكر المصري الشهير (الذي ينشر صورته ومقاله الطويل اسبوعيا) عن رأيه في قضية طفل نرّف حتي الموت بعد عملية الختان، ورأيه في قضية طفلة قتلها أهلها لأنها خلعت الحجاب، ورأيه في قضية حبس أو محاكمة كاتب لأنه مس الذات العليا. ورأيه في قضية استيلاء احد رجال السلطة في قريتي على قطعة ارض صغيرة تملكها احدي الفلاحات ،ورمقني المفكر الكبير وهويمط شفتيه إلى الامام معلنا أنه لا ينشغل بهذه القضايا الصغيرة لأنه مشغول بالقضايا الكبرى ، على رأسها العولمة، وتذكرت " ارسطو" حين ذهب إليه أحد الفلاحين يشكو احد

رجال السلطة في اليونان لانه استولي دون حق على قطعة ارض صغيرة كان يملكها ويزرعها لإطعام إطفاله ، صرف أرسطو قائلاً إنه مشغول بالكرة الأرضية كلها، وليس قطعة أرض صغيرة.

لقد استطاع ارسطو منذ القرن الرابع قبل ميلاد المسيح أن يدخل قهر المرأة ووضعها الأدنى في الفلسفة والقانون ، حين أعلن أن المرأة لا تساهم في صنع الجنين إلا بمادة خام غير حية(وعاء الرحم) أما الرجل فهو وحده الذي يمنح الحياة للطفل.

هكذا أصبح الحق القانوني للاب فقط، أصبح اسم الأب هو الذي يعطي للأطفال الحياة والشرف والشرعية والجنسية والدين. وضاع حق الأم تماماً وأندثر اسمها وفكرها وجهودها في التاريخ القديم والحديث حتي يومنا هذا.

لقد ضربت الحركات النسائية شرقاً وغرباً التي حاولت التصدي للعبودية والقيم الطبقية الأبوية المدعمة لها، وتم تحطيم فلسفة "نوت" المصرية التي سبقت الفلسفة العبودية ، ومنحن الإنسان امرأة ورجلاً واجبات وحقوق متساوية في الاسرة الرابعة.

وقد انهارت هذه الفلسفة الإنسانية مع نشوء النظام
الأبوي الطبقي، وفقدان مصر استقلالها الفكري والاقتصادي
تحت غزوات الاستعمار القديم والجديد. ولم تكف النساء
المصريات عن المقاومة حتي اليوم، ولم يكن الفلاحون
الاجراء عن المقاومة حتي اليوم، وقد عبرت بعض الاغاني
الشعبية المصرية القديمة عن قهر الفلاحات والفلاحين تحت
نير السلطة المحلية والأجنبية ومنها هذه الاغنية:

أهو قدرنا المفروض على نأنا نحمّل فوق ظهورنا
طوال اليوم الشعير والقمح الأبيض لا تزال المخازن مكدسة
بتلال الغلة

ولسوف نحمّل الزكائب إلى الأبد

في طفولتي في القرية كنت أسير بجوار عمتي الفلاحه
وهي تمشي إلى الحقل حاملة زكية القطن فوق رأسها، أو
الزلة الكبيرة المملوءة بماء النيل، وأسمعها تغني مثل هذه
الاغنية، إلا أن عبارة "فوق ظهورنا" تغيرت إلى عبارة
أخري هي "فوق رؤوسنا".

٣- إنها حضارة واحدة:

يلعب حجاب العقل دوراً كبيراً في ترويج الثنائيات والقيم المزدوجة وما يصاحبها من أفكار مضللة، ومنها فكرة الصراع بين الحضارات، أو بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، مما يحجب عنا الحقيقة، وهي أننا نعيش في عالم واحد وليس ثلاثة وحضارة واحدة هي حضارة راسمالية ابوية نبعت وتطورت من العبودية القديمة القائمة على الثنائيات الباطلة، على رأسها ثنائية السيد والعبد. المالك والمملوك. الملاك والشيطان، الحاكم والمحكوم، الروح والجسد، السماء والأرض، المؤمن والكافر، والخير والشر، الخطيئة والفضيلة، الذكر والأنثى.

لو أننا تأملنا لغة جورج بوش الأب بن بع د أ د ا ث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لاكتشفنا أنها لغة دينية مسيحية تستخدم اسم الله لتعلن الحرب في أفغانستان ضد الشيطان اسامة بن لادن وأعوانه في تنظيم القاعدة، ولا يكف جورج بوش عن الغناء في الكنائس مع أعوانه هذه الأناشيد الدينية السياسية في أن واحد.

١- نحن امة واحدة تحت الله (One Nation

(Ynder God

٢- نحن نثق في الله (In God We Trust)

٣- فيد بارك الله في امريكا (God Bless

(America

ويردد مثل هذه الاناشيد الدينية السياسية رجال الفاتيكان على رأسهم "البابا" الذي اسرع بزيارة اوزبكستان وغيره ما من البلاد المحيطة بأفغانستان وبد ر ق زوين منشداً الله والمسيح والروح القدس. ساعياً إلى توحيد المسيحيين ضد ما أسماه الارهاب الاسلامي ، وتمهيد الطريق لتد ت اس م الله للقوات العسكرية الأمريكية والبريطانية لغزو أفغانستان.

وهل تختلف لغة جورج بوش الدينية أولغة البابا عن لغة اسامة بن لادن واعوانه في تنظيم القاعدة؟! ألا يصور كل منهم الآخر على أنه الشيطان الشرير أو الارهابي غير المتحضر؟! ألا يدعي كل منهم أن الله معه في حربه المقدسة من أجل الخير والعدل والسلام والتحضر.

وأى حضارة هذه التي تؤدي إلى هذه المذابح البشرية في أفغانستان أو العراق أو الصومال أو غيرها؟ كيف تخفت المذابح لآبادة الشعب الفلسطيني تحت اسم معاهدات السلام؟ منذ نشوء النظام الطبقي الأبوي وحتى اليوم تراق الدماء البرئية من الشعوب نساء ورجالاً وأطفالاً تحت شعارات دينية وطنية، لا يوجد فاصل بين الدين والوطن في الشرق والغرب، في الإسلام أو المسد يحية أو اليهودية أو غيرها، ينظر جورج بوش إلى العساكر الأمريكية الذين يقتلون في أفغانستان على أنهم إبطال الوطن وشهداء المسيحية، وينظر إسامة بن لادن إلى القتلى من أعوانه على أنهم شهداء الإسلام، وماذا يدهشنا في ذلك التشابه في اللغة والسلوك والهدف بين القادة السياسيين الذين يستخدمون الدين وسيلة لتحقيق أهدافهم العسكرية والاقتصادية، عن الدين يخدم السياسة منذ نشوء الدين والسياسة، وتشمل الكتب الدينية على نصوص سياسية وثقافية واقتصادية وعسكرية. بالاضافة إلى النصوص الاخلاقية والاجتماعية والشخصية. ربما ما أوضح مثال على ذلك هو ما جاء في كتاب التوراه عن التفرقة الصارخة على اساس الجنس، واعتبار حواء هي

المسئولة عن إثم المعرفة تستحق عقاب الله وذلك بأن يسود على ها زوجها، من هنا ارتدت السلطة الابوية الذكورية رداء مقدساً توارثته الأديان الأخرى من بعدها ، وفي التوراه أيضاً جاءت الآية التي شرعت العنصرية بأن رفعت الشعب اليهودي إلى درجة أعلي من شعوب العالم، فأصبح يحمل لقب شعب الله المختار، وفي التوراه أيضاً جاء النص الذي يدعو فيه الله شعبه المختار للإستيلاء على أرض كنعان (فلسطين) وإبادة سكان هذه الأرض لمجرد أنهم لا يؤمنون بالله اليهود ، إنها الأرض الموعودة التي منحها الله لليهود مقابل ختان الذكور كما نصت التوراه ، هكذا شرعت التوراه الحرب المقدسة من أجل الأرض تحت اسم إبادة الكفار غير المؤمنين . كما شرعت ختان الذكور كعهد مقدس بينهم وبين الله.

ما علاقة الاستيلاء على أرض الغير بالقوة المسلحة وقطع الغرلة من حول راس العضر الذكري؟
وقد دخلت فكرة " حجاب المرأة" ضمن المقدسات منذ نشوء الديانة اليهودية وينص التلمود على أن شدة المرأة العاري مثل جسدها العاري، وتعتبر راس الزوج و راس

المرأة، والمرأة بدون زوج هي مجرد جسد بدون رأس،
ويصلي الرجل اليهودي كل صباح قائلاً: احمك يا رب
لأنك لم تخلقني امرأة.

مع ذلك فقد استطاعت الآلة الإعلامية الأمريكية
الإسرائيلية أن تحجب هذه الحقائق التاريخية عن عقول الناس
لتصور الإسلام وحده على أنه مصدر حجاب المرأة رغم
أنه لا يوجد نص واحد في القرآن يدعو إلى ختان المرأة أو
تغطية رأسها أو شعرها، ولا يوجد نص واحد يقول إن حواء
هي سبب الإثم والخطيئة لأنها أكلت من شجرة المعرفة كما
ورد في التوراه.

إن القوة العسكرية المدعومة بقوة إعلامية قادرة دائماً
على قلب الحقائق وإخفائها، ومادامت القوة هي التي تحكم
فلا يمكن لعالمنا البشري أن يعيش في سلام حقيقي قائم على
العدل والحرية، ولابد من كشف هذا التزييف الفكري، أو رفع
الحجاب عن عقول الملايين شرقاً وغرباً.

إن الدراسات المقارنة للأديان تؤكد لنا التشابه الكبير
بين الديانات، خاصة الأديان السماوية الثلاثة، وهناك الكثير
من المبادئ الإنسانية في هذه الأديان كالعقل والرحمة

والمحبة والسلام تكاد تشبه ما ورد في فلسفة إيزيس ونوت، وهناك نصوص في كتاب التوراه تشبه اناشيد اخناتون ونفرتيتي، وصورة العذراء مريم تحمل المسيح تكاد تكون نسخة مكررة من صورة إيزيس تحمل طفلها حورس، وقد تحول الثلاث المقدس بعد نشوء النظام الطبقي الأبوي إلى الأب والابن والروح القدس (الأم المخفية وراء حجاب) بعد أن كان في الاصل: الأم والابنة والروح القدس (الاب المجهول).

كان الاب في بداية التاريخ البشري مجهولاً، ولهذا كان أغلب الانبياء بدون أب، النبي موسى لم يكن له أب وكانت أمه هي التي أنقذته من الموت على يد فرعون وهي التي أرضعته وعلمته وجعلته نبي اليهود، والمسيح لم يكن له أب، وكانت أمه السيدة مريم هي التي أنقذته من الموت وهربت به إلى مصر ثم جعلته نبي المسيحية ونبي المسلمين "محمد" ماتت أمه وهو طفل، لكنها تنبأت بنبوته وهو في رحمها وتزوج في العشرين من عمره من السيدة خديجة التي كانت تكبره بعشرين عاماً، فأصبحت له بديل الأم ربه وعلمته وأنفقت على ه من مالها وعلمها، حتي نزل على ه الوحي في

غار حراء فأسرع إليها ينتفض قائلاً: "دثرون دثرون دثرون"، فأخذته في حضنها كالأم وطمأنته، وكانت أول من ناداه باسم رسول الله.

إلا أن مساهمة الأم ودورها في أعداد الانبياء قد اندثر في التاريخ الأبوي الطبقى، وأصبح "الأب" هو الأصل وهو الأساس، وتذوب صورة الأب في صورة الإله في اليهودية والمسيحية، وهناك نص في كتاب التوراه يقول: "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا".

وهنا نرى كيف ولد الآلهة ذكوراً فقط مما أكد السمو والسيطرة الذكورية واندثرت حقوق النساء والأمهات وانخفضت مكانتهن. وقد اختزل كتاب التوراه عمر الإنسان على كهر الأرض إلى مدة لا تزيد عن ٣٣٨٩ سنة، وتم اختزال تاريخ مصري ليكون تاريخ التوراه، إلا أنه في عام ١٨٢٩ تم اكتشاف رموز اللغة المصرية الهيروغليفية، وتم اكتشاف أن عمر البشرية أقدم من التاريخ الذي حددته التوراه لخلق آدم ونوح وإبراهيم، ويكشف علم الكون الجديد العام

وراء العام عن الاخطاء العلمية والفلسفية التي وردت في الكتب الدينية المختلفة تحت اسم الحقائق الثابتة غير القابلة للنقد أو التغيير.

لقد استطاع علم الكون الجديد وما صاحبه من تقدم تكنولوجي كبير في وسائل الاتصال والإعلام أن يجعل هذا العالم بمثابة القرية الواحدة ، واصحبت الأحداث في أي مكان في العالم مقروءة ومرئية في اللحظة نفسها فوق الشاشة الصغيرة في قرية مصرية على ضفاف النيل مثل قرية أخرى على ضفاف نهر الميسيسيبي وغيرهما من الأنهار والقري والمدن في العالم شرقا وغرباً.

إلا أن هذا التقدم العلمي التكنولوجي لم يحقق السلام ولا العدل ولا الحرية ولا الحب، بل أصبح في خدمة الآلة العسكرية التي تخدم مصالح النظام الرأسمالي والأبوي الذي لا يهدف إلا إلى الربح على حساب ارواح الآلاف والملايين من البشر.

وقد شهدت في حياتي منذ ولدت في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي عدداً من الدروب الاسد تعمارية ، حروب

١٩٤٨ لإنشاء دولة إسرائيل وقتل وتشريد الشعب الفلسطيني ، حرب ١٩٥١ ضد الاحتلال البريطاني في قذامة السد ويس ، وحرب ١٩٥٦ حين غزت مصر الجيوش الانجليزية والفرنسية والإسرائيلية ومن خلفها الولايات المتحدة ، ثم حرب ١٩٧٣ حيث كاد الجيش المصري أن يسد ترويض الأرض المسلوقة في سيناء لولا التدخل الأمريكي لتدعيم إسرائيل ، ثم حرب الخليج ١٩٩١ حيث هاجم العراق ثلاثون جيشاً تحت القيادة الأمريكية وكم قتل من الشاب المصري والعربي في هذه الحروب ، ونحن نشهد اليوم ماذا يفعل النظام الأمريكي لإبادة الشعب الفلسطيني ، وماذا فعل في أفغانستان منذ الحرب المقدسة ضد الإلحاد في الثمانينيات من القرن الماضي ، كيف لجأ إلى زراعة الأفيون والاتجار به لتمويل العمليات العسكرية وزيادة الأرباح الرأسمالية ، إلى حد أن أصبح إنتاج الأفيون في أفغانستان يمثل ما يزيد من ٧٥% من أفيون العالم ، ويشجع هذا النظام على نشر البغاء والمخدرات بين الشباب والشابات وتحطيم حياتهم وعقولهم ليس في أفغانستان وحدها بل في العالم كله.

وقد نقل الاستعمار الأمريكي الجديد عن الاسد تعمار
البريطاني القديم هذه الوسائل البربرية غير الإنسانية للإبادة
الجماعية لأجساد وعقول وارواح البشر. ألم يلجأ الاسد تعمار
البريطاني إلى حرب الأفيون في الصين، ألم يلعب بورقة
الدين لخلق الصارعات وتزيق وحدة الشعوب من أجل
السيطرة والاستغلال؟ أليس مبدأ " فرق تسد " هو السائد في
الماضي والحاضر عالمياً ومحلياً؟ والام تلجأ الحكومات
المحلية بما فيها الحكومات العربية لفرض التفرقة
والانقسامات بين الشعوب الواحد من أجل السيطرة
والاستغلال؟ وهل تختلف الحكومات المحلية أو العربية عن
غيرها من الحكومات؟ السيت هي حضارة واحدة غير
متحضرة هي التي تحكم العالم شرقاً وغرباً؟

من يدعم ويساند الحكومات الدكتاتورية الأبوية في
الشرق أو الجنوب بما فيها الحكومات العربية؟ اليس هي
الحكومات الرأسمالية الأبوية في الغرب، وعلى رأسها
الحكومة الأمريكية؟ ومن الذي دعم وساند التيارات الدينية
الإرهابية الإسلامية أو المسيحية أو اليهودية أو الهندوكية أو
غيرها؟ ألم تكن هي حكومات الغرب على رأسها الولايات

المتحدة الأمريكية؟ حتي نظام الطالبان في أفغانستان وتنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن، ألم تكن كلها صناعة امريكية لضرب أعداء الرأسمالية؟

أليس هو نظام عالمي واحد وحضارة واحدة تحكمها بفلسفة طبقية أبوية غير متحضرة؟ لاشك أن هناك اختلافات في السلوك وبعض العادات من بلد إلى بلد إلا أنها اختلافات في الفرع وليس الأصل.

وقد آن الأوان لإدراك أن الغرب ليس كله صدياً مسيحياً يهودياً، وان الشرق ليس كله إسلامياً إرهابياً عاجزاً عن التحضر، هذه التقسية "غرب/ شرق" اصبحت مضللة مثل غيرها من التقسيمات.

٤- سقوط الديمقراطية الليبرالية:

تتصاعد المظاهرات الشعبية في عواصم العالم غرباً وشرقاً منذ المظاهرات في مدينة سيدياتنا في نوفمبر ١٩٩٩، وتتميز هذه المظاهرات بقدرتها على تجاوز التقسيمات التي فرضت على البشر لتمزيق وحدتهم الإنسانية تحت اسم الدين أو الجنس أو الجنسية أو العرق أو اللون أو الطبقة أو

المهنة أو الشهادة العلمية أو غيرها. لقد ذابت هذه الفروق المصنوعة بين الناس من أجل مقاومة الظلم الرأسمالي الأبوي الذي تجسد في قوانين منظمة التجارة الدولية والبنك الدولي وغيرهما من المؤسسات المسيطرة على شعوب العالم غرباً وشرقاً.

بدأ الشعوب تدرك أنها تعيش في عالم واحد تحت نير حضارة واحدة تؤدي إلى مزيد من الفقر ومزيد من القتل ومزيد من التضليل.

هذه الحركات الشعبية الجديدة في طريقها إلى النمو واكتساب مزيد من القوة والوعي والتنظيم كالمكتشفات مخاطر هذه الحضارة الرأسمالية الأبوية وقد اكتسبت هذه الحركات الشعبية اسماً جديداً، هو "العولمة من أسفل" أو العولمة من قاعدة الهرم لمقاومة العولمة الرأسمالية الاستعمارية القابعة فوق قمة الهرم. والتي تمثل الأسلمحة النووية والشركات التجارية الكبرى المملوكة لقلّة قليلة من الأفراد يمثلون الطبقات الحاكمة غرباً وشرقاً.

إن ثروة أغني ثلاثة عائلات في العالم تزيد عن دخل
٦٠٠ مليون شخص . ومن أجل حماية هذه القلة الثرية ينفق
العالم سنوياً ٧٠٠ بليون دولار على الحرب والتسليح. وهي
تساوي أربعين ضعفاً لما ينفق على الصحة أو التعليم أو
توفير الماء النقي.

تعتمد الفلسفة الطبقيّة الأبوية منذ العبودية على ما
يسمى المساعدة أو المعونة للفقراء والمعدومين واليتامى
والمساكين، تحت اسم الرحمة أو الشفقة، وهي كلمات
تضليلية توحى بالإنسانية، وهي في حقيقتها كلمات تزيد من
إذلال الفقراء . فاليد العليا خير من اليد السفلى، وهي كلمات
مضللة أيضاً لأنها توحى للفقراء انهم يعيشون من فضل
الاثرياء ومن كرمهم ومن خيرهم، أو على حسد أبهم، ففي
حين أن العكس هو الصحيح، ذلك أن ثراء الاغنياء ليس له
مصدر إلا العمل المنتج الذي يقوم به الناس والرجال
الفقراء في الحقول والمصانع وغيرها من مؤسسات العمل
في مختلف بلاد العالم، وهو عمل يكاد يشبه السخرة
لأنخفاض الأجر بالنسبة للجهد الذي يبذل فيه والإنتاج الذي
يصدر عنه.

وتقوم النساء في العالم بالانتاج الزراعي والصدناعي والخدمات بما يزيد عن ٦٥% من العمل المنتج، مع ذلك لا يحصلن إلا على ٥% فقط من دخل العالم. مما يفرض على هن أن يعيش عائلة على الرجال داخل الأسرة، على حين أن الحقيقة غير ذلك، لأن إنتاج النساء داخل البيوت وخارجها أكثر من إنتاج الرجال، لكن أغلب الأعمال النسائية غير مدفوعة الأجر.

وقد بدأت الحركات النسائية في مختلف البلاد غرباً وشرقاً تكشف هذه الحقيقة كما بدأ فقراء العالم في البلاد التي أطلق على ها البلاد الفقيرة (فيما سمي العالم الثالث) تكشف عن زيف الحقائق التي تروجها الحكومات الرأسمالية الاستعمارية، على رأسها أن فقراء العالم الثالث يعيشون على معونات العالم الذي أطلق على ه العالم الأول، وكأنما العالم الثالث يعيش عائلة على العالم الأول كما تعيش المرأة عائلة على الرجل، لكن الحقيقة غير ذلك، وهي أن موارء العالم الثالث قنهبب بواسطة الاستعمار القديم والجديد، وأن هذه المعونة ليست إلا جزءاً يسيراً من الأموال المنهوبة، بالإضافة إلى أن جزءاً كبيراً من هذه المعونة أو القروض

يعود بالفائدة على القوي المسيطرة دولياً ومحلياً ،ولا يصل إلا الفئات للمعدمين المساكين.

لهذا بدأت الشعوب في العالم الثالث ، أو ما يسمى الجنوب ترفض هذه المعونات والقروض فهي تسد تتزف الكرامة والموارد المادية تحت اسم تسديد فوائد الديون، وارتفع شعار " عدالة وليس المعونة (Fair Trade and not aid) وتزايدت المظاهرات الشعبية لإلغاء ديون العالم الثالث، وفي المظاهرات النسائية العالمية في ٨ مارس عام ٢٠٠٠ ارتفع شعار يقول: كيف نقارن ديون العالم الثالث بخمسدة قرون من النهب الاستعماري وقتل الشعوب في الحروب؟ وقد أصبحت مظاهرات النساء المتكررة كل عام في اليوم العالمي للمرأة (٨ مارس) من أهم المظاهرات الشعبية ، يشارك فيها النساء من مختلف بلاد العالم ،وهي جزء من الحركة الشعبية العالمية التي تضرب في جذور النظام الرأسمالي الأبوي في الغرب والشرق وتكشف عن الترابط الوثيق بين القهر الطبقي والجنسي منذ التاريخ العبودي القديم وحتى اليوم.

ويلعب الأعلام الاستعماري العالمي دوراً في تضخيم حجم المعونات إلى الشعوب الفقيرة تحت اسم المساعدات الإنسانية (Humanitarian Aid) من أجل التمويه على ما يحدث من قتل وتدمير لهذه الشعوب ذاته، ألا مذكرتك العربات اللوري فوق الشاشة التي كانت تحمل المعونة الأمريكية وزكائب الدقيق إلى الشعب الأفغاني، في الوقت الذي كانت تسقط فيه القنابل من الطائرات الأمريكية على هذا الشعب ذاته، وقد شهدنا هذه الصورة نفسها منذ أعوام قليلة في حرب الصومال، والحروب الاستعمارية الأخرى في بلاد مختلف من العالم.

وتقود القوي الرأسمالية الأبوية حملة عالمية ومحلية تدعو إلى جمع التبرعات أو المنح المالية أو الدراسية للشعب الأفغاني، وهو حملة تمويلية تغطي على جرائم الحرب وتعطي واجهة إنسانية رحيمة لنظام بالغ القسوة والظلم وقد رفضت بعض القطاعات الشعبية الواعية في أفغانستان هذه المعونات، وارتفعت أصوات بعض الرجال والنساء الأفغان يقولون: "لا نريد المعونات التي لا تفعل شيئاً سوى تصويرنا على أننا شعب من الشاذين المتخلفين

وكل ما نريده هو أن يرحل عنا هذا التلال الأمريكي
العسكري الاقتصادي وأعوانه ممن يسد مون" التدالف
الشمالي" أليس التحالف الشمالي جزء من نظام الطالبان الذي
يتاجر بالدين؟ ويقتل النساء تحت اسم الشرف والأخلاق؟

لقد سمعت بأذني عبر أسلاك التليفون هذه الأصوات
النسائية الواعية في أفغانستان، إلا أن الأصوات الأخرى
المسيطرة على الإعلام العالمي والعربي تتجاهل هذه
الأصوات أو تفرض علىها الصمت.

وقد أصبح الصوت مع الصورة فوق الشاشة الصغرى
أكثر انتشاراً في العالم من الكلمة المطبوعة، وأكثر تأثيراً.
خاصة في بلادنا حيث ترتفع نسبة من لا يعرفون القراءة
وتتنافس الدول الكبرى والصغرى على أنشاء القنوات
التلفزيونية والفضائية. يتغلب في هذا المضمار الدولة الأكثر
ثراء وقوة وهي الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أصبحت قوة
الأعلام الأمريكي الأوروبي تساند قوة السلاح وأصبح تدمير
العقل لا يقل خطورة عن تدمير الجسد.

وتشتد المقاومة من أجل الحياة ضد آلة الحرب والقتل
كما تزداد الرغبة في المعرفة والفهم ضد محاولات التضليل
والتمويه.

وقد نمت بوادر فلسفة إنسانية جديدة نابعة من الحركات
التحريرية ضد الحضارة الرأسمالية الأبوية غرباً وشرقاً
،وهي فلسفة بسيطة واضحة متسقة مع المنطق الطبيعي
السليم أساسها البديهيات التي طمست منذ العبودية على
رأسها أن الخلق فوق القوة ، والشعب فوق الحكومة، والبشر
في الأصل والطبيعة متساوون في الحقوق والواجبات، لا فرق
بين رجل وامرأة أو أبيض واسود أو حاكم ومحكوم أو مالك
ومملوك أو غيرها من الثنائيات ،وأشكال التفرقة على أساس
الجنس أو اللون أو العرق أو الجنسية أو الطبقة أو الدين أو
العقيدة أو اللغة أو المهنة أو غيرها.

لقد سافرت إلى الولايات المتحدة قبل أحداث ١١
سبتمبر ٢٠٠١ بأسبوع واحد وعشت فيها ثلاثة شهور أقوم
بالتدريس في جامعة مونت كلير ،والتي لا يفصلها عن برج
مركز التجارة العالمية في نيويورك إلا نهر هدسون، أوساعة

واحدة بالسيارة وهكذا عايشت الأحداث عن قرب، وتجولت أيضا في عدد من الجامعات لإلقاء المحاضرات أو المشاركة في المظاهرات الطلابية الجامعية على الساحل الأطلسي في بوسطن ونيويورك. إلى الساحل الباسيفيكي أو أوكلاند وسان فرانسيسكو، وفي جامعة مونت كليلر تكونت لجنود ضد الحرب في أفغانستان تضم عددا من الطلبة والطالبات والأساتذة والأستاذات، وكنت واحدة من هؤلاء وقد منحت في هذا النشاط السياسي داخل الجامعة كثيراً من الأمل في المستقبل. رغم خطورة الأحداث وتزايد الصراع العسكري في أفغانستان حول المصالح البترولية في منطقة بحر قزوين وآسيا الوسطى والبلاد العربية من العراق إلى الصومال.

وقد أدت هذه الحركة السياسية التحريرية المعادية للحرب والتي يشارك فيها النساء والرجال والشباب من مختلف البلاد والجنسيات إلى بؤار هذه الفلسفة الإنسانية المناهضة للرأسمالية الأبوية، وهي فلسفة جديدة وقديمة قدم نشوء "الضمير الإنساني" الذي يحمل اسم "الله" عند بعض الشعوب، وهو الصوت العميق داخلنا الذي يحاسبنا ويرشدنا إلى العدل والحرية والحب والرحمة والجمال.

أدت الفلسفة العبودية غير الإنسانية على مدي القرون إلى إضعاف الضمي الإنساني الفردي والجماعي، عن طريق تحويل الصراع ضد الظلم الخارجي السياسي والاقتصادي إلى الصراع داخل الإنسان بين العقل والجسد، أو بين الجسد والروح، وأصبحت الروح تعني الفضيلة وترمز إلى الإله الذكر، والجسد يعني الرذيلة وترمز إلى الانثى الآثمة.

وسقطت الفلسفة السائدة المكتوبة في العصور العبودية صريعة هذا الصراع اللانهائي بين الروح والعقل والجسد. أصبحت الفلسفة غارقة في المجردات غامضة أشد به بالسفسطة الفارغة داخل المغلقة بعيدا عن الحياة في البيوت والشارع والمظاهرات الشعبية ضد النظام الحاكم.

بعبارة أخرى انفصلت الفلسفة الرسومية السائدة منذ أرسطو حتي اليوم عن "رجل الشارع"، أو جماهير الشعب في حركتهم اليومية الحية ونشاطهم في نواحي الحياة خاصة النواحي السياسية والثقافية.

وتتطوي كلمة "رجل الشارع" عن القيم السائدة التي تجعل النشاط السياسي خارج البيت أو في الشارع السياسي هو من نصيب الرجال فقط، لأن كلمة "أمرأة الشارع" تعني

المومس" أو " البغي" وليس المرأة النشطة سياسياً أو ثقافياً خارج بيتها وكأنما المرأة إلا تخرج إلى الشارع إلا لممارسة الجنس، وهو مفهوم قاصر على النساء الفقيرات أو الجواري أو الإماء اللاتي كن يخرجن إلى العمل لتوفير الخبز والطعام لأطفالهن ، ويفرض على هم المجتمع الطبقي الأبوي المهيمن السفلي ،ومنها الخدمة في البيوت ، وتلبية حاجات الرجال الجنسية في بيوت البغاء.

كان العمل خارج البيت مهيناً للمرأة ، فهو لا يعني أنها فقيرة ،وبلا رجل يوفر لها الحماية والمأوى ،لكن حركة النساء التحريرية في الغرب والشرق قد غيرت هذا المفهوم ،وإصبح لعمل المرأة خارج البيت قيمة إنسانية لا تقل كثيراً عن قيمة عمل الرجل، كما خرجت النساء إلى الشوارع في المظاهرات الشعبية والنسائية ولم يعد الشارع مكان المومسات فحسب.

نزلت المرأة إلى الشارع دون أن تفقد احترامها، وبدأت الفلسفة أيضاً تنزل إلى الشارع دون أن تفقد احترامها.

لم يعد التفكير مهنة يمارسها قلة محظوظة من المفكرين
أو الفلاسفة وبدأت القيم الطبقية الأبوية تتساقط مع مشد باركة
الجماهير من النساء والرجال في الأنشطة السياسية والثقافية
،وبدأت الفواصل بين الرجل والمرأة تتلاشي ومعها تتلاشي
الفواصل بين لجسد والروح وغيرها من الثنائيات الموروثة
منذ العبودية

وهناك محاولات قمع هذه الحركات السياسية والفكرية
الجديدة ،فالأجهزة القمعية البوليسية لا تقل شراسة وعنفاً عن
الأجهزة العسكرية في العالم غرباً وشرقاً، ربما تختلف درجة
القمع أو نوعه من بلد إلى بلد أو يكون مستتراً مثل القمع
النفسي الذي يمارس على النساء التأثيرات ويقود المرأة منهن
إلى الانتحار ، أو المستشفى النفسي وليس السجن.

وقد كشفت الحركات النسائية والشعبية الجديدة عن زيف
القيم السياسية والأخلاقية للنظام الرأسمالي الأبوي. على
رأسها ما سمي بالديموقراطية الليبرالية التي صورها
المفكرون في الغرب من أمثال فرانسيس فوكاياما على أنها
أفضل الأساليب لتنظيم المجتمعات الإنسانية ،وأنها مسد تقبل

البشرية لأنها تتسق مع الرأسمالية واقتصاديات السوق الحرة
وأنها تقود العالم إلى الحرية والعدالة والسلام والحب.
لقد أتضح خلال القرن العشرين الماضي أن هذه
الديموقراطية الليبرالية لا تقود العالم إلا إلى الحروب والعنف
والإرهاب، وأنها لا تستند على المشاركة الفعلية الشعبية
للنساء والرجال الفقراء، بل على التصويت في انتخابات
شكلية خاضعة لأصحاب الأموال والقوي الطبقة الذكورية
في المجتمع الرأسمالي.

وثبت لنا . خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر وحادثة
البترول والأفيون الدائرة في أفغانستان أن الحضارة الغربية
التي أعطت نفسها اسم الديمقراطية الليبرالية في جوهرها
حضارة طبقية أبوية، ولن تؤدي إلى السلام القائم على
العدل، ولا الحريات السياسية والاقتصادية لأغلب قطاعات
الشعب، ولا إلى مشاركة الشعب الفعلية في الانتخابات.

وقد عشت الشهور الثلاثة التي تلت أحداث ١١ سبتمبر
في الولايات المتحدة، وشهدت كيف تراجعت هذه الديمقراطية
الليبرالية لتفرض القيود على الشعب الأمريكي تحت اسم
الأم. كيف اجتمع جورج بوش بالمسؤولين الكبار في أجهزة

الإعلام وطلب منهم فرض الرقابة على ما ينشر ويذاع على الشعب الأمريكي كيف تتكرت الحضارة الأمريكية للمبادئ الديمقراطية الليبرالية التي تشدقت بها منذ القرن قبل الماضي، كيف شرعت الحكومة الأمريكية الاعتقال دون دليل لمجرد وجود شبهات؟ كيف زجت في السجون أبرياء من الرجال والنساء من دون تحقيق، وتقديمهم للمحاكمة السرية أمام المحاكمة العسكرية دون أن يكون لهم حق الدفاع القانوني؟ كيف لجأت إلى تكنولوجيا التعذيب الجسدي والعقلي والنفسي للمسجونين والمسجونات للحصول على المعلومات؟ وهذا يؤكد أن هذه الديمقراطية الليبرالية هشة ومزيفة ولا تختلف كثيراً عن الفاشية ونظم الحكم الشمولية والدكتاتورية العربية وغيرها، ولا غرابة في ذلك. فهي قائمة على الظلم والازدواجية، أساسها القيم الرأسمالية التطبيقية الأبوية الموروثة عن العبودية.

كشفت الحركات النسائية والشعبية الجديدة في الغرب والشرق أن العالم يفتقر إلى فلسفة إنسانية تقضي على القيم التطبيقية الأبوية، وتبني قيماً إنسانية جديدة قائمة على

العدل والسلام والحب ،وإلغاء جميع الثنائيات والتقسيمات بين
البشر .

القاهرة يناير ٢٠٠٢

الهوامش:

- (١) مسرحية إيزيس ، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٨٢، ص ٥.
- (٢) عن المرأة، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٨٨، ص ٢٤.
- (٣) سلمان رشدى، جريدة نيويورك تايمز ، نيويورك ٢ نوفمبر ٢٠٠١.
- (٤) صموئيل هانتجتون، مجلة نيوزويك، العدد السنوى الخاص، ديسمبر ٢٠٠١، فبراير ٢٠٠٢.
- (٥) عن المرأة، ص ٢٥.
- (٦) عن المرأة، ص ١٨.
- (٧) عن المرأة، ص ٢٠.
- (٨) توأم السلطة والجنس، دار المسد تقبل العربى، القاهرة ١٩٩٩، ص ٢٣٣.
- (٩) فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، (خليل عبد الكريم)، دار مريت للنشر، القاهرة ٢٠٠١.
- (١٠) كتاب التوارى، الآية رقم (١)، (٢)، الإصدار السادس، تكوين ٥، ٦.